﴿آثار الاول في ترتيب الدول﴾

لوحيد زمانه وفريد أوانه ذى الرقائق الحسنه والدقائق
المستحسنه العلامة الاديب والفهامة الاريب الحسن بن
عبد الله تغمده الله تعالى برحمته ور..

﴿بطرة الاصل ما نصه﴾

ألف العبد الفقير الى الله تعالى الراجي عفو ربه الحسن بن عبد الله
ابن محمد بن عمر بن محاسن بن عبد الكريم بن عبد المحسن
ابن عبد الكريم بن محمد هرون بن محمد هرون بن محمد بن
عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضى الله
عنه وكان ابتداء تأليفه عشية السبت ثالثة عشر
شهر شوال سنة ثمانية وسبعمائة والحمد لله رب
العالمين وصلى الله على سيدنا محمد سيد
المرسلين وعلى آله وصحبه
أجمعين

م

١٣٩٥

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الواحد في عظمته الماجد في قدرته القديم في أزليته العليم في أبديته الفرد في وحدانيته الصمد في سرمديته الحكيم في عزته الذي خلق الخلق بحكمته وبسط الرزق بقسمته فأوجد الانسان بلطيف صنعته وشرفه بأحسن تقويم في تكوينه وصورته وجمع فيه محامد العقل وفطرته وفضله على سائر الخلق من بريته وسخر له ما في البر والبحر بارادته وقدر الآجال بمشيئته وأوضح السبل بمعونته فمن اهتدى فبرحمته ومن ضل فانما يضل على نفسه لخيبته أحمده على ما أسدى من جزيل نعمته وأبدى من جميل صنعته وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له في ملكه والهيته ولا ضد له في ربوبيته وأشهد ان محمدا عبده ورسوله أرسله من أشرف خليقته فكان اعرفهم بحقيقته المخصوص

بالفضل

بافضل كرامته المبعوث الى كافة الناس برسالته لينقذهم من
ظلمة الضلالة ببعثته ويوقظهم من سنة الغفلة بنصيحته فاوضح
لهم الاحكام بشريعته وبين لهم الحلال والحرام بفصاحته
وعرفهم الطريق الى الله بهدايته وبشرهم بما أعد لهم الرحمن
الرحيم فى جنته وأنذرهم بما اعتد لهم فى ناره وعقوبته صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه وعترته فالسعيد السعيد من كان فى ذمته
مقتديا به فى معاملته ملازما على فرضه وسنته تابعا لآله وخليفته
مستمسكا بحبل أثر صحابته ينسج على منوال العالمين العاملين من
رفقته ويقفو أثر العافين العارفين من أمته والشقى الشقى من
تفوه بمخالفته واغتر باقبال الدار الفانية لشقاوته وذلك امهالا
لا اهمالا من عالم سريرته فأعاذنا الله من محنته ورزقنا الملازمة
على طاعته والاخلاص فى عبادته والانتقال اليه على فطرته
وحشرنا مع سيد البشر وفى زمرته وعصمنا من أبى مرة ونصرنا
عليه وعلى ذريته (وبعد) فانى لما رأيت أنوار شعاع شمس الايام
السلطانية قد بزغت على أقطار الارض من فلك مركز الديار
المصرية وتثبتت اركان دعائم الاسلام بالهمم العالية الركنية
وتقوم اعوجاج حظوظ النفوس الشهوانية واشتد أزر
العصابة المحمدية وتشمخت جبال أحمد الشريعة الاحمدية
وتشرفت المراكب بالمواكب الملكية المظفرية مد الله ظل
احسان مالكها على الامم وملك يد اقتداره رقاب العرب والعجم
وأعدم بوجود جوده ماذكر من العدم ونصر بعزائمه الاسلام حيث
الغيوم نقع والبروق سيوف والوبل نبل والديم دم ولا زالت ملائكة

النصر حافة بألويته وملوك العصر متشرفة بعبوديته قائمة بما
يجب عليها من حقوق طاعته وخدمته وقلوب الخلق مجبولة على
موالاته ومحبته متفيئة بظلال فضله ونعمته وشأفة الاعداء
مستأصلة بسيوف سطوته ونقمته ولا برحت أعلام نصره خافقة
فى الخافقين متولية بيد أمره ممالك المشرقين والمغربين عالية هم
احسانه على هامات الفرقدين جديدة ملابس سعادته على ممر
الجديدين مقتبسة من أنوار مساعيه أنوار النيرين متشبهة أيام
سيرته العادلة بسيرة العمرين فقبل المماليك الارض بشكر الله
معفرا خديه فى الثرى مستمسكا بيد الآمال فى الخدمة الشريفة
باوثق العرى مستمطرا من النعم الوافية أوفر ما عم الورى لان
موارد سلطانه للواردين صافية وظلال امتنانه على الصادرين
متوافية واقبال احسانه لمرضى الآملين معافية (شعر)

ترى الناس فى أبوابه ورحابها
كأنهم من فرط كثرتهم نمل
قد ازدحموا فى مورد الفضل والعطا
وكل امرئ قد عمه ذلك الفضل

فرمت ان أقدم هدية لخزانته الشريفة وتحفة أتقرب بها الى مقام
جلالته المنيفة وتعذر ان يقدم اليه الا بقايا انعامه ولا تستقى كل
أرض الا بصيب غمامه فان خزانته العالية مجمع الاخاير والذخائر
وراحته المتوالية تشمل المقيم والسائر هذا مع ما خصه الله به من
الفطرة الزكية والفطنة الذكية والدين المتين وحسن اليقين
وجميل الظن بزيارة المشايخ والفقراء وجزيل بره مع النظر التام

فى

في مصالح الاجناد والامراء والرفق بالرعية والعمل بالاحكام الشرعية مضافا الى ماتكامل فيه من فضائل الشجاعة والفروسية واحكام الامور الحربية والضوابط السياسية والهمم العلية والسيرة العادلة المرضية فضائل جاء الله بمجموعها وخصائل حسن منظورها مع مسموعها فلهذا ارقاه الله ذروة المعالى افضالا وملكه رقاب عبيده انعاما عليه واجلالا فافتخر على ملوك العصر وزاده نوالا فاوضحت بدايته نهاية غيره هكذا هكذا والافلالا

لله من ملك اذا مالامست * كفاه بحرا صار ذلك زلالا
ملك غدت كل الملوك ببابه * مستمطرين نواله افضالا
مستمسكين بحبل عروته التي * اضحى غمام جميلها هطالا
ملك بدايته نهاية غيره * كالبدر أول مايكون هلالا
كمل الخصال والمكارم والتقى * فالله يكفيه الزمان كمالا

الهمه الله العدل والانصاف وعلمه ان يتصف بهذه الاوصاف وفهمه الطريق الواضحة اليه ووسمه بميسم الاولياء منة من الله عليه ورسمه الله برسم قالب الكرامة وحكمه في ملكه وخلقه في صحة منه وسلامة هذا بعدما أوضح له مالكه أحوال الرعية عيانا فأحاط بها ظاهرا وباطنا معرفة وتبيانا ولم يبق له عذر عن ازاحة عذرهم وحسن النظر الكريم في مصالح أمرهم فانه لم تنطو عليه الاحوال البرانية ولم تعزب عنه الاسرار الداخلية فلما اطلع عالم سريرته على حسن سيره وسيرته فوض اليه امور بلاده وملكه رقاب عباده فركب في برج السعادة أسرع من طرفة العين ودانت له البلاد والعباد في البرين والبحرين وايده بملائكة نصره

فتزعزعت لركوبه ابطال الثقلين وألبسه من خلع الهيبة والوقار درعين حصينين وقلده من سلاح العظمة فى التقليد بسيفين وشرفه من خزائن العز بتشريفين وتفاءل من تفاءل به عند ركوبه فطلع فأله غاية مطلوبه قوله تعالى فى القرآن الكريم وماجعله الله الابشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الامن عند الله العزيز الحكيم فاستبشر به وسكنت هيبته ومحبته قلوب الخاص والعام واغدق على أرباب دولته بالتشاريف والانعام فكان قبولها دليل اقبالها وتلقيها بحول الله وقوته أصل استقبالها فكانت يومئذ هى أولى له وهو أولى لها كما قيل

فلم تك تصلح الاله * ولم يك يصلح الالها
ولو رامها أحد غيره * لزلزلت الارض زلزالها

ادخرها الله له فى قدم قدمه وهيأها له كما كان فى سابق علمه وحكمه فلما آن وقتها انشرف الخافقين علمه وأمضى فى رقاب الاعداء سيفه وأجرى بالارزاق قلمه وقد قلت

من شاء يسمع منى اصوب الكلم * فليجتلى درا رصعتها بفمى
ويجتنى ثمرات من مكارم من * احيا النفوس بطامى جوده الشبم
خصائص جمعت فى سيد ملك * اضحى عن الناس حقا كاشف الغمم
فاقت ما سيره كسرى وفاق على * امثاله نبأ بالسيف والقلم
فهو الذى خضعت اسد الحروب له
ودانت الخلق طوعا قبل فى القدم
لانه ملك كل الملوك غدت * فى بابه طاعة من جملة الخدم
همامه لم تزل فوق السماك علا * وهكذا يبلغ العلياء بالهمم

قد مد للعدل بسطا غير واحدة * ومد احسانه ظلا على الامم
اجاد بالعفو والمعروف ابنية * بها من المجد قصرا عالى الهرم
راحاته بخلت سح السحاب ندى * فباري حاتم الطائي فى الكرم
يروى العفاة بخمس من اصابعه * فضلا عن النيل مدرارا لمغتنم
لان ذا النيل يروى فى زيادته * من ستة مع عشر جدن بالغنم
والفرق بينهما لا شك متضح * معناه اشهر من نار على علم
وحسبك الآن من أضحت مكارمه
تمحو عن الناس أصنافا من العدم
فهو المظفر بالتاييد قد نشرت * بالنصر راياته والعز والحكم
وهكذا لم تزل آراؤه ابدا * صوابها بحساب غير منخرم
بالحزم والعزم مع ما انه ملك * ما زال واسطة للناس كلهم
أقام للملك أركانا مشيدة * ثم وللدين ركنا غير منهدم
صحت له فى رضا البارى معاملة * مع القبول بحبل غير منصرم
لما تواضع اجلالا لعزته * ذلت لديه رقاب العرب والعجم
ونال من ربه عز المكانة اذ * أعطاه ملكا عزيزا غير متهم
ما زال فى صلب الاجداد متشحا * بالرشد والدين والايمان والعصم
حتى اذا أشرف المريخ أظهره * فى برج سعد المعالى بارئ النسم
مؤيدا برد النصر مشتملا * مطرزا بطراز الجود والنعم
مجاهدا فى سبيل الله مجتهدا * بسيفه الباتر السفاك فى القمم
ما أضرمت نار حرب يوم معمعة * الا وكان لها كالزاخر العرم
قد فاز بالحج مبرورا مناسكه * مع الجهاد وبذل الخيل والنعم
فتارة يستقى من زمزم غدقا * وتارة للعدا يسقى كؤس دم

ولامة الحرب يوما هو لابسها * ويلتقى بدم الاحرام فى الحرم
وجامع الشتيت المكرمات فلم * يدع بمعناه مفعولا لمن يرم
وذاك ابداع سر فيه من صمد * أعطاه من أوفر التوفيق فى القسم
فالحمد لله اذ خص الانام به * لانه حسن الاخلاق والشيم
والله يبقى أيامه أبدا * مادام يجلو صباح غشوة الظلم

فخلد الله ملكه ما اتصل ليل بفجره وأعز الاسلام ببقائه وتأييد نصره ونظم الهبه فى سلك السعادة أيام دهره وأجرى الاقدار بنفاذ أمره وجمل الدنيا بامتداد زمنه وعصره وأدام فى ملكوت السموات والارض علو قدره فلم يكن بد من خدمة تنبىء عن صدق الاخلاص فى الولاء وصحة قصد الاشخاص والانتماء (فاستخرت الله تعالى) فى جمع هذا الكتاب وتأليف ما فيه من اللباب فى قواعد المملكة ومبانيها واسرار السياسة ومعانيها وتدبير الدولة الفاضلة وتقرير السيرة العادلة وذلك على سبيل الاذكار وتنبيه الافكار كما ورد فى الكتاب المبين قال الله تعالى وهو أصدق القائلين وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (وسميته) آثار الاول فى ترتيب الدول وقد رتبته على أربعة أقسام كل قسم يشتمل على أبواب وفصول وضوابط وأصول

(القسم الاول)

فى الضوابط والاصول وقواعد المملكة وهو عشرة أبواب

(الباب الاول) فى فضل الملك وشرفه والحاجة الداعية اليه (الباب الثانى) فى أركان الملك ودعائمه واسه وقوانينه (الباب الثالث)

فى مجمع الملك وهيا ته وخصاله وابهته (الباب الرابع) فيما يجب للملوك على الرعية وما للرعية على الملوك (الباب الخامس) فى حسن سيرته مع الملوك المجاورين والقبائل الاوداء والمعاندين (الباب السادس) فى سيرة الملك مع أمراء دولته وأركان مملكته (الباب السابع) فى سيرة الملك مع أهل الشريعة والعلماء والفقهاء والفضلاء (الباب الثامن) فى حسن سيرة الملك مع العباد والنساك وقبول نصائحهم (الباب التاسع) فى سيرته مع ذوى الشرف والبيوتات واعانتهم (الباب العاشر) فى سيرته مع التجار والقاصدين والصناع والمزارعين

(القسم الثانى)

فى أحوال الملك فى ذاته مع خواصه وخدمه وهو ثمانية أبواب

(الباب الاول) فى آداب الدخول عليه ومخاطبته ومجالسته (الباب الثانى) فى أحوال الوزراء واختيارهم وما يجب لهم وعليهم (الباب الثالث) فى كتاب الرسائل والدواوين ومالهم من الرسوم والقوانين (الباب الرابع) فى ولاة المظالم وانصاف المظلوم من الظالم (الباب الخامس) فى أصحاب البريد والاخبار والعيون (الباب السادس) فى الحجاب والنقباء والحرس والاعوان (الباب السابع) فى ذكر رسل الملوك وصفاتها وهداياها واتحافها (الباب الثامن) فى صحبة السلطان وشرائطها وما يحمد ويذم من ذلك

(القسم الثالث)

فى الامور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته وهو عشرة أبواب

(الباب الاول) فى هيئة الملك ولباسه وركوبه وجلوسه وانفراده بخصائص تميزها (الباب الثانى) فى آداب خواص الملك معه فى جميع أحواله وبطانته (الباب الثالث) فى آداب الاولاد والاقارب وحسن السيرة معهم (الباب الرابع) فى أمر الحرم وسياستهن (الباب الخامس) فى سيرة الملك مع مماليكه والخدم وتفضيلهم (الباب السادس) فى طعام الملك والادب فيه (الباب السابع) فى سماع تلاوة القرآن والمنادمة والمسامرة (الباب الثامن) فى مجلس السماع وراحة النفس واختيار ذلك (الباب التاسع) فى الرياضة واللعب بالكرة والمطاردة (الباب العاشر) فى الصيد والقنص وصفات الجوارح والكواسر وامراضها وعلاجاتها

(القسم الرابع)

فى الحروب وهو عشرة أبواب

(الباب الاول) فى وصف أجناس الناس واختلاف أصنافهم وأطوارهم (الباب الثانى) فى الشجاعة وحدها وفضلها وصفاتها (الباب الثالث) فى الفروسية ورياضة الخيل والركوب (الباب الرابع) فى الاسلحة واستعمالها فى الحرب وصفات الرمى وفضله والطعن والضرب للغزاة والحث على الجهاد (الباب الخامس) فى تولية الاعمال والمدن والامصار (الباب السادس) فى حفظ الثغور والقلاع ومايجب من أمورها (الباب السابع) فى الحروب والمصافات وتعبية العساكر (الباب الثامن) فى الكر والهزيمة وما ينبغى أن يفعله الهازم والمهزوم (الباب التاسع) فى الحصار وفتح

القلاع وما ينبغي أن يفعله الحاصر والمحصور (الباب العاشر) في حروب البحر وصفاتها ونبتدئ الآن بما سبق ذكره على ترتيبه

(القسم الاول)

في الضوابط والاصول وقواعد المملكة وهو عشرة أبواب

(الباب الاول في فضل الملك وشرفه والحاجة الداعية اليه)

اعلم أيدك الله ان الملك فضل الهي ينعم الله به على من يصطفيه من خلقه (قال) الله تعالى ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء قال المفسرون اصطفاه بمعنى اختاره والبسطة لها تأويلان أحدهما سعة في علم الدين والثاني زيادة في علم الحروب وعظم في خلقة الجسم وقال عز من قائل ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين والاشارة في ذلك الى الذين بهم الدفع ومنهم النفع ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس وتهارجت وطمع بعضهم في بعض واستولى الاقوياء على الضعفاء وتمكن الاشرار من الاخيار فيضطرون الى التشرد والتفرد وفي ذلك خراب البلاد وفناء العباد فان الجنس الانساني مضطر الى التآلف والتجمع في اتمام معيشته وانتظام حال بنيته فيحتاج الى سياسة تقيم أمره على الاستقامة وقال الله تعالى قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير فقرن الملك بالعزة ونبه على فضله وشرفه بهذه الاضافة (وقال) تعالى حاكيا عن فضل شكر يوسف عليه السلام رب قد آتيتني من

الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث قيل هو العلم باحداث الزمان
وقيل هو تعبير الرؤيا (وقال) تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام
ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم
ملوكا فهو نعمة الله السابقة وقد شبه بعض الفضلاء الملك بالروح
والرعية بالجسد فلا قوام للرعية الا بالملك كما لا قوام للجسد الا
بالروح ثم فصل ذلك فنسب العيون الى الحجاب ونسب الاذن
الى أصحاب الاخبار والجواسيس ونسب اليد والاصابع الى الجند
والاعوان ونسب الرجل الى المراكب من سائر الاصناف ونسب
الشعر الى الزينة والجمال ونسب الاحشاء الى الحرم وقد شبهه
بعضهم بالشمس التي بها نور العالم وضياؤه وصلاحه ونماؤه وقال
معاوية بن أبي سفيان نحن الزمان فمن رفعناه ارتفع ومن وضعناه
اتضع وقيل لبعضهم هل ينتظم حال بلد بغير ملك قال نعم اذا كان
كل من فيها حكيما فاضلا وهذا نادر (وقال الشاعر)

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم * ولا سراة اذا جهالهم سادوا

ولو لم يكن في شرف الملك وعظيم خطره الا ما أشار اليه الحديث
النبوي في قوله عليه الصلاة والسلام السلطان ظل الله في الارض
يأوي اليه كل ملهوف لكان ذلك من ادل الدلائل على جليل خطره
وعظيم موقعه وشرف مرتبته واثره ولم تزل الملوك تعظمها الامم
الخالية المؤتلفة والملل المختلفة وتشرفها وتدين بطاعتهم لاسيما
ملوك الفرس فان الفرس تبلغ في تبجيل ملوكها الغاية القصوى
وطائفة من الهند كانوا يتخذون الملوك أربابا وكذلك أهل مصر
كانوا يفعلون بملوكهم كفرعون موسى عليه السلام واسمه الوليد

ابن مصعب وفرعون يوسف واسمه الريان بن الوليد بن دومغ فى قول
يوسف اذكرنى عند ربك * وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم انه قال لرسول كسرى الذى ورد اليه بجمله أخبرنى ربى ان
ربك هلك البارحة واستمهله مسافة الطريق فكان كما قال عليه
السلام * فيجب على من أنعم الله عليه بهذه النعمة وهذه الرتبة
ان يزداد تواضعه لله تعالى وانكساره وانقياده للشريعة واجتهاده
فى تنفيذ أحكامها بسبب قربه منها وقال اردشير بن بابك فى عهده
الدين أس الملك والملك حارس الدين فالا اس له فهدوم ومالا حارس
له فمعدوم وقد ظهر ذلك فى بيان قوله تعالى ولولا دفع الله الناس
بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر
فيها اسم الله كثيرا فهذه اشارة الى ان بعض الناس يحامون عن
البيع والمساجد ان تهدم ويقوون أمور الدين ويحملون الناس
عليها وهم الملوك

(الباب الثانى فى أركان الملك ودعائمه واسه وقوانينه)

نبتدئ أولا فى مقدمة جملية تتضمن الضوابط السلطانية اذا كان
الملك محافظا على الشريعة محسنا الى متبعها معاقبا لمتجنبها محصنا
للاسرار متخيرا للوزراء والعلماء مهيبا فى أنفس الرعية مثمرا للاموال
مقدرا لما ينفق كان جديرا بثبات الملك وحسن الذكر وانقطاع أمل
من يروم الخلل فى دولته وأى ملك خالف الشريعة خالفته الرعية
واعانت عدوه عليه * وينبغى للملك ان يكون خلقه وسطا بين الرقة
والقسوة لان الرقة تطمع فيه فيتحرك أهل الفساد والقسوة تنفر
عنه فييأس أهل الخير والتائب من جرمه والأول من اخلاق

قوله فى قول يوسف أى على حسب اعتقاد المصريين والا فهو عليه السلام برئ من اعتقاد ربوبيته اهـ مصحح

البغاث من الطيور والثاني من اخلاق الكواسر منها (وينبغي للملك) ان يكون منزها عن خمس خلال * أولها أن لا يكون غضوبا حديدا فانه مع الحدة والقدرة يهلك الرعية والغضب مرض من أمراض النفس اذا حدث بها فسدت معه الآراء ولهذا ينهى الحاكم في الشرع عن الحكم وهو غضبان * الثانية أن لا يكون بخيلا لانه اذا بخل اختلت عليه أحوال أصحابه فيعجزون عن الوفاء بالخدمة ولا يناصحونه ولا يصلح الملك الا بالمناصحة * الثالثة أن لا يكون مخلفا لوعده ولا وعيده فانه ان كان كذلك لم يرج ولم يخف * الرابعة أن لا يكون حسودا فان الحسود لا يسود عنده أحد ولا يشرف ولا يصلح الناس الا بسادتهم وأشرافهم * الخامسة أن لا يكون جبانا فانه ان كان كذلك أدى ذلك الى جبن الاولياء واجتراء الاعداء (وقال) بزرجمهر يحتاج الملك الى اجناد يحفظون دولته واعوان يخدمونه ويحفظون مهجته وعلماء يحفظون دينه ووزراء يحفظون ملكه وعمال يحفظون ماله وخطباء يدعون اليه وشعراء يخلدون ذكره وندماء يجلبون أنسه وأطباء يحفظون صحته ومنجمين يختارون له الاوقات ويبشرونه بالمسرات ومطربين يغذون روحه بالنغمات (وسئل) الموبذ ان عن سيرة أردشير فقال انه لم يهزل في أمر ولا نهي ولا أخلف في وعد ولا وعيد وولى للتق لا للهوى وعاقب للذنب لا للغضب فأشربت قلوب الرعية محبته من غير جراءة وأودعت هيبته من غير ظلم (وقال جاماسب) حكيم الفرس ينبغي للملك ان تكون همته عالية فيوطن نفسه على بلوغ أقصى المراتب ونيل الغايات ثم يقدر

في نفسه حدوث النوازل وطروق النوائب وما يجب ان يقابل به كل حادثة ان طرأت فلا يستفزه الفرح بالبشائر الواردة ولا تزعجه الحوادث النازلة فيكون في المسرة كمن وعد بأمر ثم جاءه ويكون في المضرة كمن وطن نفسه على ذلك (ومثاله) كمن علم بوقوع آنية من الصفر من أعلى قصر فانه عند وقوعها الايرتاع كمن لم يعلم بها وهو غافل عنها (وقال) ارسطاطاليس من علم ان الكون والفساد يتعاقبان الاشياء لم يحزن لورود الفجائع لعلمه أنه لابد من كونها وهان عليه لعجز الكل عن ذلك وقال المتنبي في ذلك

اذا استقبلت نفس الكريم مصابها
بخبث ثنت فاستدبرته بطيب

وذهب بعض الملوك الى ان الاصلح للمملكة ان يكون الخوف من الملك أكثر من الامن منه (وقال) كسرى قباد ينبغي للملك ان يكون كالاسد حوله الفرائس لا كالفريسة حولها الآساد وما أسعد رعية تكامل في ملكها فضائل النفس والجسم ومن اجتمعت له الفضائل الجسمية وعدم الفضائل النفسية لا يستقيم له حال في ملكه ولا تنتظم رياسته كما قال المتنبي

وما الحسن في وجه الفتى شرف له
اذا لم يكن في فعله والخلائق

ومن كان بالعكس انتظم أمره ومن اجتمعت له الحالتان فقد كمل في الشرف واستحق الملك وان لم يكن ملكا فان السعادة أمر وراء الاحاطة والوصف ومن رام تسببه أو تعليله فقد غلط ولقد تقاصرت عقول العلماء والحكماء عن علم ذلك والى ذلك أشار المتنبي بقوله

ولله سرفي علالة وانما * كلام العدا ضرب من الهذيان

(فصل في قواعد الملك وأركانه * وأولا في ذكر العدل)

قال الله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق الآية المراد بالخلافة هو الولاية في الارض على الناس ومنه قوله تعالى ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون (وقيل) المراد بها خليفة عن سلفه من الانبياء والحكام فاحكم بين الناس بالحق أي بالعدل * وقال تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان في تفسيره أقوال أشهرها وأوضحها القضاء بالحق والانصاف في الحكم حكاه الرماني * وقال تعالى واذا قلتم فاعدلوا قيل معناه فأنصفوا وقيل فاصدقوا وقيل لا تميلوا * وقال تعالى وشددنا ملكه قيل بالتأييد والنصر وقيل بالجنود والهيبة وآتيناه الحكمة قال السدى هي النبوة وقال قتادة هي الشريعة وقال ابن أبي نجيح هي العدل والانصاف وفصل الخطاب هو علم القضاء بين الناس والعدل فيهم * وفي صحيح مسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته * وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وذكر باقي الحديث والعدل هيئة في الانسان يطلب بها المساواة وأما في الفعل فهو التقسط على الاستواء ومنه عدل الميزان وهو استواء الكفتين وقيل هو وضع الشيء في محله وأما اطلاقه في حق البارى عز وجل فالمراد به التصرف في الملك كما ان الظلم التصرف في غير الملك وأثره يظهر في ان أفعال البارى تعالى واقعة على نهاية الانتظام والاستقامة فبالعدل

قامت

قامت السموات والارض وبالعدل انتظمت أمور العالم وبه قامت بقدرة الحكيم القدير (قال) الله تعالى أنزل الكتاب بالحق والميزان قال أهل التفسير المراد به العدل اذ هو الميزان على الحقيقة ومن أثره هذا الميزان الحسى الذى يعرف به الرجحان والتساوى (وقال) حكيم اليونان العدل سنة الحق الناظمة للامور وقال أردشير الملك والعدل اخوان توأمان يصلح ان لا يفترقا ولا غنى لاحدهما عن الآخر (وقال) عبد الله بن المقفع يحتاج الملك الى ثلاثة مال مبذول وسيف مسلول وعدل غير مملول وناهيك من فضيلة العدل ان الجور الذى هو ضده لا يتم الا به فلو ان طائفة من أهل الجور والغصب وقطع السبيل اجتمعوا الذلك فلابد لهم ان يكون بينهم اتفاق على قضية من العدل والانصاف بينهم فاذا التزموها تم لهم ما يرونه من الجور فان أخلوا بذلك النوع من العدل فسد أمرهم (والعدل) عام مطلق وخاص مقيد فالمطلق هو الاحسان الى المحسن وكف الاذى عمن كف أذاه والمقيد هو المنضبط بالاوامر الشرعية والنواهى والتناصف بين أهل الملة وعقوبة أهل الخيانة وقهر أهل الكفر والعناد وسلبهم وسبيهم وعدل السلطان خير من خصب الزمان وعدل شامل خير من مطر وابل (يحكى) ان بعض الملوك خرج الى متصيد له فأداه الطلب الى قرية صغيرة فنزل مستريحا فى منزل عجوز بجانب القرية وقد أدركه الكلال والتعب وانقطع عنه أصحابه سوى غلامين كانا معه ملازمين له فبعث أحدهما فى طلب أصحابه ونزل معه الآخر فقالت العجوز لابنتها يا بنية قدمى لضيفنا لبن البقرة مع ما عندك من الخبز فأتت بقصعة

فيها لبن كثير فقال لها هذا احلب بقرة واحدة قالت نعم هذا حلب الغداة وبالعشى تحلب مثله فاستكثر ذلك وقال من عند هذا العشرات والمئون كيف تكون فائدته فأضمر فى نفسه ان يوظف على أصحاب البقر خراجا يؤدونه فى كل سنة ثم أقام الى العشى فقامت ابنة العجوز فحلبت فلم يحصل الا بعض ما كانت تحلب فجاءت الى أمها متعجبة من خلاف العادة مع انه لم يتغير من حال البقرة ولا مرعاها شئ فقالت لها يا بنية لعل نية الملك تغيرت فانها تؤثر فى الخصب والجدب فلما سمع مقالتها أصلح نيته وعاهد الله على الاحسان الى الرعية وترك التعرض لاموالهم ثم قام ليلته وقد تلاحق أصحابه واعتبر حال البقرة فوجدها قد عاد لبنها الى ما كان عليه فعلم ان ذلك تنبيه من الله تعالى ليحسن سيرته فانعم على العجوز وجهز ابنتها وانصرف (وقيل) ان الاسكندر كانت بين يديه كرة مثمنة من الذهب وضعها له الحكيم ارسطاطاليس على كل جهة منها كلمة سياسية تتعلق كل واحدة بالاخرى لتكون بين يديه يقلبها فى حركاته ويعمل بما فيها وهى هذه (العالم) بستان سياجه الدولة (الدولة) سلطان يحفظها السنة (السنة) شريعة يحوطها الملك (الملك) راع يعضده الجند (الجند) أعوان يكفلهم المال (المال) رزق تجمعه الرعية (الرعية) خدام يتعبدهم العدل (العدل) مألوف وبه صلاح العالم فحقيق لمن قلده الله أمر عباده وبلاده ان يعطف عليهم ويعدل فيهم وينصف ضعيفهم من قويهم ويساوى فى الحق بين شريفهم ومشروفهم ويبتدئ أولا بالانصاف من نفسه وولده وأهله وخاصته فالناس على دين الملك كما قيل بمعنى انهم يتبعونه فى أحواله وأفعاله (وأخبر الحافظ) فى

تاريخه بدمشق باسناده الى العباس بن محمد الهاشمي قال انى لواقف بين يدى المأمون اذ دخلت امرأة متظلمة فى أخريات الناس وعليها اطمار بالية وقد أذن المؤذن الاولى وهم بالقيام فقالت

ياخير منتصف يهدى له الرشد * ويا اماما به قد أشرق البلد
تشكو اليك سليل الملك أرملة * عدا عليها فلن يقوى به أحد
فابتزمنى ضياعا بعد منعتها * وقد تفرق عنى الاهل والولد

فأجابها المأمون ارتجالا

من دون ماقلت عيل الصبر والجلد * منى ودام به فى قلبى الكمد
هذا أوان صلاة الظهر فانصرفى
وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد
والمجلس السبت ان يقض الجلوس لنا
أنصفك فيه والا المجلس الاحد

(قال) فجلس يوم الاحد ودخلت المرأة فقال لها وأين الخصم فقالت هو بين يديك وأشارت الى ولده العباس فقال لاحمد بن أبى خالد خذ بيده فاجلسه معها ففعل فادعت عليه بالضيعة وجعلت ترفع صوتها عليه فقال لها أحمد اخفضى من صوتك فانك بين يدى أمير المؤمنين فقال اسكت فان الحق أنطقها والباطل أسكته ثم ظهر الحق معها فقضى لها عليه وأمر برد ضيعتها وغرم ولده ما أخذ من ريعها

(فصل فى الكرم والجود)

أحق الناس بالكرم الملوك وذلك لارتفاع أقدارهم واجتماع أموالهم وعظيم اخطارهم وحد الكرم هو اعطاء المحتاج فوق مايحتاج اليه وللكرم أيضا حد اذا زاد عليه انتهى الى السرف

واذا تناقص عنه انتهى الى الشح (قال) الله تعالى ولا تجعل يدك
مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط والكرم هى الحالة الوسطى
المحمودة والبارى سبحانه وتعالى مع انه هو الكريم الجواد المطلق
قال ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر
مايشاء وقد اختلف أهل السياسة فى وصف كرم الملوك فقالت الفرس
الملك السعيد المصيب هو السخى على نفسه السخى على رعيته
وقالت الهند بضدها بل يدخر المال لوقت حاجته وقالت الروم
لاعيب على الملك ان يكون بخيلا على نفسه سخيا على رعيته وأجمع
الكل على ان السخى على نفسه البخيل على رعيته مخطئ غير مصيب
مذموم غير محمود فلما استقر انه أليق بالملوك وهم احق به حتى ان
بعضهم يفرط به محبة الكرم واختياره فيغار من كرم غيره منافسة
منه لهذه الفضيلة ليكون هو مختصا بها (وقد) ليم بعض الملوك على
كثرة بذله للاموال فقيل له لاخير فى السرف فعكس القول وأجاب
لاسرف فى الخير وينبغى ان يكون كرمه غير مقصور على خواص
أصحابه ومن قرب منه فانه كرم خاص قليل الجدوى وبه سميت شجرة
العنب كرما لانها تتشبث وتتعلق بما قرب منها وتلقى عليه ثمرها بل
يكون كالشمس يضئ على الآفاق ويعم الاقاصى والادانى بالاشراق
(كما قال المتنبى)

كالبحر يقذف للقريب جواهرا * أبدا ويبعث للبعيد سحائبا

والشعر فى هذا المعنى كثير (وقال بهرام جور) فى خطبته الاولى
بلسانه ما معناه انا نجمع الرجال لا الاموال وندخر الذكر لا الوفر
ونمهد الآجلة لا العاجلة وهكذا أوائل الدول ومباديها تؤلف

بالكرم وفيض الجود (قال الصاحب) بن عباد لعضد الدولة انما هما سيفك ودرهمك ازرع بذا من شكر واحصد بذا من كفر ومن اطلع على أخبار الماضين وسير المتقدمين علم ان بالجود تشمخت الدول واستقرت الممالك (ومثال ذلك) ان دولة بني أمية كان مبدؤها معاوية بن أبي سفيان وطدها على الكرم والحلم فاستقرت وتشمخت لمن بعده منه الى مروان بن محمد بن مروان احدى وتسعين سنة وتسع شهور و يومين والدولة العباسية أنشاها ابو مسلم الخراساني ممزوجة بالرغبة والرهبة فكان يقتل حتى يقال انه لا يصفح ولا يبقي و يبذل الاموال حتى يقال انه لا يبقى على شيء من أصناف الاموال فاستقرت الدولة على الخوف والرجاء الى الآن وكانت المبايعة للسفاح وهو أول الخلفاء العباسيين رضي الله عنهم بالكوفة في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة (وهكذا) الدولة السامانية والدولة البويهية والدولة المعزية والدولة الايوبية حتى جاءت هذه الدولة المباركة السعيدة المنصورية نشأت بالعدل والكرم وبه بدئت واستمرت وبالحزم والعزم تثبتت واستقرت فان مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون قدس الله روحه ونور ضريحه لما ملكه الله الديار المصرية وظفر بخزائنها الكثيرة وذخائرها الاثيرة وأموالها المكنوزة وتحفها المحروزة فرق من الاموال على الوجه الصحيح المشروع المقتصد ما جمعوه وأحرز من الذكر الجميل بالبذل ما بالمنع ضيعوه فجزاه الله الجزاء الوافر ونصره على العدو الكافر وكانت وقعة مشهورة بعد ما أنفق الاموال على العساكر المنصورة وأثبت لذاته الشريفة صفة الكرم والشجاعة

ودانت له البلاد والعباد بالسمع والطاعة وفتح المرقب والاعمال الطرابلسية وجاءت الى خدمته رسل البر والبحر والاقاليم الاندلسية فسلك فى طريق الحق ونصرة الشرع أوضح سلوك فاستقرت من بعده لاولاده ومماليكه فسلكوا منهاج بيانه فاولاهم الله من فضله واحسانه وكذلك ولده الملك الاشرف كان عزيز الكرم حسن الاخلاق والشيم حاصر القلاع الساحلية وفتحها وطهرها من المشركين وأصلحها وفتح قلعة الروم التى ما فتحها وما ملكها قبله سواه ثم بهسنا وأخذ كل من فيهم أسراء قهروا بالسيف وذلك من بعض فضل الله وما أعطاه وكذلك الملك الناصر ولده الثانى وملتقاه العدو والمحذور بلا توانى فنصره الله عليهم فولوا بين يديه وهم منهزمون وكانوا مائة ألف أو يزيدون وكذلك من قلاه من المماليك المنصورية حتى وصلت الى الليث الغضنفر مولانا السلطان الملك المظفر ركن الدنيا والدين سيد الملوك والسلاطين فهو واسطة عقدهم وكوكب سعدهم الذى كرمه غير مقصور وفضله غير محصور (وأما الملوك) فانها تتفاوت على أصناف فمنهم من يغمر جوده القريب والبعيد والمعرض والمعرض (كما يحكى) عن الفضل ابن يحيى البرمكى انه كان يكتب رقاعا بخطه كثيرة فيها امض الى فلان الصيرفى وخذ منه كذا وكذا دينارا حسبما يجريه الله تعالى على يده ويركب فى الليل أو فى القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها فسئل عن ذلك فقال أردت أن يصل برى الى من لا يصل الى ولا أعرفه ولا يعرفنى فاذا وجد أحد رقعة من تلك الرقاع مضى بها الى ذلك الصيرفى فيأخذها منه ويعطيه ما فيها وعند الصيرفى أمين

جالس انه لا يصافحه على بعضها ولا يعطى لاحد غير رقعة واحدة ولا يسال عنه ولا يثبت اسمه وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والذمى فيأخذ ما فيها وهذا الطف فى الكرم (ومنهم) من يتكرم على القريب منه والسائل على قدر رتبهم والسعة وهو الكرم الناقص ويسمى المقتصد (مثل) لهراسب وكيقاوس وأردشير (ومن) الدولة الاسلامية مثل معاوية وهشام من بنى أمية (ومن) بنى العباس المأمون والمعتصم وغيرهم (ومنهم) من يتكرم بالاقطاع والاطلاق ويبخل بالمال اذا رآه وحضر بين يديه كالمقتدر والمقتدى والمنصور من العباسيين (ومنهم) من يكون كرمه بالمال وبخله بالطعام كما حكى عن الامين انه وهب مجلسه غير مرة بما فيه من فرش وبسط وآنية وأسرة وكان اذا رأى أحدا يمعن فى الاكل عنده مقته (ومنهم) من يتكرم بالطعام ويبخل بالمال وهو الغالب على طباع العرب (وقد كان) من ملوك الاول من اشتهر بالكرم وعم جوده أهل الوجود والعدم مثل جمشيد وافريدون وكشتاسب من الفرس ومن ملوك اليمن تبع الاوسط والشمر ومن ملوك الروم ثاوستن وقيصر الاصغر وصاحب دومة الذى كانت نيران قدوره لا تخمد وكان يبعث بصدقاته الى البلاد اذ لا يجد فى مدينته من يستعطى ولو ذهبت الى استقصاء حال الكرماء وعدد أسمائهم ووصف أفعالهم لطال الكتاب وهذا المولى السلطان الملك المظفر أدام الله أيامه ونشر فى الخافقين أعلامه . قد عم جوده الخاص والعام وتجملت بصفاته الشهور والاعوام وتشرفت بدولته الليالى والايام فانه كثير البر والصدقات متنوع فى وجوه الانعام والاطلاقات يشمل فضله الدانى والقاصى ويعم

عدله الطائع والعاصي مع ما خصه الله تعالى به من عمارة المدارس
والخانقاه وتجديد الجامع الحاكي وحسن ملتقاه وتباشر به سائر
الملا وانكسر ببركته عن الناس حد الغلا وتضاعفت البركات
واتسعت الغلات وكثرت الاقوات وأمنت العباد وتشتت من
هيبته أهل الفساد

(فصل) ويتلو هذه الفضيلة الشجاعة فانها من أركان الملك وقد
قيل الكرم مقرون بالشجاعة والبخل مقرون بالجبن وقد أخرت
ذكرها الى قسم الحروب فانها به ألزم وههنا نذكر فضيلة الصدق
والوفاء (قال) الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود قيل هي
العقود التي بين الخلق من بيع وصلح ونكاح وقيل هي التي بين
العبد وبين ربه من نذر ويمين (وقال) تعالى يا أيها الذين آمنوا
اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قيل ان الاشارة فيه لابي بكر وعمر
رضي الله عنهما وقرئ الصادقين وقيل المراد به الثلاثة الذين
خلفوا قاله السدي وقيل معناه كونوا مع صدق الله في فعله وقوله
وعلانيته وسره قاله قتادة (وقال) تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله
عليه فالصدق رأس الفضائل الانسانية وهو للملوك والعظماء ألزم
(وللصدق) مراتب أولها صدق الخبر والثاني صدق الفعل وهو
أفضلها والثالث الصدق فيهما وهو التام (وأما) من صدق
أو صدق بلسانه ولم يوافق ذلك ضميره وفعله فلا يكون معتبرا ويصح
ان يسمى كاذبا لقوله تعالى اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول
الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون فمن لم يصح
صدقه لم يرج ولم يخف ولا يعتبر وعده ولا وعيده وهذا يضر بآحاد

قوله وقرئ الصادقين أي بالتثنية ١٨ مصحح

الناس

الناس فناهيك بالعظماء (وأجمع) أهل العلم على ان الصدق المطلق من خصائص الانبياء وان الله تعالى يعصمهم عن الكذب فبالصدق انتظمت الشرائع ونقلت الكتب والاحكام واستقرت فى النفوس العلوم الخبرية وبه تمت السياسات واعتمدت الرعية على الملوك فى وعدها وخافت من وعيدها فما أنفع الصدق وأكثر فوائده (ومن الكذب) انواع رخص الشرع فيها والمصلحة لا تنافيها وفى مسند النسائى عن أم كلثوم بنت عقبة قالت لم أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يرخص فى شئ من الكذب الا فى ثلاث مواضع فى الحرب أو الاصلاح بين الناس أو حديث الرجل امرأته أو حديث المرأة زوجها فهذه رخص لا تقدح فى صدق الصادق (ومن ذلك) ضرب الامثال والاستعارات والحكايات عن الحيوان الغير الناطق مثل قوله تعالى حكاية عن مخاطبة داود عليه السلام ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة فان هذه الالفاظ وان كان ظاهرها الكذب لكن الاصطلاح العرفى وقع على المراد منها والمعانى المقصودة بها فلا تكون من الكذب ولا يقدح فى صفة الصادق

(فصل فى مضرة الكذب ونقض العهد)

أجمع العقلاء على ان الكذب رذيلة ينحط عنه كل رذيلة وفى الحديث النبوى المؤمن لا يكذب (وأما الغدر) فراتعه وخيمة وعواقبه ذميمة من ارتقى فى سلمه كان السقوط اليه أقرب ومن توصل بسهولته وقع فى الاشد الاصعب ومن تتبع شرح مصارع ذوى الغدر ومواقع أهل المكر وجدها تجل عن الحصر (كان الرشيد) قد سجل بولاية العهد من بعده لاولاده الامين ثم المأمون ثم المؤتمن

واستخلف وأكد في أيمان البيعة وأودع النسخ الكعبة فلما مات الرشيد وجاس الأمين أقوام لا رأي لهم ولا صواب عندهم حسنوا له الغدر وأوقعوا بينه وبين أخيه فنقض العهد ورد البيعة الى ولده فجنى ثمرة بغيه وعاد مقتولا والقصة مشهورة (ومن ذلك) ما ذكره أهل التواريخ ان الخيشوار ملك الهياطلة لما أسر فيروز بن يزدجرد ملك الفرس وأراد اطلاقه منا عليه ورعاية لبنيته أخذ عليه العهد ان لا يغزوه أبدا ولا يقصده بسوء ولا يطرق بلاده بمكروه وكانت في أقصى بلاده صخرة عظيمة شرط عليه أن لا يتعداها ولا يأمر بذلك خلاف له وأكد المواثيق فأطلقه فحين عاد الى بلاده ومملكته واستظهر بالعدد والعدد حسن في نفسه الغدر فاستشار أصحابه فخوفوه الغدر وحذروه من عاقبته وقال له الموبذان ان رب العالم يغار من ذلك ولا يمهل فأبى وقال انا آمر بقلع الصخرة وتجذبها العجل امام العسكر فلا يجاوزها أحد ثم جمع العساكر وسار في مائة ألف عنان فلما قرب من الصخرة أمر بقلعها وجذبها بين يديه وتوغل في بلاد الخيشوار فلما رأى الخيشوار كثرة جنوده نزل عن فرسه وكشف رأسه وعفر خديه في الثرى وقال يارب أنت تعلم ان هذا عبدك فيروز قد خان عهدك ونكث بأيمانك ولا طاقة لي به الا بتأييدك فلا تكلني الى نفسي ولا الى أحد من خلقك فانه عاص لك مخالف لامرك ثم ركب وأمر أصحابه بصدق اللقاء وتمكين الحملة فلم يكن بأسرع من ان نصر الله الخيشوار فبدد شمل فيروز وفرق عساكره وكسره ثم قتل فيروز وهو منهزم فهذه وأمثالها من ثمرات البغي والغدر وقيل ما حصل بالغدر والبغي الا اليسير وفات الكثير ولكل عاثر راحم

الا الغادر فانه راحم وقال تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه
ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما

الباب الثالث
في مجمع الملك وهيأته وخصاله وأبهته

ينبغي ان يكون الملك كثير الوقار قليل الكلام قليل التلفت الى الجهات ليس بضحاك ولا هزال ولا دائم العبوس ولا سريع الملال يكظم ويغلظ على أهل الشر والفساد ويحنو ويلطف على الضعاف والقصاد ولا يكون في مجلسه اشارات ولا ترتفع عنده الاصوات ولا صخاب ولا سباب (كما يحكى) عن بعض أشراف العرب وقد دخل على كسرى وهو محتجب لا يراه أحد فاستنطقه فأعجبه كلامه فامره الترجمان بالجلوس وأخرج له وسادة فوقف وجعلها على رأسه فضحك كسرى وقال له الترجمان ليس المراد منها ذلك بل الجلوس عليها فقال قد علمت ذلك ولكني رأيت أن أضع تشريف الملك على أشرف أعضائي فاعجب كسرى كلامه وقال أجلسوه مكرما وارفعوا درجته ففعل به ذلك فسجد فقيل له لم فعلت ذلك قال لاني سمعت كلام الملك ورجوت أن أراه قيل ومن أين علمت انه كلام الملك قال سمعت كلاما عاليا في موضع لا ترفع فيه الاصوات فعلمت انه كلام الملك فقال كسرى زه احشوا فمه من الجوهر النفيس (وقد كان) بعض الملوك يرى الاحتجاب من العامة والرعية وكثير من الخاصة وبعضهم يرى التبذل للجميع وخير الامور أوسطها فان الملك اذا ابتذلته العيون نقصت هيبته واذا اشتد حجابه استولت خاصته على المملكة فضاعت

الرعية (فينبغى) ان يجلس بخواصه وأمرائه ودواته وعلماء ملته كثيرا
حسبما نشرحه فيما بعد ثم يجلس للعامة مجالس مفردة وكذلك
للمظالم بحيث لا يحتجب عنه أحد وينبغى ان يكون لمجلسه أمير يعرف
بأمير جاندار يحفظ مراتب الناس ومجالسهم فى مواضع تليق بهم
وعليه تأديب من تعدى طوره وزجر من أساء أدبه بحسب ما يليق به
فليكن هذا الشخص عارفا بأحوال الملك وأغراضه ليكون ترتيبه
لذلك سديدا ولا يمكن الناس من مفاجاته بالاقوال ولا مبادرته
بالسؤال سوى المتظلمين وقد قيل ان الرعية اذا قدرت أن تقول فعلت
واذا قدرت أن تفعل اختل النظام ويجب ان يكون للملك ميزة فى
ملبسه ومجلسه ومركبه ولقبه ونعته (وأما) الطعام والشراب فلا
ينبغى أن يتميز فيه عمن حضر مجلسه فانه الى الكرم أقرب وكذلك
يجب ان يسهل حجابه عند حضور الطعام هذا اذا كان الملك ممن
يؤاكل الناس فاذا كان لا يأكل معهم فلا بأس بتخصيص قوم بما يليق
بهم (وأما) الالقاب فكانت للملوك الاول القاب تنسب الى الالوان
مثل سفيدكار والقاب تنسب الى الاحوال مثل جمشيد وكيومرث
والى الصفات مثل بزه كار والاجدهاق ثم اقبت الكيانية تقبل
كيقاوس وكيقباذ ثم القياصرة فى الروم والاقيال والتبابعة فى اليمن
والنجاشى فى الحبشة وجاء الاسلام فجرى الامر على ذلك الرسم فى تمييز
الامام بنعت يختص به وكذلك الملوك الى الآن فحقيق على من
نعت بنعت يقصد به الشرف والتمييز ان يجتهد فى تكميل ذاته وحيازة
الشرف بخصاله مثل من نعت بالكامل والعادل والجواد وما أشبه
ذلك فينبغى ان يبالغ فى بلوغ غاية تلك الدرجة بالفعل لا بالقول

لتصح التسمية وتتحقق الفضيلة

الباب الرابع
فيما يجب للملوك على الرعية وما للرعية على الملوك

(قال) الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم وفى أولى الامر أقوال أحدها انهم الامراء قاله ابن عباس والسدى وأبو هريرة والثانى انهم سرايا نزلت فى أمراء النبى صلى الله عليه وسلم مثل خالد وعمار قاله مجاهد والثالث انهم العلماء حكاه الزجاج وأظنه اختاره والاول هو الاشهر والاظهر فالرعية عليهم بذل الطاعة لملكهم والاستقامة لامره والانقياد لحكمه واجتناب نهيه وليس للملك ان يطالب بمحبة القلوب واخلاص الضمائر فذلك أمر ربانى لا تقدر عليه البشر ولا تملكه (وقد) تخيل بعض الا كاسرة ورام أن يضبط القلوب فقال فى خطبة له أيها الناس ان لنا عليكم حق شمول النعمة وعموم السكون والدعة فمن طلب غاية لم ينلها منا أو رام فوق ما يستحقه ولم يقسم له قاسم الحظوظ شيأ مما يرضيه فانه يسخط ويمقتنا ويتمنى زوال دولتنا وما يدبره اهل الشقاء له فى ذلك أكثر فاذا دخل علينا اطلعنا عليه وظهر لنا ذلك فى أسارير وجهه وفلتات لسانه فنقابله تارة بالاعراض عنه وتارة بالاحسان اليه لنختبر حالته فى ذلك فاذا تحققنا ذلك أهملناه فان استقام استقمنا له وان زادت حاله فسادا عاقبناه وعقوبتنا ضرب العنق وفى هذا الكلام من دقائق السياسة وضوابط الاستيلاء ما يجل موقعه ويعظم نفعه وهكذا النبى صلى الله عليه وسلم كان يبايع أصحابه على

السمع والطاعة في المنشط والمكره وفي صحيح مسلم عن أم الحصين انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع فقال ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له واطيعوا وفي طريق آخر عبدا حبشيا مجدعا فعلى هذا لا يطاع في معصية الله (وفي الصحاح) عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قال في خطبته على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة (وفي البخاري) عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى من أميره شيأ يكرهه فليصبر فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا الا مات ميتة جاهلية فعلى هذا من أظهر العناد وجاهر بالشقاق فقد خالف واستحق العقوبة

(فصل فيما يجب للرعية على الملك)

قال عليه السلام كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فيجب على الملك ان يلتزم لرعيته بأربع خلال (أحدها) الشفقة وهي تتألف من محبته لهم وخوفه عليهم وحذره كالوالدين (الثانية) العناية بهم وهي بامعان الفكر في أمرهم وانجاز ما صح الفكر في مصلحتهم (الثالثة) التأليف من الملك أو من نائبه ممن يقوم مقامه في ذلك لانه يسوس جماعات قلوبهم متفرقة وأغراضهم متباينة فمنفعة التأليف جمعهم وتأنيس نافرهم وتقريب متباعدهم (الرابعة) الرفق فانه أصل في السياسة لان القسوة اذا أفرطت نفرت وكذلك الرقة اذا أفرطت أطمعت فخير الامور أوسطها ومما يجب لهم عليه حمايتهم ورعايتهم وحفظ ثغورهم من الاعداء والطرق يؤمنها من القطاع والحرامية ومدنهم ومساكنهم من السراق وأهل الفساد فهذه وظيفة الولاة

وأيضا

وأيضا انصاف المظلوم من الظالم فان النفوس الامارة بالسوء مشبهة لنفوس السباع وأخلاقها وطباع الحيات والعقارب فانها تلتذ بالقهر وتستضرى عليه وتمرن ومنشأ هذه الاخلاق من افراط القوة الغضبية من وجوه امامن حرمان أو بطرأ واخلاف وعدو وعيد فاذا بلى الملك بأصناف هذه الطائفة فيداويها بالزجر والنفي من الارض أو دفعهم الى الحروب والمصاعب (كما قالت) مرازبة الفرس لاردشير انا قد اجمعنا عليك وابناك علينا ان نستبدل ما كان فيه من الاساآت باحسانك فقال لهم احفظوا الى غرة الملك أحفظ لكم سنة العدل وأوف لكم بالقول والفعل ففكروا فاذا هو قد جمع لهم في هاتين الكلمتين جميع الكلام السياسى والحقوق التي لهم وعليهم (وينبغي للملك) ان يتفقد أحوال رعيته فيعطى الفقير ويكمل الناقص ويصل المنقطع ويورث ذوى الميراث ويقيل ذوى العثرات لانه كالعضو الرئيس الذي يوصل الى كل عضو بعد عنه أو قرب من الغذاء مقدار حاجته حسب اللائق به من ذلك (وفي صحيح مسلم) عن عبد الرحمن بن شماسة قال أتيت عائشة رضى الله عنها أسألها عن شئ فقالت ممن أنت فقلت رجل من أهل مصر فقالت كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه فقلت مانقمنا منه شيأ ان كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير والعبد فيعطيه العبد ويحتاج الى النفقة فيعطيه النفقة فقالت اما انه لايمنعنى الذي فعل في محمد بن ابي بكر أخى ان أخبرك ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا اللهم من ولى من أمر أمتي شيأ فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولى من أمر أمتي شيأ فرفق بهم فارفق به (ويجب)

ان ينظر فى حال رعيته فيحسن الى المحسن ويردع المسىء المجرم ويكف يد جنده عن ظلم الرعية والتعدى عليهم ولهذا كانت الملوك تتخذ منازلها بمعزل عن منازل الاجناد ومنازل الاجناد بمعزل عن منازل الرعية لئلا يتأذى بعضهم ببعض ويقع بينهم مخاصمات وشرور بين النساء والصبيان والغلمان وكذلك يكون لهم جامع مفرد وحمامات مفردة ولاتشارك الجند الرعية فى حرفهم ومتاجرهم ومزارعهم فانه اذا كان الجند زراعا أو تجارا ضعفت أحوال الرعية من عدم التسبب وضعفت بيوت أموال المسلمين من عدم تحصيل الزكاة وما وجب ويفسد حال الرعية المتسببين والزراع (وفى ذلك) مما ذكر فى فتوح مصر وافريقية قال حدثنا عبد الله بن مسلمة عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن بكر بن عمرو عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر مناديه ان يخرج الى أمراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بأن عطاءهم قائم وأرزاق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون (قال) ابن وهب وأخبرنى شريك بن عبد الرحمن انه بلغه ان شريك بن أبى سمى العطيفى أتى الى عمرو بن العاص فقال انكم لاتعطونا ما يحسبنا افتأذن لى بالزرع فقال له عمرو ما أقدر على ذلك فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما بلغ ذلك عمرا كتب الى عمر بن الخطاب يخبره ان شريك بن سمى العطيفى زرع بأرض مصر فكتب اليه عمر بن الخطاب أن ابعث الى به فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو بن العاص أقرأه شريكا فقال شريك لعمرو قتلتنى يا عمرو فقال له عمرو انا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك فقال له اذا كان هذا من رأيك فأذن لى بالخروج اليه من غير كتاب ولك عهد

الله ان أجعل يدى فى يده فاذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال نومنى يا أمير المؤمنين قال ومن أى الاجناد أنت قال من جند مصر قال فلعلك شريك بن سمى قال نعم يا أمير المؤمنين قال لاجعلنك نكالا لمن خلفك قال أوتقبل منى ما قبل الله من العباد قال أوتفعل قال نعم فكتب الى عمرو ان شريكا جاءنى تائبا فقبلت منه (ولما) استولى جوهر المعزى على مصر بنى لسيده المعزية القاهرة والقصور ليكون هو وأصحابه واجناده بمعزل عن العامة وكان ذلك فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة وبنى الجامع الازهر فى سنة ستين وثلثمائة ووصل المعز الى الديار المصرية ودخل قصره فى سنة اثنين وستين وثلثمائة وكان من أمرهم ما كان وعلى هذه العادة ملوك بنى عبد المؤمن بالغرب نعلوا بمراكش وتلمسان وغيرها (وينبغى) ان ينظر فى حال الحجاج والزوار فيصلح أحوالهم ويوضح سبلهم ويختار دليلهم ويؤمن عليهم من يرفق بضعيفهم ويوسع عليهم فى الزاد والماء والحمل وكثيرا ما كانت الخلفاء تباشر ذلك بنفوسها أوتقدم من يقوم مقامها وتتكلف النفقات الكثيرة لذلك وينظر فى حال أهل الذمة والمعاهدين فيمنع من ظلمهم ويشفق عليهم فانهم كالعبيد والمستضعف جانبهم وكذلك يمنع من تعدى طوره وخرج عما يجب عليه منهم ويحسم المادة فى ذلك

الباب الخامس

(فى حسن سيرته مع الملوك المجاورين والقبائل الاوداء والمعاندين)

قيل كانت ملوك اليونان والفرس اذا أرادت تأكيد انقياد الرعية لهم وحسن تأدبهم مع الملوك وتعظيمهم انقادت هي لمن هو ارفع منها في الرتبة والملك فان العامة تحذو حذوها وتتبع أثرها ويزداد انقيادها لملوكها ولم تزل في كل ملة ومملكة وأهل بيت من تعظمه الملوك والناس من أهل العلم والدين كما كانت تفعل ملوك الفرس من تعظيم زرادشت ومانى وكان كسرى اذا دخل على مانى قبل أسفل قدميه تواضعا وخضوعا وكذلك كانت تفعل ملوك اليونان مع اسقلبياروس وغيره واستمر الحال على ذلك فكان للروم الاركن وهو الذى لا يلى الملوك الامر الا باذنه وللفرنج البابا وللمسلمين الخليفة وكذلك بعض طوائف الهند والصين فكل من حقق الطاعة لغيره تحققت طاعة غيره له وكلما ظهر أحد من تملك ويشق دولة ويدعو لنفسه قل ان ينتظم أمره أو تصير منه حالة (ثم يجب) ان يكون الملك دينا عالما ناسكا مشتغلا بالعلوم منزها عن شوائب النقص والمعايب في خلقه وخلقه فان انضاف الى ذلك كرم وشجاعة فقد كمل ثم لا يخلو اما أن يكون حاضرا يراه الناس ويسمعون كلامه أو غائبا يشار اليه فيجب ان يكون له نائب قائم بأمره ومترجم عنه على ما وصفنا من الدين والعفة والعدل وحسن السيرة والشجاعة (ويجب) على الملك ان يحسن الى مجاوريه من الملوك الذين حوله فيأمر ولاة اطرافه بكف المتعدين على حدودهم والمتوغلين في تخومهم ويرد عليهم الضالة والآبق ولا يحمى عنهم المفسد ولا السارق ثم لا يمنعهم من الانتفاع من أرضه وبلاده بما لا يوهن المملكة ولا يضرها (قيل) لبعضهم ما الرياسة قال كف الاذى وبذل

الندى ثم ينبغى للملك ان ينزه مجلسه من الغيبة وان تقال فى مجلسه فان سكت ففيه رضا واقرار وان أنكر وغير ففيه البوار هذا على العموم وأما على الخصوص فيجب عليه ان يعاقب من يسب الملوك بين يديه ولا يمكن من ثلبهم أصلا (ومما يحكى) ان الاسكندر أمر منادية معاشر الناس من فيكم قاتل عدو دارا فليظهر لنا فانا نجازيه باستحقاقه ونرفع مكانه فلما ظهر وا له وصح عنده ذلك وكانوا من خواص دارا أحدهم صاحب شرابه فقال لهم هل كان محسنا اليكم قالوا نعم قال فهل كان مسيئا اليكم بعد ذلك قالوا لا وانما رفع غيرنا علينا وأردنا التقرب اليك بقتله فقال تجرأتم على عظيم وجازيتم الاحسان بالاساءة ثم أمر بقتلهم وصلبهم على الجذوع وقال هذه مجازاتهم وهذا ارتفاع مكانهم * وسب رجل صاحب طبرستان فى مجلس السلطان محمود وكان معاديه فامر بضربه وعقوبته وقال الملوك بعضهم لبعض اقارب وان تباعدت الانساب وكما يسب فى مجالسنا الملوك نسب فى مجالسهم فيجب على الملك المداراة والتواضع لمجاوريه من الملوك فمن كان أكبر منه سنا كان معه كالولد ومن كان أصغر منه كان له كالوالد ومن كان فى سنه كان معه كالاخ الشفيق وان كان أوسع مملكة منهم فهذا ان يدقدره ولا ينقصه ويحسن اليهم فى المكاتبات ويرفع أقدارهم فهذا من جملة الادب والمروآت وهو بالملوك الزم

(فصل فى محاذرة الاعداء والمعاندين)

يجب ان يقوى احترازه منهم على ما هو مشروح فى قسم الحروب فى آخر هذا الكتاب ويستعمل معهم المناصفة فيما بينهم لئلا يكون

قوله ففيه البوار أى الهلاك للمنكر عليه اذ لم يمتثل

مبتدئا بالتعدي ومن اكتنفه الاعداء لا يتهاون في التدبير فيهم
اما باصلاحهم أو بقمعهم (وقال) بزرجمهر من ركب الفيل الهائج
أو الفرس الجموح لا ينبغي ان ينعس وكذا من قاربه العدو أو قارنه
لا ينبغي له ان يغفل وأما من كثرت عليه الخوارج والمنافقون
والمخاصمون فينبغي له في مبدا الحال ان يسكن ولا ينفر ويعفو فانه
الى انتظام الحال وعود المعاندين الى الرضا أقرب ولا يغتر الملك
بالاعداء اذا تنافروا وتباغضوا وكانوا على دين واحد ويجمعهم نسب
فانهم اذا قصدهم أحد عادوا بجمعهم عليه كذلك السباع
والذئاب تتهارش مع بعضها اذا قصدها أحد من غير جنسها اقصدته
باسرها واصطلحت عليه (ويجب) ان يقابل الظفر على الاعداء
بالعفو ويزيد في شكر الله ويعرف قدر نعمة الله عليه سواء كان
مثله أو أرفع منه أو دونه ولا يقابل ذلك بالتجبر والعتو بل بالخضوع
والتواضع فان أمكنه العفو فليعف وان لم تقتض المصلحة ذلك
فليجمل الاسالة والحبس وليوسع عليهم في الطعام والالباس ويمنع
من الاهانة والاذلال فان الملوك ترتفع أقدارها عن ذلك (ولما)
حارب السلطان طغرل السلجوقي قزل أرسلان في المرة الاولى
انكسر لمخامرة عسكره عليه وبقي السلطان أسيرا مع غلمانه راكبا
على فرسه والجتر على رأسه وقد هربت عساكره وتفرقت جموعه
ونهبت أثقاله فتقدم قزل أرسلان وترجل عن فرسه وقبل الارض
بين يديه وقال له يا خداوند أنت السلطان ونحن عبيدك ومماليك
وخوجه تاشية تخاصم مع بعضنا وتقاتل ونصطلح فارجع الى همدان
ونحن بين يديك نفعل ذلك مدة وهذا من جميل مقابلة النعم بالشكر

(ويحكى) ان زبيدة العباسية كانت جالسة ذات يوم في قصرها وقد دخلت عليها حاجبتها تقول لها ان امرأة جميلة عليها أطمار رثة تريد الدخول عليك وتذكر ان لها معرفة قديمة تمت بها فانكرت زبيدة ذلك وتوقفت فيه ثم سألها من حضرها من نسائها وجواريها في الاذن لها فأذنت فدخلت امرأة تامة القامة معتدلة الخلقة جميلة الصورة عليها أطمار بالية ورداء مرتع فجعلت تمشي على استحياء تلاصق حيطان الاروقة حتى انتهت الى باب المجلس فسلمت فقالت زبيدة حييت فمن أنت قالت أنا بريحة الزمان وطريحة الحدثان ذهبت الرجال واختلت الاحوال وجفانا الصديق وكدنا أن نلقى على الطريق فقالت لها انتسبي فقالت انا ربيبة ابنة مروان بن محمد فقالت لها الاحياك الله ولاسلم عليك ويلك أتذكرين وقد دخل عجائزنا وأنت في ملكك وجبروتك يسألنك ويرغبن أن تسألي صاحبك أن يأذن في انزال ابراهيم من خشبته فما فعلت فتغرغرت عيناها بالدموع وقالت يا ابنة العم وأي شيء أعجبك من ثمرة العقوق وقطع الرحم وكفر النعمة حتى تتأسين السلام عليكم ورحمة الله ثم ولت منصرفة فندمت زبيدة على بادرتها وأدركتها رقة وبعثت جواريها اليها لترجع فقامت تعدو خلفها حتى أدركتها في الدهليز وردتها واعتذرت اليها فرجعت فأمرت جواريها أن يدخلنها الحمام وأحضرت لها أصنافا من الثياب والجباب فاختارت منها ما لبست وتطيبت وأقبلت كأنها ناقة فرقة فقامت اليها واعتنقتها ورفعت مجلسها وآكلتها فلما دخل الخليفة قصت عليه القصة فشكرها على تداركها فارطها وأمرها ان تفرض لها مقصورة وجواري يخدمنها

وتسألها هل بقي لها من تعنى بأمره ففعلت معها ذلك وهكذا ينبغي ان تقابل نعمة الله ولا مقابلة لها

الباب السادس

(في سيرة الملك مع الامراء وأركان مملكته)

كانت ملوك الفرس تفضل الجند على سائر أصناف الناس ويحتجون لذلك بأن الناس يبذلون منفعة جوارحهم أو حواسهم والجند يبذلون نفوسهم ودمهم ولا قرب بين الحالتين وكانت تجعل الناس على أربعة أقسام الجند أولها ثم تقسم الجند على أربعة أقسام على كل قسم أمير يسمى ميرميران وكل أمير معه أربعة يسمى كل واحد منهم اصفهبد ومع كل اصفهبد أربعة مرازبة ومع كل مرزبان أربعة سالارية ومع كل سالار عشرة أساورة وهم الفرسان المفردة وخمسة من الرجالة وتسمى البيادة فاذا أراد الملك انفاذ أمر خاطب بعض الامراء فسهل عليه وعلى من يخاطبه (وكانت) ملوك الروم ترتب ذلك عشرة عشرة ويسمون كل واحد باسم من لغتهم ومثاله في العربية ان مع الملك عشرة أمراء مع كل أمير عشرة نقباء مع كل نقيب عشرة عرفاء مع كل عريف عشرة قواد مع كل قائد عشرة فرسان ومع الرجالة كذلك وبعضهم يجعل عوض العريف زعيما هذا الترتيب الاول (وكذلك) لما كثر جيش النبي صلى الله عليه وسلم رتب عليهم نقباء وعرفاء تكون مخاطبته معهم وأما في زماننا هذا فانه ترتيب حسن اذا استقر الحال على ما نذكر أن يكون الملك لجيشه اتابك أتم ما يكون في الشجاعة والكرم والمعرفة والنباهة والشهامة والبسطة والتجارب والدين والعفة والمكنة في

العدة

العدة والعدة ثم من بعده مقدموا الآلاف على كل ألف فارس مقدم كبير ومعه مقدمون مفاردة على كل خمسين فارس مقدم مفردي ومع المفردي خمس مقدمين دونه مع كل مقدم عشرة فرسان وعلى الكل نقيب كبير وتحت يده نقباء رؤس نوب على الآلاف فكل مقدم ألف معه نقيب ألف في خدمته ومع النقيب نقباء صغار على كل خمسين فارسا نقيب فهذا أجمل وأحوط ما يكون من الترتيب (فينبغي) للملك ان ينظر في حال جيشه وازاحة أعذارهم وان يحملهم على اتباع الشرع والانقياد للوازم الدين مع التزامه هو لذلك فانه ان لم يكن محافظا على الشريعة لا يستقيم التزامه كما قيل

* متى يستقيم الظل والعود أعوج *

ففي التزامه لذلك التزامهم على الطاعات فيحصل خير الدنيا والآخرة ثم يتفقد أحوالهم فمن حسنت سيرته ومناصحته يضاعف الاحسان اليه حتى يتشبه به غيره ويجتهد الجند في الطاعة لله تعالى ولملكهم (ويحكى) عن بعض ملوك العرب انه كان يخرج في بعض الليالي الباردة فيصلي الفجر والعشاء الآخرة في جامع قلعته وللجامع أبواب مشرعة الى البلد تفتح في وقت الصلاة فاذا سلم الامام أمر بغلق الابواب على الناس ثم يأمر لكل من حضر الصلاة بخمسة دنانير أو بثمانية وربما أمر بعشرة وكذلك يفعل في يوم عاشوراء المحرم والقصد بذلك الترغيب في الخير والمواظبة على الصلوات (ويجب) على الملك ان يحسن النظر في حال الامراء وتقدمهم وارتفاع درجاتهم لمن تظهر منه النجابة والشهامة والدين ولا يفعل ذلك بالهوى وميل النفس بل بالفكرة والمشورة والتجربة فان الخطأ في ذلك مضر فانه ربما يخف على قلبه شخص ويثقل آخر

فيكون المتخلف غير أهل لما حصل له من التقدمة والآخر أهل لها
فيحصل الخطأ وتتولد المضرة كمن يتناول الحلو الضار ويترك المر
النافع فليشدد الاحتراز في ذلك ويفرق بين الشريف والمتشرف
والجندي والمتجند فانه ان أهمل ذلك وقدم على غير نسق صارت
الرؤس أذنابا والاذناب رؤسا وتحكيم الصغار شديد المضرة سريع
الخلل ومن اعتبر سيرة من مضى في زماننا هذا وجد وقائع كثيرة من
هذه القسمة حصل بسببها ما لا يستدرك فارطه وقد يوجد في الصغار
والوسط من تكون فيه نجابة وكناية كما يوجد في ابناء ذوي الشرف
من فيه القصور والتخلف فليوصل كل أحد الى موضع يليق به على
التدريج (ويجب) ان يمنع الجند من الجلوس في الحوانيت
والاسواق للتجارة والصناعة ومزاحمة الرعية في معايشهم فان
في ذلك تضييقا على الرعية ثم يتفقد أحوال الجند ومن عبر الى رحمة
الله منهم ومن حصل له العطب في الغزاة أو الهرم في الخدمة فيحسن
اليهم والى مخلفيهم ويطلق لهم ما يقوم بأودهم وان كان في أولادهم
من يقوم مقامهم أجرى لهم ما كان لهم جاريا وكذلك كانت تفعل
الملوك المتقدمون (وقال) النبي عليه السلام من ترك كلا أو ضياعا
فالي وعلي وكذلك ينظر في حال من افتقر أو ركبته الديون
واقطاعه قليل لا يقوم بحاله وينظر أيضا في حال الجند البطالين الذين
طلبوا منه استخدامهم فلم يستخدمهم أو أعطاهم اقطاعا لا يرضيهم
فانهم يتربصون به الدوائر وينظرون له ريبة يتبعونها فيحترز منهم
اذا كثروا اما بالارضاء او بالابعاد وصنف آخر من الجند تركوا
الجندية اختيارا وملالا فان اشتغلوا بزهد أو بتجارة أو صناعة تركوا

وشأنهم فان حصل منهم من الشرور ما لا يمكن تداركه فيجب ان يشغلوا
و يبعدوا (وصنف) آخر من الجند ذو وبأس شديد وشجاعة افرط
اعتقادهم في حق أنفسهم حتى ظنوا ان انتظام الدولة بهم واستقامة
الملك بسببهم وانه لا يستحق العطاء والحباء غيرهم ومتى أعطى غيرهم
أو أكرم حنقوا وان توقعوا أو طلبوا شيأ لم ينالوه تحزبوا وظلموا
فينبغي للملك العارف ان يفكر في حالة من أحوال الفروسية يعلم
انهم مقصرون في بلوغ غايتها فيندبهم لها ليتبين لهم التقصير
و يعيرهم بها فيعرفوا مقدار نفوسهم

الباب السابع
(في سيرة الملك مع أهل الشريعة العلماء والفقهاء والفضلاء)

يتعين على الملك ان يبذل اجتهاده في اظهار رونق الشريعة واحترام
أهلها واكرامهم والاثابة على تعلمها والمحافظة عليها ويأمر أولاد
العلماء بالاشتغال بالعلم وكذلك يفعل مع جميع الطوائف سوى أهل
الشرور والمهن الخسيسة فيتركوا وشأنهم وما تصل وتنهض به
همتهم اليه ولم يكن في الدنيا أعظم دولة ولا أشمخ مملكة ولا أدوم أياما
وذكرا من دولة الفرس ودولة اليونان وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم
والحكم وتمكين من يشتغل بذلك ورعاية جانبه حتى كان أكثر
ملوكهم علماء وحكماء وقديما كان الانبياء ملوكا وكانوا يشتغلون
بالعلم واستنباط الحكمة حتى بالغوا في ذلك غاية المنتهى وتعلمه
نساؤهم وصبيانهم (مثل) أزرميدخت وبرش الفارسيتين
وايلا وبطره بنت بطليموس صاحب الحكمة والتصانيف ومثل سويد

ابن سهلوق بن سرياق الانطاكى اليونانى الذى ملك الديار المصرية
ووضع الحكم بعد أبويه وقبل الطوفان واشتغلوا فى زمانهم بالعلوم
والاستنباطات وعلموا بحادثة الطوفان وكان سبب ذلك ان سوريد
الملك رأى رؤيا هالته وافزعته وذلك انه رأى كان الارض انقلبت
بأهلها والناس يهوون منها سفلا على رؤسهم وكان الكواكب
تتساقط ويصدم بعضها بعض بأصوات مختلفة هائلة فغمه ذلك
ثم رأى رؤيا ثانية وثالثة وفسرها على علماء دولته وسحرة مملكته
فاخبروه بحادثة الطوفان والرؤيا الثانية بعد الاولى بسنة وهى
كانه فى هيكل له يعرف بدقمانوس فرأى كان خمسة من الكواكب
مصورة فى عقدة الذنب والجوزهر هابط والشمس قد انكسفت
ولم يبق منها الا القليل والقمر قد انحدر من السماء فى صورة امرأة
باكية تشكو زوالها فانتبه فزعا وكتم الرؤيا وعلم انها مقرونة للاولى
فامر بتنظيف الهياكل والمقامات والزيادة فى قربانها وذبائحها
وبخوراتها وتعظيم أهل العلم والعبادة وتفقد مواضع الظلم وازاله
وقصر عن اللهو وبقى مترقبا ما يحدث حتى رأى الرؤيا الثالثة وهى
كان الكواكب الثابتة فى صورة الطيور البيض وكانها تختطف
العالم وكان الكواكب النيرة مظلمة والطيور تلقى العالم بين جبلين
عظيمين والجبلين قد انطبقا على العالم فانتبه فزعا أشد من الاولين
فالتجأ الى هيكله الذى فى بيته وجعل يتضرع ويتمرغ بخديه على
الارض ويدعو ويبكى الى ان أصبح فاحضر رؤساء الكهنة وكانوا
يومئذ مائة وثلاثين كاهنا رؤساء فضلاء وعليهم رئيس كبير يقال له
اقليمون وأخبر أيضا انه رأى رؤيا وهى كانه والملك واقفان على

رأس المنار التي للملك باموس وكأن الفلك قد تطأطأ ونزل حتى صار على سمت رؤوسنا وصار كالمكبة المحيطة بنا وكأن كواكبه قد خالطتنا في صور شتى نورانية على قدر اجرامها والناس يستغيثون بالملك والملك رافع يديه ليدفع عن نفسه الفلك اذ بلغ رأسه وأمرني برفع يدي لمثل ذلك وكان صورة الشمس طالعة علينا ونحن نستغيث نخاطبنا ان الفلك سيعود موضعه فاذا مضى أربعمائة دورة اطبق اطباقا شديدا على أهل الارض فتنتهك الاصنام وتبيد الاحكام وتزول الاعلام ويقوم بالامر واضع الزمان ثم تطأطأ المنار بنا الى الارض ورجع الى موضعه فانتبهت فزعا مرعوبا فقال له الملك متى كانت الرؤيا فاخبره بليلتها فوجدها موافقة لليلة رؤيا الملك الاولى فقال له الملك فعلى ماذا تأولت يا اقليمون قال حدث عظيم يحدث بعد أربعمائة سنة يضر بجميع العالم الا قليلا من الناس وهو عنصر الماء فسأل هل من حادثة بعدها فأخذوا الطالع سؤاله وحققوه وحرروه فذكروا حادثة ثانية ضد الاولى فقال هل من حدث ثالث لهما فافتشوا في خفي علومهم فقالوا انه يحدث حادثة عظمى وداهية دهيا لم يقع على وجه الارض مثلها تحرك الاتلاف ويحل عقد الفلك باذن القديم الازلي وهي الساعة فعند ذلك أمر ببناء الاهرام والافرونيات وهي البرابي لتكون قبورا لهم ومثوى لاجسادهم وكنزا لاموالهم وكتبهم وذخائرهم فاختاروا لها الاوقات الثابتة في مبدا حفر أساسها وعمارتها وتحرز حفر أساسها في ست سنين وتكملت عمارتها في ستين سنة وكان فيها صناع وفعلة سبعون ألف نفس وارتفاعها بذراعهم مائة ذراع وأسه عشرة

أذرع فى مثله فعاش سوريد دهراطويلا ومات ودفن فى الهرم
الشرقى وكان عمره لما عمر الاهرام ستين سنة وملك بعده أخوه
هرجيت فذلك وأقام على منهاج أخيه مائة وثلاثين سنة ثم مات ودفن
بالهرم الغربى ثم ملك بعده ولد أخيه اقروس بن سوريد مائة وخمس
عشرة سنة ومات ودفن بالهرم الصغير وهذا ذكره أبو معشر فى كتاب
الالوف وسببه انه وجده فى كثير من كتب الكهنة مثل كتاب
انطاجس وباهونه ومنسبه وصيا كلوا ستيدس وفى كتاب محمد بن
هرون العباسى عما نقله من كتاب على بن محمد بن عبد الله بن حنون
الطبرى وكان السبب فى ذلك انه وجد لبعض أهل مصر وهو رجل
من القبط يقال له ابتهت كتاب بالقبطية فى قرطاس على صدره وهو
ميت من تحت اكفانه فيه مكتوب علم الاول ان هذا اتخبه فيلبش
اليونانى وهو أبو الاسكندر ذى القرنين ونسخة من صحيفة ذهب
كاتبها بالقبطية محرقة منقورة أخذها من اخوين قبطيين يقال
لاحدهما املول والآخر وريثا وسألهما عن سبب معرفتهما بهذه
الكتابة فذكرا انهما من ولد رجل آمن بنوح نبى الله عليه السلام
وحمله فى السفينة وورثا عنه علم الاول وكان تاريخ الصحيفة من
حين كتبت الى ان أخرجت لفيلبش ألفى سنة وتسعمائة سنة
وخمسا وثمانين سنة ومن فيلبش الى هذا الكتاب وهو سنة ثمان
وسبعمائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام
ألف وسبعمائة وثلاث وثمانون سنة يكون تاريخها الى الآن
أربعة آلاف سنة وسبعمائة سنة وثمانى وستين سنة ولو شرحنا ما فى
الصحيفة لطال الكتاب وفات الغرض وهذا ثمرة العلم والاجتهاد

فيه

فيه (ولقد) أجاد كسرى انوشروان فى قوله اما أهل العلم والدين فلهم علينا ان نسمع منهم ونصدق قولهم ونرفع مراتبهم ونذب عنهم ونوسع لهم ما صح فقههم وظهر صلاحهم وثبتت نزاهتهم وعفتهم (وقال أيضا) ان من الناس صنفا طلبوا الرياسة بالدين والتفقه فاشتهروا أنفسهم لذلك وربما اتخذوا بعض المخالفة ليتميزوا ثم استطالوا على الناس واذاعوا اسرار الشريعة وحقيقة التأويل والتفسير وغير ذلك للعوام والجهال حتى مالوا اليهم وانا لم نجد فى ديننا فيما تقدم خلافا بين السلف ولا افتراقا الا فى عهد سابور بن سابور فان أولئك المبتدعة أظهروا التفسير واختلاف التأويل وكان من عاقبة أمرهم ما كان من طلب الرياسة واثارة الفتن حتى أطفأها الله برأى سابور وحرم التذكير الا لمن يوثق بعلمه ومعرفته وأمانته ومن تعدى ذلك عاقبه (ثم ينظر) فى المتفقهة الذين ينتحلون البدعة ويدعون اليها ويخالفون ما عليه الجمهور ويردعهم ويفرق جمعهم وكذلك يمنع التعصب للمذاهب والمغالاة فى ذلك فانها تؤدى الى فتن عظيمة وخطوب جسيمة وقد خرب كثير من بلاد المشرق بهذا السبب ثم ينظر فى حال من يتظاهر من العلماء بعلم الفقه والشريعة ويبطن الحكمة والفلسفة فاذا وقع له حكم من أحكام الشريعة لا يدركه عقله ولا يلحقه فهمه أسرع الى الطعن فيه ودبر فيه برأيه وهذه الطائفة وان كانت قليلة لكنها ذميمة ونكايتها اليمة وربما يزعمون ويوهمون ان الشرائع أمور موضوعة بازاء العامة دون الخاصة الذين هم منهم وان تفاصيله لا تستقر عندها كم العقل ولو صح نظرهم وثبت عقلهم لعلموا ان رتبة النبوة

والشريعة مستعلية على مراتب الحكمة وانها تحصل بالامر الالهي لا بالكسب الاجتهادي فتى تنتهي العقول البشرية الى معرفة المقادير الربانية فينبغي ان يحسم مادة هذه الطائفة ليشتغلوا بانفسهم فانهم ان تفرغوا اوضعوا للعامة بدعا متنوعة يسمونها حكمة ثم يدعون انهم يطلعون على اسرار الشريعة واغوارها ومن تتبع أخبار المتقدمين علم ان أكثر البدع والفرق بهذا السبب ظهرت واشتهرت (فأما العلماء) وحفاظ الشريعة الذين على السنة فيجب على الملك احترامهم واكرامهم لانهم يحفظون قواعد الشرع الذي هو يحرسه ويذب عنه ويقاتل من يعانده ثم يرفع طبقاتهم على مقاديرهم من العلوم والتبحر فيها فأول علوم الشريعة علم القرآن ومعرفة تفسيره وتأويله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وأسباب نزوله ثم علوم الحديث النبوي ومعانيها ولغاتها وأسبابها ومعرفة رواتها وجرحهم وتعديلهم ومعرفة المرسل من المسند ومن روى الحديث ورجع عنه أو تشكك فيه ومن روى بضد ما روى وومعرفة اجماع الصحابة ومن روى منهم ومن أفتى ثم علم أصول الدين هو وان كان مما يجب تقديمه لان شرف العلم بشرف معلومه لكنه يبنى على الشرع الذي هو كتاب الله وسنة رسوله فينبغي ان يكون الاصولي عالما بالنصوص الشرعية والادلة البرهانية العقلية فيبين الحدود والرسوم ويذكر الادلة على تفصيل العقائد الشرعية وهي العلم بذات الله تعالى وصفاته وأسمائه وما يجوز اطلاقه من ذلك ومالا يجوز وتأويل ما يحتاج الى التأويل ومعرفة النبوة والرسالة وحقيقة الوحي والخطاب والكلام ووصف المعجزة والفرق بينها

وبين

وبين الكرامة والكهانة ومعرفة الجائز والواجب والمستحيل
ومعرفة اليوم الآخر وما وعدت به الاخبار الصادقة من عذاب
القبر والجنة والنار ومعرفة الامامة والخلافة كل ذلك من لوازم
أصول الدين ثم أصول الفقه فيكون عارفا باللغة والنحو والاصطلاح
فيطلع على معانى النصوص فان تحريف الأحكام لم يكن الامن
الجهل بذلك فاذا عرف الناسخ والمنسوخ والمنطوق والمفهوم
والخاص والعام واحكام ذلك أمكنه ان يبنى على ذلك الاحكام
الشرعية والاقيسة الصحيحة ثم علم الفروع وهو معرفة فرائض
العبادات وهيآتها وتكميلاتها والمعاملات وعقودها وفسوخها
والمناكحات ومباحها ومحظورها والجنايات وعقوباتها والاقضية
وحكوماتها ثم يخرج من ذلك الى علم الخلاف وعلم الجدل وهى علوم
متأخرة عنها فى الرتبة ومستنبطة منها ومن ذلك علم اللغة والنحو وهو
علم شريف يضطر اليه فى شرح الالفاظ لتحقيق المعانى ومن العلوم
علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج اليها كعلم الطب وعلم الحساب
والمساحة وعلم الاوقات والازمان فمن تمام رونق المملكة اشتمالها
على أئمة فى هذه العلوم فما أضيع دولة قل علماؤها فانها ينقطع ذكرها
عند انقضاء أيامها (وكان) المعتضد بالله لما بنى قصوره المعروفة
بالشماسية ورتبها له المهندسون زاد فى ذرعها فوق الذى اختطوه
كثيرا فسئل عن ذلك فقال أريد ان اتخذ حولى مساكن وغرفا
يسكنها رؤس العلماء والفضلاء من كل فن واجرى عليهم الادرارات
وما يحتاجون اليه من النفقات وكل من أراد ان يشتغل بنوع من
العلوم قصد ذلك الامام واشتغل عليه وحصل منه بغير تعب ولا مؤنة

وكان مقصوده انتشار العلم والزيادة فى الفضائل ولو مدله فى العمر حتى يتم ذلك امكان قد شاد ذكرا باقيا وجدد للعلوم والفضائل رونقا راقيا الاترى الى المأمون لما قال بالتشيع قوى أمر الشيعة فى زمنه وكاد ان يخرج الخلافة من بيته وكذلك كان يشتغل بعلم النجوم واتخذ الرصد وصنف له الزيج المأمونى وظهر فى زمانه فضلاء من المنجمين مثل أبى معشر وغيره وقد قيل ان الناس على دين الملك فاذا اشتغل بامر العلم والعلماء أو بفن من الفنون كثر فى زمانه وذكر فى سيرته (وكان الناس) فى زمن يزيد وسليمان يلقى أحدهم صاحبه فيقول له كيف كانت ليلتك وكيف غنت جاريتك ومن كانت قينتك ثم فى زمن عمر بن عبد العزيز يلقى احدهم صاحبه فيقول كم صليت البارحة ومتى نمت ومتى قمت الى وردك وما الذى قرأت من القرآن ثم فى زمن مروان بن محمد يقول هذا لهذا كم انفقت على قصرك وما ارتفاع مجلسك وجدارك واجارك على الرسم فى متابعة الملوك واقتفاء آثارهم فالملك السعيد الذى يتبع المحامد ويقتفى الناس أثره فيخلد فى الخير ذكره

الباب الثامن

(فى سيرة الملك مع العباد والنساك والزهاد وقبول نصائحهم)

ينبغى للملك ان يبلغ الغاية القصوى فى احترام النساك والعباد والزهاد الذين تخلوا عن الدنيا وتواغلها وأقبلوا على العبادة والتبتل فانهم ملوك بالطبع وهممهم أعلى لاختيارهم وهيهم لنيل الملك الادوم ومازالت الملوك على هذا فى الزمن الاول لا الدول

الظالمة والجاهلة (قال الله تعالى) رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله الآية وقال عز وجل تتجافى جنوبهم عن المضاجع وغير ذلك من الآيات والاخبار الواردة فى حق الزهاد وقال عليه السلام رب اشعث اغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره وكذلك لم يزل فى كل ملة طائفة تلازم البيعة وبيوت العبادات وتلازم أيضا الزهد وتكثر من التقليل على أنفسهم وتزهد عما فى أيدى الناس وتترك الدنيا وملوك العصر يحترمونهم والعامة يعظمونهم ويتبركون بدعائهم ويستسقى الغيث باستسقائهم ومثلهم فى الدنيا خدم الملك وخاصته المشتغلون بأموره الخاصة فيجب رعايتهم والعناية بهم والخوف من تغير خواطرهم ومودائهم وانصراف هممهم وعلى هذا القياس (ويجب) على الملك الرشيد ان يقبل نصائحهم ويسمع مواعظهم ويرجع الى اشاراتهم واذا كان فيهم صاحب رأى وعقل ومعرفة وتجربة وقد تخلى عن الدنيا واشتغل بالله تعالى يسمع من اشارته فى أموره ويرجع الى رأيه ومن صبر على خشونة الموعظة ومضض الزجر يحمد عاقبة ذلك (دخل) ابن السماك على المنصور فقال له عظنى فوعظه موعظة بالغة قال فى آخرها أسألك لو عطشت يوما حتى أشرف بك العطش على التلف ومنعت من الماء الا بنصف ملكك اكنت تسمح به قال نعم قال فاذا شربتها امتنعت أن تخرج الا بنصف ملكك الثانى اكنت تسمح قال نعم قال فما الاغترار بملك قيمته بولة (ونقل) أن المنصور لما حج طاف بالبيت ليلة فسمع قائلا يقول وهو متعلق باستار الكعبة اللهم انى أشكو اليك ظهور الفساد والبغى فى الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع قال

فجلس المنصور فى ناحية من المسجد ثم أرسل الى الرجل يدعوه فجاء وسلم عليه بالخلافة فقال له ما الذى سمعتك تقول فى ظهور البغى والفساد وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعى ما اقلقنى وأمرضنى فقال يا أمير المؤمنين ان امنتنى على نفسى انبأتك بذلك والا فالمعذرة الى الله ثم اليك ولى فى نفسى شغل شاغل قال أنت آمن وهذه يدى فقال ان الذى داخله الطمع حتى حال بينه وبين اصلاح ما ظهر من البغى والفساد لأنت يا أمير المؤمنين فقال ويحك فكر فيما تقول كيف يداخلنى الطمع والدنيا عندى قال ان الله تعالى استرعاك أمر عباده أبشارهم وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجابا من الحصن بالجص والآجر والابواب الحديد وحراسا معهم السلاح ثم سجنت نفسك دونهم وجعلت عمالك لجباية الخراج والاموال وضيقت حجابك فلم يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان ولم يصل اليك المظلوم والملهوف ولا أحد الا وله فى بيت المال حق فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك تجبى الاموال اليك فتجمعها قالوا هذا قد خان ولم يقسم الاموال كما أمر الله ورسوله فما لنا لا نخونه واتفقوا على أن لا يصل اليك من الناس الا من أرادوه ولا يتقرب اليك أحد الا من اختاروه ثم لم يتقرب اليك أحد بامانة الا خونوه ولا بديانة الا فسقوه حتى سقطت منازل أهل الخير عندك وارتفعت منازلهم فعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليقووا بهم على ظلم الرعية ثم اقتدى بذلك ذوو الثروة من رعيتك لينالوا

تظلم من هو دونهم فامتلأت بلاد الله بغيا وفسادا وصار هؤلاء
شركاءك وأنت غافل فان جاء متظلم أحيل بينه وبينك وأما الشخص
الذي وليته المظالم فانه لا يقدر أن يكشف شيئا يتعلق بهؤلاء المتقربين
منك ولا يمكنه أن ينهى ظلمهم اليك فاذا ركبت وصرخ بين
يديك المظلوم طرده الاعوان واسكتوه فان رفعت به وسمعت
ظلامته رددته الى القاضي أو الى الوالي أو الى نائبك وسقت دابتك
فان زاد في قوله أو تبعك أو رام التقرب اليك ضربه الاعوان ضربا
مؤلما وما شكواه الا من الذين رددته اليهم وقلة انصافهم وان بقاء
الاسلام مع هذا الحال لقليل أليس الله بمطلع أليس عقوبته شديدة
وقد كنت في حداثتي يا أمير المؤمنين أسافر الى بلاد الصين فاتفق
ان ملكهم أصيب في سمعه ولم تنجع فيه الادوية فبكى فسئل عن
ذلك فقال حزني على انقطاع سماع المظلوم واغاثة الملهوف ولكن
ان فاتني السمع فقد بقي البصر ثم أمر مناديه ينادي في الناس
من كان متظلما فليلبس ثوبا أحمر وكان يجلس في روشن عال مطل
على العامة فهذا يا أمير المؤمنين كافر بلغت رأفته بالمشركين هذا
المبلغ وأنت مؤمن بالله من أهل بيت النبوة فلا يغلبنك على رأفتك
بالمسلمين شح نفسك ثم تلا ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون
فبكى المنصور وقال ويحك كيف احتيال لنفسي داني فقال ان
للناس أعلاما من أهل الدين والخير اجعلهم بطانتك واسمع
نصائحهم فقال ويحك قد طلبتهم فهربوا مني قال خافوا ان تحملهم
على طريقتك أو يؤذيهم أصحابك ولكن افتح بابك وسهل حجابك
وأنصف المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات من حلها

واصرفها فى أهلها وأنا ضامن ان يأتوك ويساعدوك على صلاح الامة وجاء المؤذن للصلاة فقام اليها فصلى وعاد فطلب الرجل فلم يوجد (أجمع) الفرس على ان تلاف السياسة فى ثلاث تأخير عمل اليوم الى غد وتفويض الامور الى غير الكفاة والعمل بالشهوات لا بالعقول فينبغى للملك ان ينظر فى حال هذه الطائفة ويميز محقهم من مبطلهم ويفرق بين الزاهد والمتزهد * وفيهم أصناف من أهل الغلط فى طريق الزهد والمغالطة لاغراض آخر * منهم صنف يغلب عليهم محبة الرياسة والامرة ويتفق اعراض الملك عنهم وانقباضه لمخالفة طبعه لطباعهم أو لاشتغاله بلهوه ولذته فيدعوهم ذلك الى احداث الطعن على أحوال الملك واهماله ضوابط الشريعة ويؤالفون اليهم بذلك جماعات وربما كثر عددهم ويقصون عليهم من القصص ما يحركون به عزائمهم لتغيير المنكر ونصرة الحق فان أهمل الملك أمرهم عظم وتفاقم وكان منه خطر عظيم وأكثر ما يطرأ هذا فى البلاد العظام أو فى الاطراف (قال) كسرى ما تنازع قط رئيس دنيا ورئيس دين وتجاذبا على أمر الا انتزع رئيس الدين ما فى يد رئيس الدنيا ومضت التجارب على ذلك * وأقرب ما جرى فى هذا المعنى لما ظهر المهدى بالمغرب وأظهر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومعه طائفة يسيرة من الزهاد نحو العشرة وكان لديه فضل وعلوم جمة ويقال انه اشتغل على امام الحرمين ودخل الى بلاد المغرب على زى الزهاد بالمرقعة والعكاز فلما اشتهر خبره بالامر بالمعروف واراقة الشراب المسكر والانكار على النساء المتبرجات أمر الملك باحضاره وهو على بن يوسف بن تاشفين

فاستطلقه فرآه مع الزهد عالما متبحرا فأحضر الفقهاء وعقد له مجلس
مناظرة فجادلته فقهاء عصره في كثير من المسائل وفي كلها يستظهر
عليهم ويرجح قوله ويأتي لهم بتقاسيم لا يمكنهم الخروج منها وهي
مسطورة مدونة فلما عجزوا قالوا هذه عبارات ما نعرفها وما أنت الا
رجل مبتدع وقالوا للملك من المصلحة قمع هذا أو حبسه لئلا تكون
منه فتنة فقال بعض أمراء الملك ما أهون مثل هذا وما عسى أن
يكون منه وأي دولة يكون خللها من مثل هذا فبذل له من المال شيئا
فلم يقبله فنفاه من البلد فخرج الى مدينة اغمات ثم صعد الى جبل
البربر واشتغل بالدعوة الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلم
يمض الا مدة يسيرة حتى كثرت جموعه واشتدت شوكته وقويت
يده وظهر وتسمى المهدية وكان من أمره ما كان من الاستيلاء على
البلاد وقيادة الجيوش وكان عبد المؤمن بن علي أحد أصحابه العشرة
فلما مات استخلف على الامر من بعده وفتح البلاد وأباد دولة بني
تاشفين واستأصلهم واستقر الملك في عقبه الى الآن وملوك المغرب
في هذا الامر على غاية من الاحتراز من هذه الطائفة واذا رأوا منهم
من كان يصلح للركوب والجهاد اشتغلوا به * ومنهم من يتصف بالغوافي
التقشف والزهد والعبادة والبعد عن طعام الملوك وأبوابهم
وصلاتهم ومقصودهم بذلك أن تتبعهم العامة وظهور القبول سيما
ان كانوا من أهل الوعظ ويرون كل اكرام دون حقهم فمن أعرض عنهم
أو لم يحترمهم أو لم يزرهم ويقبل أيديهم سبوه وذكروا انه من عصاة
أهل الدنيا وأرباب الظلم وطريق سياسة هؤلاء ان يلطخوا بالدنيا بأي
طريق أمكن فانهم لو اذاك فسد أمرهم وانحل اعتقاد الناس فيهم

(ومن الفقراء) صنف يتسترون ويتمنعون ويكرهون السؤال ولو هلكوا قال الله تعالى يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس الحافا فليكن بحث الملك عن هذا الصنف وسروره بالظفر بواحد منهم كسرور الجاهل بشكاية الحاجات وظلمة الحالات فليكن كثير الاحسان اليهم والتوسعة عليهم (وقد اشتهر) عن نور الدين محمود بن زنكي انه في سنة تسع وستين وخمسمائة احضر رؤساء دمشق ومشايخها ومقدمي حاراتها ودروبها وقال أريد منكم ان تكشفوا عن أحوال مجاوريكم فتعرفوني باليتامى والارامل ومن انقطع عن التكسب ومن اختلت أحواله لا نظر في حالهم ففعلوا ذلك فبعث اليهم بالغلات والكسوات ووظف لهم الوظائف فهذا من محاسن الملوك ومزاياهم التي تنقل عنهم وتحسن بها أيامهم وتؤرخ بها سيرتهم ٭ وقد جبل الله تعالى طباع المولى السلطان الظاهر ركن الدنيا والدين عز نصره على محبة الخير والتورع فيه ومحبة الفقراء والاصغاء الى نصائحهم واتخاذ الايادي معهم فبشرى له بذلك ولقد قيل اتخذوا مع الفقراء أيادي فان لهم دولة واي دولة ثم انه نهض الى تجديد الجامع الحاكمي وأصلحه بأدنى اشارة وعمره اسرع من البرق أحسن عمارة ورتب فيه الفقهاء للدرس والاشتغال بالعلوم الدينية ووظف عليهم الجاري وعلى المقرئين السبعية ثم تقدم الى عمارة القبة والخانقاه المختارة التي خرج أمره العالي بانشائها في دار الوزارة وأجرى فيها الادرارات على تلاوة الكتاب العزيز وتميز في فعل الخيرات أوفر تمييز وادر فيها الارزاق على السادة المتصوفين والفقراء والاجناد لبطالين والائمة والمؤذنين ورواة الحديث والقرئين

ماشاع ذكرها في الاقطار ولم يعمل مثلها في الامصار ثم لما أعطاه الله من الملك العزيزي أوفره قدم بين يديه من وجوه العدل والانصاف اسفره وسارع بمقابلة الشكر لله على ما أولاه من النعم الميسرة فخرجت أوامره المطاعة بابطال مظلمة نصف السمسرة التي أحدثها من تقلد وزرها وكان زوالها على يد الذي غنم أجرها لانها كانت تزاحم الصعلوك الدلال في رزقه وتضيق على البائع والمشتري في خلقه فهو أدام الله أيامه ينبوع في الخيرات يتأنق في اقتناء أصناف المكرمات

الباب التاسع

(في سيرته مع ذوي الشرف والبيوتات واعانتهم)

الشرفاء في أصناف الناس يعمهم الانتساب الى ذوي الفضائل الدينية أو لرياسات الدنيوية فأشرف القسم الاول من ينتسب الى الانبياء عليهم السلام أو الى أحد من الصحابة رضي الله عنهم الامثل فالامثل ثم من ينتسب الى صاحب علم أو كرامات أو زهد والقسم الثاني أفضلهم من ينتسب الى ملك عادل أو عالم أو فاضل فحق على من كانت نسبته علية أن تكون سيرته مرضية ونفسه أبية ولقد أجاد السموأل ابن عاديا في قوله

اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول

وننكر ان شئنا على الناس قولهم * ولا ينكرون القول حين نقول

فمن لم يكن تابعا الطريقة أسلافه أو مقاربا لهم فانه قد باين الشرف وفارق السودد ولذلك أجاب الله تعالى نوحا عليه السلام حين قال ان

ابنى من أهلى وإن وعدك الحق فقوله انه ليس من أهلك انه عمل غير
صالح فالعمل الصالح هو الشرف وبه يستقيم الانتماء والى هذا أشار
بقوله عليه السلام العلماء ورثة الانبياء فمن اجتمع فيه العلم والعمل
وكانت له نسبة الى النبى صلى الله عليه وسلم استحق رتبة الشرف
ويتعين اكرامه واحترامه وكذلك الانتساب الى ذوى الفضائل
(فينبغى) للملك رعاية جانب الشرف فى النسب قال عليه السلام من
اكرم قريشا اكرمه الله ومن أهانهم اهانه الله اشارة الى رعاية حق
النسب وشرف البيت وكذلك من انتسب الى الملوك والكرماء
والعلماء والزهاد والادباء والاعزة (وقال) عليه السلام اذا أتاكم
كريم قوم فاكرموه وقال ارحموا عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر وهذا
باب متسع والاشارة فيه تكفى (وينبغى) للملك ان ينظر فى حال من
قعد به الزمان منهم ومن ضاقت به الاحوال فيعينه على أحواله
ويؤهله لبلوغ درجة اسلافه فان كانت فما أكثر رتبة دولة كثر فيها
أهل الفضل والشرف وقل فيها أهل الجهل والسفه (وكانت) ملوك
الفرس تضبط أهل البيوت على ضوابط اسلافهم وتمنعهم من
الابتذال والدخول فى الصنائع والحرف التى تزرى بهم وتمنعهم من
مناكحة من لا يليق بهم فان جمال هذه الاصناف وكثرة مفاخرها يزيد
فى رونق الدولة (وقال) شيخ الشيوخ ابن حمويه الجوينى بلغنى انه
قيل لمعاوية بن أبى سفيان بعد مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب
كرم الله وجهه ان الخلافة قد استقرت لك فلو قتلت الحسن والحسين
وابن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير لاسترحت من
الفكرة فى أمر الملك وتزعزعه فقال اذا قتلت هؤلاء فعلى من أتأمر

فما كان أسعد رأيه في هذا الكلام وأتعس رأي من أشار عليه بذلك (وقد) يكون من ذوي الشرف قوم من أولياء الدولة الماضية وأعداء الدولة الحاضرة فان لم يخف الملك من الانتصار لهم أو من التألف عليهم قربهم من غير تهذيب اهمات ولا تقديم في ولايات وان كان منه استشعار لذلك فمن الحزم الاحتياط (وكذلك) القول في أولاد الامراء والمقدمين ان حصلوا الرتبة آباؤهم قدموا لها وان لم يحصلوا فلا ينقطع عنهم البر والاكرام والتلطف والاحسان

الباب العاشر

(في سيرته مع التجار والقاصدين والصناع والمزارعين)

لاشك ان أصحاب الحرف مثل التجار والجلابين والمزارعين والصناع هم أسباب عمارة البلاد وتزيينها وتحسينها وتحصينها وتكميلها فان التجار يجلبون البضائع والرقيق وسائر الاصناف ويقربون ما بعد من المنافع قد سخرهم الله تعالى لذلك وسهل عليهم المهالك يركبون البحار ويقاسون الاخطار ويكابدون عذاب الاسفار ويقصدون بيوت الاموال فيتعين على الملك ان يحنو عليهم ويحسن اليهم ويرفق بهم في أخذ ما أوجبت الشريعة في أموالهم ويسامح بعضهم بماله فانه بذلك يجلب الرفاق الى بلاده من سائر الآفاق ثم يعود عليه من الكثرة أضعاف ما فاته من المسامحة (ومثال ذلك) ان يسامح البائع بربح يسير في بيع سلعة فانه يبيع منها أضعاف ما يبيع غيره من المتشددين في ربحها واذا كان الملك مقتصدا وكان من مذهبه استيفاء الحق وترك المسامحة فليعاقب من تعدى ذلك من نوابه أو زاد عليه في الواجب وأجحف برب المال فان ظلم الرعية على سائر الوجوه مغضب

للرب عزوجل مقبح للصيت والسمعة (وينبغى) للملك ان يترفع عن مزاحمة العامة فى المتاجر والمكاسب لان علو الهمة ينافى ذلك وكذلك يمنع امراءه واجناده عن ذلك ويجب عليه اذا استعمل صانعا او اجيرا فى جميع الصنائع والحرف ان يجعل له اجرته على التمام والكمال فانه واضع الانصاف فاذا تركه فقد ازرى بمنصبه وابطل معنى الانصاف وصورته (وينبغى) للملك ان يجلس للعامة جلوسا يشملهم فى بعض الاحايين بحيث يصل اليه الضعيف وذوا الحاجة ومن لا وسيلة له ولم تزل الملوك العادلة تفعل هذا * وأما الاكرة والمزارعون فلهم حقوق أكيدة وبسببهم يكون مادة النسل واقوات الحيوان فيجب ان يرفق بهم ويحسن اليهم ويعانوا على ماهم بسببه وتزاح عللهم فى جميع ما يحتاجون اليه ولا يمكنوا من البطالة فانها مفسدة عظيمة ويستعمل بعض الشدة مع أهل الجبال لان فى طبعهم الخشونة ويستعمل الرفق واللين مع أهل القرى الصحراوية (وكان) كسرى يقول أحق الناس بالاحسان اليه الاكرة لانهم يتعبون لراحة غيرهم ومامن صنف من الاصناف الا وتستغنى أهل المدينة عنهم الا الاكرة فانه لاغنى لاحد عنهم (ويتقدم) الملك الى الرعية بخروج أمره بان يعكفوا على شأنهم والاشتغال بصنائعهم وحرفهم وترك التعرض لاحوال الملك والخوض فيما يجرى من ذلك ثم يضبطهم حتى لا يكون بينهم تعصبات ولا أهواء تؤدى الى القتال والفتن فيتولد من ذلك خراب البلاد ولا سيما الارياف بل يكون هو الذى ينصف بينهم بنفسه أو من يأمره وينديه لذلك

القسم الثانى

(في أحوال الملك في ذاته وخواصه وخدمه وهو ثمانية أبواب)

الباب الاول

(في آداب الدخول عليه ومخاطبته ومجالسته)

السلطان ظل الله في الارض فطوبى لمن استظل بظله واستسقى بطله ويا خيبة من تقاص ذلك الظل عنه (ويروى) عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما معناه من مات ليس في عنقه بيعة فكأنما مات ميتة جاهلية وصحبة السلطان تعظم القدر وتنوه الذكر وتسمى الحظ وتعلي المنزلة وترفع المناصب لكنها كثيرة المعاطب ردية الشوائب وخيمة العواقب لان الملك كالبحر فيه الدر والغرر (وقيل) الملك كالجبل الشامخ فيه الثمار والانهار والوحش والسباع والاخطار فالوصول اليه صعب لصعوبته والمقام فيه خطر لان الملوك يغضبون كغضب الاطفال ويأخذون كاخذ الاشبال (فيجب) لمن يصحبهم ان يتخلق بالاخلاق الملوكية ويتحلى بالشيم المرضية وأفضل ما يلتزم فيها حفظ اللسان وغض الطرف (وقال) علي بن عيسى لا تكن صحبتك للسلطان الا بعد رياضة نفسك على طاعته في المكروه عندك وموافقته فيما خالفك وتقدر الامر على هواه دون هواك وكن حافظا اذا ولاك أمينا اذا ائتمنك حذرا اذا قربك راضيا اذا سخطك ذليلا اذا هجرك قويا اذا قدمك تعلمه وكانك تتعلم منه وتدله وكانك تستدل به وتشكره ولا تكلفه الشكر لك وتقنع بقليله ولا تبطر بكثيره والا فالبعد البعد والحذر الحذر (وقال) أبو زيد اذا قربك السلطان فوازن بين حاجتك اليه

وحاجته اليك واجعل رغبتك اليه دونه ولا تجعل جميع خلواتك معه بأمر قضيتك بل بايناسه وذكر ما تدعو الحاجة اليه من أموره وتيقن انك لست أكثر شغله كما أنه أكثر شغلك ولا بك قوام أمره وترى فى كل حال انه متفضل عليك واحذر ان يدخلك العجب والانفة فانهما مهلكان (وقال) بعض الفضلاء من أدب مصاحبة السلطان ان لا تضجره بكثرة الدخول عليه الا اذا كان شغله يقتضى ذلك فى مواظبته وكذلك اذا دخلت عليه فلا تطيل المقام عنده وللملوك قواعد فى الدخول والجلوس والقيام والسلام والخطاب منهم من يرى من الادب ترك السلام تخفيفا من تكليف رد الجواب كما تركوا التعزية والتهنئة والتشميت فى العطاس مما يحتاج الى الجواب (وأما) الخدمة فهم فيها على أصناف منهم من يرى الخدمة تقبيل الارض اذا كان الملك راكبا والعتبة اذا كان جالسا ومنهم من يرى تقبيل البساط ومنهم من يرى الانحناء فى الخدمة كالركوع ومنهم من لا يرى الا السلام والخطاب بالنعت الاتم الاكمل والجلوس فاما تقبيل اليد عند القدوم وعند البيعة وعند العفو وعند تجديد الاحسان فعادة سوية لم يمنعها شرع ولا سياسة * ومن أدب مجالسته ان لا يتحدث مع غيره فى سر ولا جهر لانه فى خدمة الملك ولا يفاوضه بالجهر ولا يلح بالنظر اليه ولا يجوا الناس الا بكرهه ولا يطول عليه فيضجره ولا يلاحظه فيمقته ولا ينقطع عن خدمته فينساه ولا يبعد عنه فتتمكن منه أعداه بل يتوسط ولا يتورط ويوافق ولا ينافق ولا يخاطبه فى حاجته ولا يتعرض بطلبها ولو كان أقرب الناس اليه بل يكتب اليه أو يتوسل بغيره

ولا يدل عليه بسالف خدمة ولا يمت بحقوق قديمة وان اقتضى الحال ذلك فليكن بالطف اشارة (وقال) الحسن بن سهل اذا خاطب الملك غيرك أو سأله عن شئ فلا تكن المجيب عنه ولو عرفت الجواب واذا تكلم فاصغ الى كلامه ولا تشتغل بغيره ولا تكثر الكلام بين يديه ولو أعجبه فان آفات الصمت قليلة وسقطات اللسان كثيرة والملوك لا تعزى بل يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة حسب ما يليق بهم من غير تطويل ولا يقال للملك كيف أصبح ولا كيف أمسى ولا يسئل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا أفعاله فقيه تخجيل ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغامز ولا يشتغل في حضرته بتوديع راحل ولا بسلام وارد (ومما) قاله شيخ الشيوخ تاج الدين بن حمويه الجويني انه كان جالسا عند بعض ملوك المغرب وقد دخل عليه الشيخ أبو سعيد عثمان بن عمر وهو من أكابر شيوخ الدولة وكان والى بلاد افريقية نحو العشرة أعوام فقال له اجلس بعد ان قام له وأكرمه والجماعة معه فجلس الى جنب أخيه عبد الواحد وهو الاكبر فخاطبه الملك فيما اقتضى الحال الخطاب به ولم ينظر أحد من الاخوين الى صاحبه ولا كلمه حتى تقوض المجلس وخرجا فتفرقا وتكلما ثم لقيت الشيخ أبا سعيد بعد ذلك فقلت له لقد أعجبني ما رأيت منكما تغيب عن أخيك عشرة أعوام ثم تجتمع به فلا تكلمه قال نعم من الادب ان لا يشتغل في مجالس الملك بغيره كما قيل * وقال بعض الفضلاء ان بليت بصحبة ملك أو وال ردىء السيرة فان وافقته ضيعت الآخرة وان خالفته ضيعت الدنيا فلا ينبغي الا البعد منه ان أمكن أو مسارقة تقل طباعه

عما هي عليه وتسديد رأيه وتحسين الحسن وتقبيح القبيح

الباب الثاني

(في أحوال الوزراء واختيارهم وما يجب لهم وعليهم)

قال الله تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي اشدد به أزري فوضح ان الوزير من الازر واشتقاقه من الوزر كما قيل (وفي سنن أبي داود) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بالامير خيرا جعل الله له وزير صدق ان نسي ذكره وان ذكر أعانه واذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسي لم يذكره وان ذكر لم يعنه (وينبغي) ان يكون الوزير جامعا للخصال الخير حسن الخلق والخلق يجمع بين البشاشة والوقار والحلم والهيبة والعفة والنزاهة وعزة النفس سديد الآراء حسن العبارة سريع الفهم عالما بالامور السياسية والناموسية والضوابط السلطانية والاحوال الديوانية والامور الحربية يجمع ويفرق ويبعد ويقرب ويشتت ويؤلف ويضاف الى ذلك ان يكون قد بلغ أشده وكثرت تجاربه وأمنت خيانته وتحققت أمانته كتوما للاسرار يسكته الحلم وينطقه العلم له حفظ وبلاغة وايجاز في العبارة حسن التأني في مخاطبة الملك لطيف التوصل الى نقل طباعه من الميل الى الاعتدال ولكن مشتملا برداء الصدق والوفاء معروفا بصفات الخير من نفسه منصفا متبحرا في أنواع العلوم مالكا لزمام المنثور والمنظوم جامعا لشتيت المكرمات عارفا بكتابة الانشاء والترسلات كافيا في حسن النظر والمباشرات شافيا في العروض والمناقلات خبيرا بالحل والمحاسبات ماهرا في الاقيسة

والمقابلات قويا في صناعة الحساب والتصرفات بليغا في الفصاحة والكلام حاذقا في البراعة والاهتمام وفي الذمام شفوقا بالاسلام ذكي الفكرة زكي الفطرة سريعا جوابه كثيرا صوابه حسنا خطابه مفتنا في الحكم والاستنباطات مطيقا في أعمال المقترحات متيقظا في تدبير الدولة العادلة مخلدا ذكر السيرة الفاضلة جيدا في علم التواريخ والهندسة محمود العواقب في الاشارات والاقيسة معمر الجهات والاعمال مثمر الاصناف الاموال كتوما للاسرار هادما للاوزار مجتهدا في تحصيل الغلال والاموال من جهاتها مقتصدا في وجوه صرفها ونفقاتها قد تجلبب في ذلك بجلباب التقوى وقدم الله بين يديه حتى يقوى فهذه صفات الوزير الكامل ذي الجلالتين والامير الفاضل في الحالتين * فان اتفق كون الملك على ما ينبغي أيضا من الخصال المحمودة والوزير على هذه الصفة فقد أسعد الله تلك الرعية وعمر تلك البلاد وهي الدولة التي يتجمل بها الزمان ويرضى عليها الرحمن (وقال) حكيم الهند اذا كان الملك عادلا حسن السيرة ووزراؤه على مثل رأيه وأعماله كان شبيها بالنهر العظيم الحلو وهم كالسواقي المستمدة منه يسيح على الارض فيغمرها وينبتها ويستخرج المنافع ويوصلها الى غاية كمالها واذا كان الملك عادلا ووزراؤه ظلمة كان كالنهر العذب فيه التماسيح فلا يقدر أحد على الانتفاع به ولا السباحة فيه واذا كان سيئ السيرة ووزراؤه كذلك كانوا جميعا شبه البحر المالح الذي لا راحة فيه واذا كان ظالما وهم بعكسه كان كالبحر الاعظم فيه الدرر والخطر (وقيل) أضر ما على الملك ان يكون وزيره يجيد القول ولا يجيد العمل فيركن الملك الى

أعواله ويختل ملكه باهماله وقبيح أفعاله (وقال) بعض الحكماء اذا رأيت الوزير يجمع المال لنفسه فابعده فلا خير فيه لان حب المال يغطي العقل عن مشاهدة المصالح (وقال) كانت الفرس تختار ان يكون الوزير حسن الهيئة والصورة سالم الاعضاء من النقص والعيب متوسطا في الحلم والعقوبة والوقار والبشاشة جيد الفهم أصيل الرأى متين الدين فصيح العبارة مليح الخط مطلعا على تواريخ الامم وتجارب الاول ثابت الجأش عند تزاحم الحوادث فانه الوزير المحمود الخصال ولا ينبغي ان يكون الوزير حسودا ولا حقودا ولا غادرا ولا شرها في أكل ولا شرب ولا نكاح (وقد) اختلف أهل السياسة في عدد الوزراء فذهبت الهند الى اتخاذ سبعة ويذهبون بذلك الى تدبير الفلك بالسبعة السيارة وبعضهم ذهب الى خمسة وهو رأى الروم والفرس اختاروا ثلاثة والاسلام اختصروا على واحد (فينبغي) للملك ان يوسع على الوزراء في العطاء ويفرغ بالهم عن مهماتهم بازاحة أعذارهم لئلا يشتغلوا باحوالهم عما هم بصدده من الامور السلطانية ويساوى بينهم في العطاء اذا كانت أنسابهم وأقدارهم متماثلة فانهم يتحاسدون فيتغشون ولا ينظر الى التفاوت بين الاسنان فرب شاب أصح رأيا من شيخ وبالعكس وقد قيل ان العقل يهرم بهرم الانسان

(فصل في المشورة)

قال الله تعالى وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله الآية فحث على المشورة وندب اليها وفيها من المصالح ما لا يخفى وما ندم من استشار كما قيل

لا تحقرن الرأى وهو موافق * حكم الصواب اذا أتى من ناقص
فالدر وهو أجل شئ يقتنى * ما حط قيمته هوان الغائص

والمشورة صناعة شريفة لانها نفسانية متعلقة بالفكر والقوى وذلك فى غاية الشرف كما ان حمل الاثقال من الاعمال البدنية البعيدة عن تعلقات النفس وهو فى غاية الخساسة وعلى مقدار نفاسته يكون الصواب فيؤثر مصالح كثيرة وكذلك الخطأ فيه يؤثر كثيرا من الفساد والشرور فكم من دماء تباح به وتحقن وبلاد تعمر به وتخرب (فينبغى) للملك اذا عزم على المشورة فى الامور المهمة العظيمة ان يخلو مع كل واحد ويستشيره ثم يتفكر فى الرأى ويجمع بينهم بعد ذلك ويأخذ رأيهم جميعا وكل رأى اقتصر عليه الاكثر عيز الملك فيه ويزنه بميزان عقله ثم يقيسه على آثار المتقدمين فما وافق يعتمد عليه والقرائن تدل على صحة بعضها وان كانوا ممن يستشيرهم فردا فلا يجمع بينهم فان الانفراد فيه احتياط على الكتمان واندفاع محذور منافقة بعضهم لبعض أو مشاققته (ويجب) على المستشار ان يكتم ذلك عن الصبى الصغير ومن لا يثق به الى كمال عقله ولا يكتبه بما يقرأ غيره ولا يستشهد بما يدل عليه فكم قد ظهر من الاسرار بهذه الطرق ما أفسد الاحوال (ومما جرى فى ذلك) ان بعض بنى الفرات كان له روشن مطل على الدجلة وكان اذا جلس فيه لقضاء الاشغال وقراءة القصص قطع ما يريد كتمانه ورمى به فى الدجلة وعنده انه قد احاط على الكتمان وكان رجل من أصحاب الاجناد يجلس على طريق مائه ويلتقط تلك الاوراق المقطعة ثم يمضى بها ويلفقها ويستخرج منها الاسرار التى ظن انه كتمها فاختلت عليه بذلك أحواله واما

الحازم من الملوك فانه كان يجلس و بين يديه طشت فيه الماء وكلما قرأ رقعة بريد كتمانها غسلها بيده لوقتها فبلغ بذلك مقاصد كثيرة ونجحت له مطالب عزيزة (وقال) البلخي ينبغي للملك اذا دهمه امر عظيم ان لا يضطرب له و يتثبت و يتوقف في اشاعته ولا يبادر الى المشورة فانه لا يزيد ناظره في ذلك الا بصيرة والامر الصعب الا سهولة ثم يستشير و يعمل فيه فقد تقدم من المشورة بوادر ايست انها اصل وهذا أخذ من قول الحكيم افلاطون حيث قال كل عظيم يبدو صغيرا ثم يعظم الا المصيبة فانها تبدو عظيمة وتصغر (وقد قيل) استعينوا على نجاح الحوائج بالكتمان وتستشار الوزراء في الحرب فانه كالزناد يصلها ولا يستشار الجند فيها الا من كان كامل العقل غير متهور في شجاعته ولا جبان ولا بخيل فان المتهور يوقع في الاخطار والجبان والبخيل يفوتان الفرص (وينبغي) للملك ان لا يجعل بينه وبين البريد واصحاب الاخبار واسطة ولا يجعل بينهم و بين الوزراء تعلقا لأن ذلك يوهن المملكة و يطوي الاخبار عن الملك لان الوزير لا يمكن احدا من ايصال ما يكرهه الى الملك و يؤخر عنه ما يجب تقديمه (يحكى) ان المأمون لما عزم على نقل الخلافة الى الطالبيين و بايع وهو بمرو لعلي بن موسى الرضا بلغ ذلك بني العباس فاضطربوا وشق عليهم ذلك ثم نصبوا ابراهيم المهدي و بايعوه وادى الامر الى أن حاربوا الحسن بن سهل وكسروه والاخبار منطوية عن المأمون بسبب تمكن الفضل بن سهل من الامور وكان وزير المأمون فتحيلت زوجة المأمون في ان بعثت له خلعا من خز و شي وكتبت ما أرادت على بطائنها وجعلت فوق البطائن بطائن وخضة

خلاقة فلما عرضت على الفضل بن سهل امر بحملها الى المأمون ولم ينظر فى ذلك فلما أراد المأمون لبسها نظر فى رداءه وبطائنها فنزعها فرأى الكتابة على البطائن الاصلية فعظم ذلك عليه وعلم انطواء الاخبار عنه فاخرج البريد عن تعلق الوزير وتنكر ذلك من الفضل بن سهل فقال له أردت ان اكفيك هذا الامر ثم اعلمك به فلم يقبل عذره ورحل الى العراق من وقته وكان من أمره ماهو مذكور مشهور

الباب الثالث من القسم الثانى

(فى كتاب الرسائل والدواوين ومالهم من الرسوم والقوانين)

قيل ان الخط أحد اللسانين وكاتب الملك أحد الترجمانين فيجب ان يختار الملك كاتب رسائله من يكون حسن الفهم والذكاء وافر العلم والعقل صحيح الرأى والعبارة جزلها مليح التأنى فى نظم المعانى ونثرها فان اتفق ان يكون حسن الخط فهو كماله والا فيكون هو المنشئ وغيره الكاتب واقد عيب على بعض الكتاب كونه لايحسن البراية للاقلام فقال ذلك من صنعة التجارة وهو اليها اقرب ولكن فيه عى وعجز عن الكتابة (وقيل) الكلام جسد والمعنى روحه والخط هيئته وجماله أوقبحه ولاغنى لكاتب الانشاء ان يكون ذا فنون من العلم فى فن البلاغة والبراعة وعلم الشريعة والتاريخ والكتاب العزيز والتفسير والاحاديث النبوية والآثار المروية واشعار العرب وامثالهم السائرة والوقائع حسن الخط سريعه جيدا فى النحو والعربية ويعرف الحجج النقلية والعقلية والبراهين فربما انه احتاج الى دعوة الى مذهب أومجادلة فى النزوع عن مذهب أواعتقاد فيبطل المذهب الممنوع ويثبت المذهب المدعو اليه

وبالعكس ويجب ان يكون عارفا بالامور السياسية والقواعد
الملكية فاذا عهد الى نائب اقليم أو والى حرب او نائب ثغر أو قاض
أو خطيب أو حكيم أو كاتب من كان من أرباب المناصب وغيرها
فيعرف مقادير الناس وطبقاتهم ومكانهم من الدولة والملك فيوفيهم
حقوقهم في النعوت والالقاب والخطاب (ومن نظر) في كتب ابي
أيوب المورياني وأبي سلمة الخلال وتأثيرهما في صدر الدولة العباسية
علم شرف موقعهما وكذلك الحال في بني برمك ثم من بعدهم
الصاحب بن عباد في الدولة الديلمية وتمهيدها وتثبيت قواعدها
وتشييد مبانيها وكذلك الصابي وغيره من فضلاء الكتاب ثم في الدولة
الايوبية محاسن درر الفاظ الانشاآت الفاضلية وفي الدولة
الناصرية الصلاحية تلك المعاني البديعة والالفاظ السهلة الممتنعة
(وأما الصابي) فانه كان على غير دين الاسلام ويجري الفاظ القرآن
الحكيم والاحاديث النبوية في الفاظه وكتابته (ويستحب) من جميع
ماذكر ماقل ودل في رشاقة الالفاظ وحلاوة المعاني وفصاحة
الاعراب وطلاوة السجع وخفة الاشارة وجودة العبارة وقرب
المعنى وبلاغة الكلام وحسن الخط وكفاية الجواب ومقنع التوقيع
(وكانت) للفرس وملوكها الاكاسرة تواقيع صحيحة المعاني جزلة
العبارة بالفارسية وقد ترجمت بالعربية فذهبت جزالتها وبقيت
معانيها فمن ذلك توقيع في رقعة شاك من بعض الولاة ما معناه لا تقهر
من دونك فانك الضعيف يقهرك من فوقك فانه القوى ووقع لمحبوس
طال سجنه لو حبست نفسك عن نيل الهوى لم يطل سجن جسمك
(وهذا) مثل توقيع بعض وزراء بني العباس تجرع مرارة الادب

كما أسغت حلاوة الارب ورفعت قصة الى الصاحب يسئل فيها ولاية عمل فوقع ان احتجنا اليك صرفناك والا احسنا اليك وصرفناك ووقع بعض الملوك فى مؤامرة من طلب له الامان يؤمن ولا يؤمن ووقع المنصور الى عامل له شكا منه بعض الرعية اكفني أمرهم والا كفيتهم امرك ومثل هذا كثير (وحكى) عن السلطان محمود ابن سبكتكين انه بعث الى الخليفة يطلب ان يذكر اسمه فى الخطبة ببغداد ويتقش اسمه فى سكة الذهب والفضة فامتنع الخليفة من ذلك فبعث كتابا فيه تهديد ووعيد حتى قال فى جملته لو اردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت فبعث اليه الخليفة كتابا مختوما فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة الا الفا ممدودة وفى وسطه لام وفى آخره ميم والصلاة والحمد لله فتحير السلطان فى ذلك وأهل مجلسه حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني فتفكر فى ذلك وقال عندى شرحه فقال اذكر ولك ماتريد فقال بعثت اليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا اليه هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم اشارة الى قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل الى آخر السورة فارتاع لذلك وأوقع الله فى قلبه الخوف والندم وعاد الى احسن الاحوال من الرضا والادب ومثل هذا كثير وبلاغة الكلام لا تحصر ولكن اختصرت لئلا يفوت الغرض وخشية من الملل وهذا فن كثرت فيه التصانيف وانما ذكرت هذا القدر على سبيل الاشارة

(فصل فى ديوان الجيوش وعرضهم)

يجب ان يكون صاحب ديوان الجيش من أعلى الناس قدرا واوسعهم صدرا واحسنهم خلقا وخلقا وأطيبهم أصلا وأجلهم فعلا

وأشرفهم نفسا وأكثرهم انسا ويكون منهم كبير اقدره نافذا أمره رطبا لسانه عظيما شانه صالحة فكرته سليمة فطرته يرجعون اليه ويصدرون فى أمورهم عليه ناظرا عليهم مشيرا اليهم خبيرا بالجيوش والعروض ومعرفة الرجال ورتبهم واقدارهم وموقعهم من الدولة ويتقن أمر الحلية فلا يشتبه عليه شخص بشخص وشيات الدواب والسلاح والتسكن له هيبة وحرمة كبيرة حتى لا يجسر احد على التدليس عليه ولا غيره ويحترز عند العروض فهو الاصل فى انتظام أمر الجيش (يحكى) ان الاسكندر كان له جيوش عظيمة وكان فى عرضها يباشرها بنفسه ويتقن عرض الفارس وخيله وعدته وكان أكثر عرضه فى المضايق فى السفر فما كان احد يجسر على التهاون فيما يحتاج اليه (وكسرى) انوشروان يحكى عنه انه أمر بعرض جيوشه لما عزم على الحروب وكان من رسمهم ان يمر الفارس الذى هو فى الطبقة الاولى على حصانه ومعه الغلام بجنيبه والدرع والمغفر والكفوف الزرد والرانات والتجافيف للخيل ويسمى بركستوان والآن بركصطوان والترس والرمح والسيف والدبوس والسكين الكبيرة والحبل والمخالى والسكك الحديد والمقاود وكبة خيوط ومخصف ومقص ومطرقة وكازومسل وبروخيوط وزناد وطرطور ولباد وقوسان موتوران ووتران زائدان لخوف الانقطاع وجعبتان للنشاب احداهما معه والاخرى مع غلامه ومر على كسرى العارض بجندى عنده ذكر اسمه كما جرت عادتهم فافتقد آلته فوجدها ناقصة الوترين المعدين للانقطاع فلم يعرض اسمه حتى بعث واتى بهما وعلقهما وجاز (ولم تزل) بنو امية تعرض الجيوش وتفصل الطبقات وفى وقت

يشددون وفي وقت يتساهلون وكذلك ملوك المغرب وغيرهم

(فصل في ديوان الخراج)

رسم هذا الديوان ان يشتمل على خراج الضياع والجوالى والزكاة والرعية كالبستان للملك وصاحب الخراج أى واليه كالفلاح المقيم بوظائف البستان ومصالحه فكما يجب ان الفلاح يتعهد الاشجار بالسقى والحرث والعمارة والحفظ والرفق فى الجنى ثم باداء الاجور والامانة فكذا والى الخراج يتعهد الرعية بالتقوية والاعانة والمساعدة فى العمارة والحراسة والرفق فى الاستيفاء والصبر الى حين اليسرة والادرار ومن لوازم هذا الديوان معرفة الحساب والمساحة والضرب والقسمة والامانة والعدالة بأخذ الحق ولا يحيف ولا يضيع فان الحيف سريع المضرة وخراب البلاد (قال) كسرى مامثل الذى يرى ظلم رعيته ويستوفى منهم فوق ما ينبغى الامثل الذى يحفر التراب من اساس بيته ليطين به سطحه فضرته اكثر من منفعته (وقال) بعض الملوك لوالى الخراج اذا اردت ان يطول لسانك فلا تطول يدك (وقال) بعض ملوك الفرس علينا الولاة تشاوروا وبينا ان توسع عليهم ونقوى أيديهم ونزيح عللهم وننفذ أمرهم ماعدلوا وكفوا ونصحوا وعفوا (وقيل) أغنى من وليته عن السرقة تستغن عن عقوبته فليس يكفيك من لم تكفه (كان) اردشير بابك اذا عزل عاملا له عن عمله لم يعاقبه بالعذاب بل يأمر بمحاسبته وأخذ ماظهر عليه ويقول عقوبة الفقر أشد العقوبات واذا عزل من ظهر منه التقصير أو كراهة ألقى عليه من الرزق مايعيش به وقال نعاقب من كرهناه بالهجران لا بالحرمان ويجب ان يبتدئ صاحب الخراج

بجباياته عند ادراك الغلال وصلاح الثمار وكان الرسم الاول افتتاح الخراج من يوم النيروز وهو من أول افروردين ماه من شهور الفرس وهو الثالث من كيهك من شهور القبط وهو الآن آخر شهر كانون الاول وكان أهل مصر يستخرجون الخراج فى اول يوم من امشير ثم صارت المتأخرة تجعل النوروز أول نزول الشمس برج الحمل ولما رأى المعتضد ان هذه الاوقات هى زمان العسرة على الرعية نقل النوروز فى جميع البلاد الى الحادى والعشرين من حزيران وهو وقت اليسرة وادراك الغلات والثمار وهو النوروز المعتضدى وترتب الامر عليه وليس الحال متحدا فى كل المواضع بل يجب الرفق على كل حال

(فصل فى ديوان النفقات)

وهو ديوان الامانة والحاشية * صاحب هذا الديوان ينبغى أن يكون جيد الحساب والقسمة والضرب والمكاييل والوزن والاسعار والضرائب عارفا بجميع الاصناف من الملابس والمطاعم والآلات والحيوان وقيمها ثم يعرف الرسوم السلطانية والوظائف والعطاء والوفد والاضياف والصلات والرسل والهدايا وصاحب هذا الديوان يسمى مستوفيا وهو فى الاسم الفارسى أرفع الدواوين بعد الوزير والنظار لانه اليه ترجع أمور الدواوين ومعالمها عنده واليه ترفع حساباتها المستوفى عليها ويطالب بالاموال وما يتعين من المصالح وتحت يده عدة دواوين فيجب ان يوسع عليه فى رزقه ومعلومه ومراكبه وغلمانه بحيث انه تملأ عينه حتى لا تميله الرشا عن المصالح فتضيع بهذا السبب وهكذا رئيس ديوان الانشاء وهو صاحب ديوان

الانشاء والاسرار فيجب ان يكون الجارى عليه فوق كفايته خارجا عن الانعام والاطلاق والافتقاد حسب الطاقة وطاقة الملوك عالية وأما المملكة فانها اذا كانت متسعة فيتفرع لها دواوين ورجوع الكل الى المستوفى وسمى الديوان لانه بالفارسية اسمه ديو فعرب بديوان

(فصل فى الصدقات ودواوينها)

قال الله تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها الآية فوالى الصدقات والساعى فى تحصيلها ينبغى أن يكون فقيها عارفا بما أوجب الله على عباده فى أموالهم من الزكاة وكيف أوجبها ومتى تؤخذ ومقدار النصاب من كل صنف وأخذ القيم فيما يجوز الاخذ والخرص فيما يجوز الخرص فيه وزكاة الخليطين والركاز والمعدن والتجارة والفطر ثم يأمر الملك بجمع ذلك وتفرقته وقسمته على أهله كما قال الله تعالى انما الصدقات للفقراء والمساكين الآية فمن أخذها بحقها وقسمها على مستحقها كان منصفا لرعيته عادلا فى سياسته تابعا السنة شريعته وفرضها وفى أخذ الزكاة من المصالح فى الدين والدنيا مالا خفاء له فمن ذلك ان جامع المال ومانعه مقتر وذلك مذموم ومكثر العطاء والانفاق مبذر وهو مذموم وخير الامور أوسطها واخراج ذلك القدر على الوجه المشروع فيه أمر عظيم من سد حاجة الفقير واقامة معيشته وابراء ذمة صاحب المال وتثميره وحفظه فانه قد جرب ان المال اذا جمع وبخل به حدث عليه ما يتلفه أو يتلف صاحبه كما اذا اجتمع فى الحوض العظيم ماء حتى يمتلئ ويفيض فربما يشق مكانه ويخرج منه (وقال حكيم اليونان) السياسة فى تكثير القليل وتقليل الكثير وهذا كلام جامع فيجب على الملك

تقوية يد هذا الوالى المباشر لهذه الجهة وبسط يده وعقوبة مانع الزكاة ومن دافع عنها كما فعل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بهوازن حين منعوا الزكاة ولا ينبغى له أن يتعدى ما حده الشرع فى ذلك فيأثم فى الآخرة ويقبح سمعته فى الدنيا

(فصل فى ديوان بيت المال)

هذا الديوان يعرف بالديوان السامى وهو أصل الدواوين ومرجعها اليه ووظيفته ان يثبت فى جرائده جميع أصول الأموال السلطانية على أصنافها من عين وغلال وفىء وغنائم وأعشار وأخماس ويثبت ما تحصل من ذلك ويتخذ بيوتا لاصناف الاموال ويجعل عليها دواوين وحراسا فالاموال والقماش لها ديوان الخزانة ويجب أن يكون مباشروه قضاة المسلمين بانفسهم أو بالنواب عنهم ومعهم خزندارية امناء أكفياء أقوى الناس ديانة والغلال لها ديوان الاهراء يجب أن يكون مباشروه من أكبر العدول الدينين الاعفاء والاسلحة والذخائر لها ديوان خزائن السلاح يجب أن يكون مباشر هذه الجهة محتسب البلد لانه يعرف أمور الاستعمالات وأجر الصناع واسعار الآلات وان شرعنا فى فروع الدواوين طال الكتاب فيجب لصاحب ديوان النفقات أن يكون مباشرا لديوان بيت المال ليدخر عنده التواقيع الثابتة الدالة على صحة مصروف النفقات ثم يرفع من أصناف الجواهر ما يختص بالسلطان ومن الاموال الخالصة من الذهب والفضة بغير غش الى خزانة الخاص وأما النحاس أو الحديد فاذا لم يتعهد صدئ وتلف واللؤلؤ يصفر والزمرد يتقطر اذا خزن ولم يتفقد والياقوت الاحمر ثابت لا يتغير فيجب ازاحة اعذار

هؤلاء

هؤلاء المباشرين والتوسعة عليهم بكل وجه من خيل وملابس ونفقات وغلمان وعبيد وصلة أعينهم

الباب الرابع
(فى ولاية المظالم وانصاف المظلوم من الظالم)

هذه ولاية جليلة وهى متعينة على الامام أو السلطان فيباشرها بنفسه أو يستنيب فيها نائبا يقوم مقام نفسه ويكون عارفا عاقلا دينا أمينا كما قال الله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدّوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل وقد سبق القول فى باب العدل من ذلك (فأول) ما يجب على من انتصب لذلك أن يبدأ بنفسه فينصف منها وينصف من ولده وأهله وخواصه كما يحكى عن أهل الفضل والعدل من الخلفاء والملوك انهم جلسوا بين يدى القضاة ودانوا الحق وقد نقل ذلك عن ابرويز وانوشروان وبهرام جور ورستم وعن عمر بن عبد العزيز والمأمون وكثير من الملوك آخرهم الملك الظاهر بيبرس من ملوك الترك (فيجب) أن يكون هذا المتولى صاحب سيف وسطوة وتمكن من الدولة والفرس تسمى والى هذا المنصب ميرداد معناه أمير العدل وهو نائب الملك والآن فى هذا العصر فى الاسلام يسمى نائب السلطان ملك الامراء وينبغى ان لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يحابى ولا يتحامل ولا يجلس الا وعنده قاض أو فقيه متشرع يذكره اذا نسى ويدله اذا أخطأ وليكن عنده شهود معدلون يشهدون على الاقرارات ويحضرون المحاكمات (ولا ينبغى) له ان يسفك الدماء ويفوت الارواح الا بالشرع واذا اشتبهت عليه الامور راجع فيها وآمر ويكون له كاتب وديوان

يثبت فيه أرباب الجنايات وما يثبت في حقهم وكيفية عقوباتهم
وينبغي ان لايعجل في القتل ولا يترك الاستئناء ويقيل ذوي المروآت
والهيآت عثراتهم مالم يكن فيه منع من جهة الشرع بل يقمع
المفسدين ويردع العابثين فان في الناس قوما في طباعهم الشر والظلم
واختيار ذلك وهو يتولد من وجوه فانهم كالسباع والعقارب
والحيات فلابد للملك من التسبب في قمعهم وكف شرهم وهم أصناف
(صنف) ذوو قوة في أجسامهم فضل قوة وشدة ونجدة فان نقصت
حظوظهم كانوا أعداء الدولة فينبغي ان ينظر في حالهم ويوسع عليهم
ويشغلوا بالجهاد دائما (وصنف) ذوو فقر وفاقة تولد الشر في
طباعهم من مرارة الحاجة فكذلك ينظر في حالهم ويحسم مادتهم
ويشغلهم فيما يليق بهم ويجري عليهم مايسد فاقتهم (وصنف) ذوو
حمية وجهل نالهم من بعض أصحاب السلطان ذل وظلم وشكوا من
ذلك للملك اولنائبه فلم ينصفوهم واهوا عن اقامة الحق في ذلك
فحملهم جهلهم وعدم انصافهم الى التعرض لاسباب الشر على الدولة
والمخاصرة ان أمكنهم وقطع الطريق وسفك الدماء فاستوحشوا
واستأنسوا بالعبث بالناس وبعدوا عن الوطن وتجرموا وربما التف
معهم طوائف عصبية على الفساد فيهلكوا ويهلكوا فينبغي للملك
ان يتدارك هذا الداء ويحسم مادتهم بانصافهم ويتقدم أمره الى
نوابه بذلك وايصالهم من العدل الى غايته فان انتهوا والا يستأصل
شأفتهم (وصنف) آخر أهل نعمة وعافية ادّاهم البطر الى الفكر
الرديئة في استعمال مالا يليق من الشر وايقاع الفتن فيجب ان
لايرفهوا ويشتغلوا بالتجليد والبزل ولا يتركوا والبطر (وصنف)

آخر لهم أرزاق جارية على بيوت الاموال اما على تصرفات وأعمال
أو على سبيل العطاء والاطلاق فقطعت عنهم اما لضيقة الاموال
أو لقلة غنائهم في الدولة فاداهم ذلك الى بغض الدولة والتألف على
ما يضرها فان كثروا وتجمعوا أفسدوا وان قلوا ظعنوا وتشتتوا
ومتى ظهر معاندا وخارجي مالوا اليه وطريق حسم مادتهم ان يميز
أصنافهم ويلحق كل صنف منهم بصنفه ويرزقهم ويحال عليهم
ويشغل بعضهم ببعض ومن كان من أصناف الفساد والشر خلد في
السجن وأجرى عليه قوته (وصنف) من المتعلقين بخدمة السلطان
أو ينتمون الى خدمه يفعلون الجرائم ويركبون العظائم فتجب
عليهم الحدود فيشفع فيهم فيتركون فيؤدي ذلك الى طمعهم
وازديادهم في ذلك وطمع غيرهم ودواء ذلك ان يقرر الملك في نفوس
خواصه ان لا يفعلوا ذلك ولا يشفعوا فيمن يفعل ذلك فانه حسم للمادة
وكفاية للضرر (وصنف) من أهل الجبال والقبائل الذين في طبعهم
الظلم والقتل حتى انه لا يلذ لهم غيره ويحمي بعضهم بعضا وهو داء
صعب قلما ينفع فيهم الزجر والتأديب فليشغلوا بالجهاد والاسفار
وأصناف أهل الفساد كثيرة فيكون الملك أو الوالي فيه يقظة ومبادرة
الى حسم مادتهم وقطع عاديتهم (ومن أصنافهم) أهل الضعف من
العامة الذين يختلسون ويستلبون ويتسللون وأهل الغش في
الصنائع والتدليس وهذه الطوائف ضعيفة حقيرة والمحتسب يتولى
زجرها وتأديبها (وينبغي) للوالي أن يحسن الى من اطلعه على أمر
ونبهه على سر ويعاقب من طوى عنه شيأ من القتل والفساد أو آوى
أهل الطغيان والعناد وينادي مناديه ان لا يعتمد أحد مثل هذا

الاعتماد ويعاقب من يخالف أمره فى ذلك لئلا تنطوى أخبار المفسدين عنه ثم يكون شديد العقوبة لاهل الشر والشناعة منتقما مسرعا فى وعيده حتى تتقهر أهل الفاقة ويركب عليهم الجفة حتى يرتدعوا ويتعظ بهم من يحذو حذوهم ثم يجب أن يكون عند الوالى ذكاء وفطنة وفراسة وجودة قريحة فى استنباط القضايا واستخراج الحقوق كما يحكى عن طائفة من ملوك المتقدمين الجاهلية والاسلام (فمن ذلك ما يحكى) ان رجلا من أصحاب المنصور شكا اليه انه قدم من سفره الى منزله بمال فادعت زوجته انه سرق ولم يجد فى المنزل نقبا ولا كوة ولا يتهم زوجته وقد فتح قماشها فلم يجد فى القماش شيأ ولا عدم منه شيأ فقال له المنصور وهى شابة قال نعم قال بكرا تزوجتها أم ثيبا قال ثيبا قال لها ولد من غيرك قال لا ولا منى قال فهى جميلة قال نعم قال فعد الى بعد أيام لعلى اصلك بشئ تستعين به وخذ هذا الطيب فتطيب به فانه يذهب الهم ويخفف الحزن فاخذه وانصرف الى منزله وبعث المنصور الى بوابى المدينة وأمرهم أن يتفقدوا من يمر بهم وعليه رائحة هذا الطيب فيمسكوه سوى فلان وأعطاهم منه وكان طيبا مركبا يتخذه الخلفاء وأمرهم بالكتمان فانصرفوا فاما الرجل فانه انصرف بالطيب الى منزله وقال لامرأته هذا طيب يذهب الهم فاحتفظى به وكان المنصور عندما سأله عن أحواله حدث فى نفسه ان للمرأة صاحبا اعطته المال وانها استمطيه ما يحصل لها فكان كما حدث ان المرأة لها صاحب أعطته المال وانها لما أخذت الطيب لم يكن لها هم الا أن أخذت من الطيب فارسلته الى صاحبها فتطيب به فلم يكن بعد أيام الا وقد قبض بباب البلد

وأحضروه بين يدي المنصور فسأله من أين لك هذا الطيب ورآه شابا حسنا فتلكأ في كلامه فأمر بتقريره فأقر وأحضر المال فأمر المنصور بصاحبه فأحضر وقال له حكمني في زوجتك وأرد عليك المال ففعل فأمر بتطليقها وعقوبتها وحدثه قصتها وأخرج اليه المال فأخذه وانصرف متعجبا (ويحكى) ان صيادا طرح شبكته في دجلة في أيام المعتصم فأخرج جرابا فيه آجرتين بينهما كف مخضب فيه خواتم ذهب بفصوص زمرد وياقوت فارتاع الصياد لذلك وارتفع الخبر الى الوالي ثم الى المعتصم فأحضره فعظم عليه وقال يتم مثل هذا ببلدنا أنا فيه حاضر ما هذا إلا لك فسأل عن الخواتم فقيل انها ليست من صنعة بغداد فأحضر رجلا لا يعرف بصحبة السلطان ودفع اليه الجراب وقال له اسأل عن صانع هذا الجراب وتتبع الاثر فيه فسأل عنه فوجده وقال كثيرا ما أبيعها للعطارين فسأل من العطار عنها فقال اشتريها وأبيع فيها ما يشتري من حانوتي فتلطف في السؤال حتى قال اشترى مني رجل هاشمي في هذه الايام عشرة من هذه الاجربة ولم يأخذ فيها شيأ وكان قد تقصي من الجرابي والعطار فلم يجد في حاليهما ما ينكره فسأل عن الهاشمي فقيل انه رجل مشتغل في داره بالشرب والقصف واحضار القيان فلاصق جيرانه وتتبع أحواله حتى قيل عنه انه كان يهوى جارية لبعض المغنيات وانه أمسكها عنده ورام شراءها من سيدتها فاشتطت عليه في القيمة فحبسها عنده وأنكرها منها وجاءت وكررت تطلبها فدافعها وحلف لها انها خرجت من عنده اليها وأدخلها في منزله ففتشته وانصرفت خائبة فمضى صاحب الخبر بذلك للمعتصم فسري عنه ما كان قد أقلقه ثم أمر باحضار سيدة

الجارية وسألها عن قصة جاريتها فشرحت له القصة فأمر باخراج الكف اليها فحين رأته بكت وقالت والله يا أمير المؤمنين هذا كف جاريتي وهذه خواتمها التي ابتعتها من فلان بالموضع الفلاني كل ذلك في الليل فبعث جماعة من الحرس يقبضون على الهاشمي ويحتاطون على داره وما فيها ويحضرونه على الحالة التي هو عليها فاحضر وهو سكران بين من حضر عنده من القيان فقال له يا فاسق يا عدو الله تفعل ما تفعل ثم ما تقنع بذلك حتى تقتل نفسا محرمة ثم لا يرضيك حتى تمثل ثم حبسه الى الغد وأمر بتقريره فأقر وأمر الصيادين بطرح الشباك في تلك الناحية حتى استخرجوا بقية الاعضاء قطاب قلبه بظهور القضية ثم سلم الاعضاء الى سيدتها فكفنتها ودفنتها وسلم اليها من ماله اضعاف قيمتها وأمر بصلب الهاشمي على باب داره والجريب معلقة في نحره (ومما حكي) عن عضد الدولة وكانت له فراسات عظيمة سيما في استخلاص الحقوق وذلك ان شابا من اجناد مر ببعض أزقة بغداد فنظر الى امرأة في روزنة وكانت صبية مليحة فهويها وتعلق قلبه بها فجعل يأتي كل يوم ويقف بحذائها ويعنيها من غزلها وخافت من اطلاع الجيران عليها وان يبلغ ذلك زوجها فسدت الروزنة أياما وهي تنظر اليه من مكان لا يراها وهو يواظب ولا ينقطع فشكت ذلك الى زوجها ففتح الروزنة وجلس حتى تحقق الحال فقال لها اذا جاء فكلميه وقولي له وقوفك هنا يفضح ولكن الليلة يغيب زوجي فجيء الي بعد العشاء ولا يشعر بك أحد ثم عمد الى دهليز داره فحفر فيه حفرة وسقفها بقصب ضعيف وغطاه بتراب وفعلت المرأة ما قال لها زوجها فطمع

الحائك وجاء لوعده ففتحت له الباب فدخل وهو لا يعلم فوقع في الحفرة
وبادرت إليه زوجها بحجارة ثم قتلته ثم طمته بالتراب وسوت الارض كما
كانت وانتظر أهل الرجل عوده أياما فلم يعد فحزنوا وبكوا ثم اجتمعوا
الى عضد الدولة فاستغاثوا اليه وقالوا عدم صاحبنا وما نعلم حاله
فسألهم عنه فقالوا غاب عنا ولم يظهر فقال هل كان معه مال قالوا
لا قال فهل كان بينه وبين أحد عداوة قالوا لا قال فزوجته كارهة
له قالوا لا قال فكيف اعلم خبره قالوا كان له مدة يغيب كل يوم من وسط
النهار الى آخره ويجيء ولم نعلم فيماذا قال ففي أي درب أو حارة كان
يذهب فوصفوه له فقال اطلبوا صاحبكم فلعله مسافر والا
فالغيب لا يعلمه الا الله تعالى فلما انصرفوا بعث نقيبه عند العشية
ومعه جماعة من الاعوان وقال اكبس بيت المؤذن قيم الدرب
الفلاني وأحضره على أزعج ما يكون واياك ان يفلت منك ففعل ذلك
فلما مثل بين يديه أمر بأن يجلس حتى يفرغ من اشغاله ثم أدناه وقال له
تعلم لم أحضرتك فقال له وهو يرعد ما أعلم ولكنني على آخر نفس من
الحياة ولست أدري كيف حال أولادي فقال طب نفسا فلا بأس
عليك فسر بذلك وصبر حتى سكن جاشه ثم قال له تلبث عندي حتى
تعلم ان الناس قد ناموا ويشتهر انك محبوس وانصرف فان وجدت
على باب مسجدك من ينتظرك لكشف حالك فاعرفه واعرف
ما يقول ثم نم في بيتك وقم قبل وقت عادتك فأشعل قناديلك وافتح
باب مسجدك واذكر وسبح ثم اجلس فأول من يدخل عليك عرفني به
مع ما يجري لك معه وان ظهر ما جرى بيني وبينك لاحد ضربت
عنقك فقال نعم يا سيدي وانصرف كما رسم له فوجد الناس قد ينسوا

منه وناموا فلبث يسيرا وقام فسبح وذكر واشعل المسجد وجلس فأول من دخل عليه زوج المرأة وذلك ان الريبة منعته النوم كما قيل كاد المرتاب ان يقول خذوني فقال له أيها المؤذن قلبي عندك فما الذي طرأ عليك فقال له ما كان الا خيرا اتهموني بأمر وخلصني الله منه فأخذ معه في ذم الدولة وذكر الظلم ثم خرج واشتغل الرجل بصلاته فلما أصبح جاء المؤذن الى عضد الدولة فأخبره بالقصة وقال لما انصرفت لم أجد على باب المسجد أحدا فلما قمت وفتحت واسرجت أول ما جاءني فلان الكتاني وبعده فلان وفلان وكلهم يسأل عن حالي ويتغمم لي فقال من فيهم له زوجة مليحة أو جارية فقال الكتاني وهو الذي ألح في الاستقصاء فقال ما يقال عن زوجته فقال مستورة وهو غيور عليها وأما فلان فلا زوجة له وفلان زوجته عجوز فحدس عضد الدولة ان الكتاني هو قاتل الشخص المطلوب فأمر باحضار الكتاني والشخصين ونظر في وجوههم فتغيروا واضطربوا فقررهم فأقر الكتاني فبعث الى أولياء القتيل فحضروا وبعث معهم من يثق اليه حتى تبين من القتيل فاستخرجوه من حفرته وأمر بقتل الكتاني وعقوبة المرأة وقال انها عجزت عن طرده الا في الحفرة وكانت هذه من غرائب استنباطات عضد الدولة (ويحكى عن المعتضد) انه كان يوما في داره يشرف على عمالين وصناع يبنون فنظر الى رجل من الفعلة وأطال بالنظر اليه ساعة واستخبر فقال هل به جنة فقالوا لا فقال سكران هو قالوا لا فقال علي بالمقارع فأقيم بين الرجال للضرب وقال أين المال الذي عندك فلم يضرب الا قليلا حتى أقر بألف دينار وأنفق منها عشرة دنانير فقرر على وصولها اليه فقال كنت وقادا في الحمام الفلاني اذ

هجم علىّ في بعض الليالي رجل تاجر وقال اصطنعني فان على طالبا وخلفي من يقصدني فخبيته في زاوية وغطيته بالزبل ودخل الذين كانوا خلفه فلم يروه فسألوني عنه فخرجوا يعدون حتى لا يفوتهم وهم سكارى فلما أيست من عودهم قمت اليه فوجدته قد نام سكرا فحركته واسنته فوجدت في وسطه كيسا فيه ألف دينار فاخذتها وقتلته ثم طرحته في الاتون حتى احترق فيه فغضب المعتضد ثم بعث معه من أحضر المال ثم سأل عن الشخص حتى عرف ثم سأل عن ورثته فقيل انه غريب وورثته ببلده فأمر بأن يودع المال ويبعث الى ورثته فيحضروا وأمر أن يطاف بالوقاد ويشهر ثم يطرح في الاتون حتى يحترق ففعل به وتعجب الناس من فطنة المعتضد في ذلك وسأله خواصه عن ذلك فقال رأيته يحمل أكثر من فاعلين ويعدو ويجمز ويصعد السلم درجتين درجتين ولم يك في جسمه ولا قوته ما يقتضي ذلك فعلمت انه ما قوى الا بالمال ومثل هذا كثيرا

الباب الخامس

(في أصحاب البريد والاخبار والعيون)

واما الجواسيس فيذكرون في كتاب الحروب ولكن هنا ألزم وسنذكره ان شاء الله تعالى فاما البريد وما بعدهم من أصحاب الاخبار والعيون فهم للملوك بمنزلة العيون الباصرة والآذان السامعة فيجب أن يكونوا أمناء عقلاء نصحاء ويكون فيهم حسن تأت ولطف توصل وتحيل وفكرة صالحة (فيجب) أيضا ان تجرى عليهم النفقات ويوسع لهم في العطيات وتزاح عللهم فيما يحتاجون اليه من اتباع وأعوان ومراكب وطيور ورواتب وغير ذلك ويكونون في نقلهم محققين

صادقين فان الكذب فى هذا والعمل به يؤدى الى خلل عظيم
لا يستدرك فارطه فلهذا يجب الاحتياط فى ذلك وشدة العقوبة لمن
تجرأ على الكذب فى خبره فكم من التدابير والسياسات فسدت
بالكذب وسوء النقل حتى ان بعض الملوك يحيل بوضع الكتب
واختلاقها وتسليمها الى من يظن انه سيؤخذ فاذا ظهرت وفضت
اعتقد صحتها فعمل بها فلم يكن صوابا وان اهمل الملك ذلك بالكلية
ولم يكشف عن حال أوليائه واعدائه انطوت عنه الاخبار ولم تستقم
له السياسة بل لا يحس بالشر حتى يقع فيه (كان) النبى صلى الله عليه
وسلم مع جلالة قدره وتحقيق نظره يبعث العيون والجواسيس
لكشف أخبار المشركين والاطلاع على تفاصيل أفعالهم
وأحوالهم (وفى صحيح البخارى) وسنن أبى داود عن على بن أبى طالب
كرم الله وجهه قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير
والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة ومعها
كتاب فخذوه فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا الى الروضة فاذا
نحن بالظعينة فقلنا اخرجى الكتاب فقالت ما معى من كتاب فقلنا
لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فاخرجته من عقاصها فاتينا به
النبى صلى الله عليه وسلم فاذا فيه من حاطب بن أبى بلتعة الى اناس من
المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر النبى عليه الصلاة والسلام
وساق باقى الحديث وكذلك بعث العيون للاطلاع على حال أبى سفيان
والاخبار فى ذلك كثيرة ولم تزل ملوك اليونان والفرس والقبط
وغيرهم والخلفاء من بنى العباس يبالغون فى ذلك حتى نسب الى
بعضهم مباشرة ذلك بنفسه واطلع على احوال ولاته ونوابه ورعيته

وربما اطلعوا على أحوال العوام وآحاد الناس وفي ذلك من المصالح مالا خفاء به لان الملك السائس للرعية كالطبيب فان لم يطلع على اسرار الادواء وخفايا العلل لم يوافق الدواء الالم الانادرا ولاقياس عليه وقدرتب بعض الخلفاء ذلك ظاهرا فقرر مع الوزير صاحب خبر من الثقات ينهي مايجري في مجلسه فلا يحسن الوزير لاحد ولا يجتمع به أحد من الناس الابحضور ذلك الشخص وكذلك رتب مع القاضي والنائب وجميع الولاة والعمال (فينبغي) ان يكون أصحاب الاخبار يحضرون مجالس الناس وولائمهم ومجالس الوعظ والاسواق فانه يجري في هذه الاماكن مايجب الاطلاع عليه وكذلك يكشفون عن أحوال العامة وأراجيفهم ومايشتهر في كل وقت من أقوالهم وأفعالهم (وقال) محمد بن عبد الملك الزيات الاراجيف مقدمة الكون (وينبغي) ان يكون صاحب الخبر وصاحب البريد لاواسطة بينه وبين الملك فان ذلك يوقف كثيرا من الاحوال ولا يسمعون لهم في اطلاع أحد على ماعندهم قبل انهائهم الى الملك ليكون الملك هو الذي يشيعه أو يكتمه حسبما يراه (وأما) البريد فانه ولاية جليلة خطيرة ومتقلدها يحتاج الى جماعة كثيرة والى المواد الغزيرة والتوسعة عليه فمن جملة أعماله حفظ الطريق ويزرقتها وصيانتها من القطاع والسراق وطرق الاعداء وانسلال الجواسيس في البر والبحر واليه ترد كتب أصحاب الثغور وولاة الاطراف وهو يوصلها في أسرع مايمكن من اختصار الطرق واختيار المراكب والراكب والناس في ذلك على تفاوت (وينبغي) له ان ينظر في حال المراكز ومنازل البريد وافتقاد خيل الشهر

وعرضهم واصلاحهم وازاحة اعذارهم واعذار رجالهم ويتطرق
حال القبائل والعشائر ومن فيهم على الطاعة والمناصحة ومن قد
تغيرت طاعته وفسدت مناصحته فان هذه الاحوال متى علمت في
أوائل الامر سهل تداركها ومتى انطوت الاخبار تفاقم الامر
وصعب التدارك كما جرى فيما تقدم من ظهور الخوارج وقيام أهل
الاهواء والحشوية والنفاق لغفلة النواب واهمالهم واشتغالهم
باللهو (ولما كتب) نصر بن سيار الى مروان بن محمد وهو آخر خلفاء
بني أمية يخبره بقيام أبي مسلم الخراساني وظهور الدعوة العباسية
وهو يهمل ذلك والاقدار تجري فانشد يقول

أرى خلل الرماد وميض جمر * ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالزندين تورى * وان الحرب أوله كلام
وان يظفر بها غفلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري * أأيقاظ أمية أم نيام

حتى كان من أمرهم ما كان (وقد) كان الرشيد والمعتصم والمتوكل
والمعتضد يبحثون عن الاحوال غاية البحث ويتلطفون في الاطلاع
على الامور وكذلك وزراؤهم وأمراؤهم والعامة ومنهم
الافشين ومؤنس الخادم وابن داؤد لكل واحد من هؤلاء غرائب
في ذلك وتدقيق في الكشف ومنهم أحمد بن طولون كان مستشعرا
من الخليفة ومن أحمد الموفق والحاز بمصر وصار ضابطا لها محتاطا
عليها وهو حسن السيرة تام السياسة مطلعا على جميع أحوال جنده
وكان من جملة أمرائه رجل من مقدمي الاتراك له تقدم ورياسة وفيه
نجدة وشجاعة الا أن اخباره انطوت عن أحمد بن طولون فلم يقدر

على الاطلاع عليها وسببه قلة معاشرته وكانت له دار حصينة ليس فيها
سوى جارية مغنية ومن يخدمها ولا يفتح بابه اذا غاب ولا يدخل عليها
سوى خادم صغير يناول ويتناول ما يحتاجون اليه من طعامهم
وشرابهم في اليوم مرة واحدة ثم يغلق الباب الى الغد فيخرج نيركب
مع أصحابه الى خدمة أحمد ويعود فلما عسر على أحمد معرفة أحواله
ندب رجلا من الاذكياء لذلك وقال تلطف في تحصيل دار الى جانبه
اما بشراء أو كرا واسكن فيها واجتهد ان تطلع على أحواله وتعرفني
بها ففعل ذلك فكان يتجسس عليهم من شق أو كوة صغيرة فيراه بعد
الاكل مع جاريته فيشرب وتغنيه ساعة ثم ينام فسمعه ليلا وقد
ارتفع صوته واحتد على الجارية وهو يقول من يكون هذا الفاعل
الصانع يعني أحمد وأنا خير منه يستخدمني والله لاقوم اليه الساعة
بسيفي هذا فاضرب عنقه والجارية تقبل يديه ورجليه وتتلطف به
وتقول ياسيدي نحن الساعة في عيش طيب وما علينا من ذلك
الرجل وما بالي به فدعنا نشتغل بلذتنا وسقته اقداحا موفرة حتى
غلبه السكر ونام فاشتغلت بشغلها وقد ابعدت عنه السيف فلما
أصبح أنهى صاحب الخبر ذلك وجاء التركي على عادته الى الخدمة
وأكل الناس وانصرفوا فامره بالجلوس حتى لم يبق في المجلس أحد
قال له ألم يك اقطاعك بالعراق كذا وكذا وقد زدتك ههنا اضعافه
قال نعم قال ألم يك قد وفرتك عن التعب والتصرف في البعوث
والتجاريد واقضي حوائجك وحوائج أصحابك قال نعم ثم شرع يعدد
صنائعه عنده واحسانه اليه وهو يعترف وكان تركيا غشيما ساذجا
فقال له ما الذي اقتضى هذا قال فما كان ذنبي اليك حتى تشتمني

وتتفقدنى وسللت السيف وقلت انك تقصدنى به ولقد أحسنت
الينا جاريتك فى كفك عنا وتسكينك فما الذى أوجب منك هذا فتحير
التركى وبهت وعلم انه لا يطلع أحد على حاله ثم رفع رأسه الى السماء
على سلامة منه وقال يارب ملكته البلاد والعباد ووهبت له
الاموال وحكمته علينا وخولته كل ما أراد ونحن وأمثالنا عبيد له
فما كان من هذه الكلمة حتى اوصلتها اليه واطلعته عليها سبحانك
يارب تفعل ما تشاء فضحك أحمد وزال من قلبه وعلم سلامة صدره
وعفا عنه وقال له كان الله أطلعنى على ذلك فقال نعم لانه لم يطلع على
هذا غيره وجاريتى وهذا خروجى من بيتى والمفتاح معى فمن اعلمك
فأمر له بخلعة نفيسة ووصله بمال وأمر لجاريته بثياب وجوهر
وطيب جزاء لها على حسن تأديبها وبعثه مع خادم أوصله اليها ولم
يزل محسنا لها بقية أيامه (وينبغى) أن يكون صاحب الخبر مزاح
العذر فيما يحتاج اليه من الخيل والنفقة والرجال وكانت الفرس
تتخذ الخيل الجياد لذلك والعرب النجب من الجمال وهى أسرع من
الخيل وأصبر على السير وأهل العراق يتغالون فى السعاة وهم رجال
خفاف تعودوا الجرى والصبر على السير اقطع ثلاث مراحل فى
مرحلة وكذلك بمصر وأهل البرارى انشط لذلك وأخف ويضرب
المثل فى ذلك بسليك بن السلكة وكذلك فى الصحابة سلمة بن الاكوع
وقصته مشهورة حين أدرك القوم الذين استاقوا الابل فسبقهم
وجاس على طريقهم وجعل يرميهم ويقول انا ابن الاكوع واليوم
يوم الرضع وأهل الشام يتخذون الحمام لحمل البطائق وذلك اسرع
وابلغ لولا ما يخاف من العوارض عليها من سقوط البطاقة أو بلاها

او

أو اقتناص الطائر أو الكاسر من الخارج له ولاهل العراق به عناية واهتمام (ورأينا كتابا) كتبه محمود بن زنكي الى ولاة بلاده يحث على حفظ المناسيب من الحمام ورعايتها وحمايتها من الاذى والتنبيه على جليل منفعتها وكثرة فائدتها وسمعت عن طائفة من الهند تسكن في غياض وشعارى تجرى فلا تلحق وتصعد الاشجار فتقفز من شجرة الى شجرة وقرأت في بعض الكتب ان طائفة من البربر من قبيلة كزولة فيها رجال خفاف خفاف دقاق السوق خمص البطون يجرى أحدهم خلف الفارس فيلحقه ويركب خلفه من الارض وقيل انهم يعدون خلف الغزلان فيقتنصونها بأيديهم واذا كانت البلاد بحرية فليكن لصاحب الخبر مراكب خفيفة سريعة وأصحاب الجبال والحصون يتخذون المراقب والمشارف والاعلام عليها النيران بالليل والدخان بالنهار والطلائع تحفظها وتقرير الاشارة بينهم بها كل هذا من فعل حزمة الملوك وهذا كله من وظائف صاحب البريد واما الحزمة من الملوك فانهم كانوا اذا سيروا في أشغالهم أحدا سيروا معه آخر كل واحد عينا على رفيقه بحيث لا يشعر ان يحسن سياسة حتى يعتقد كل منهما انه الامين على صاحبه فتوافق الاخبار فتصح أو تتخالف فينظر في أمرها ويجب أن يكون صاحب الخبر له توصل وتلطف ودسائس من النساء والصبيان والغلمان والحراس والحمامات وأصحاب الحرف والصنائع والمستحب أن يكون بين الملك وبين البريد وصاحب الخبر ترجمة لا يطلع عليها غيره ولكل واحد ترجمة مع صاحبه واذا أراد الملك ان يحتاط في ذلك فلا يقنع في الامور العظام بان كتب أو كتب اليه بالترجمة ولا بخط الكاتب ولا بالختم فان هذه

ربما يجبر عليها فاعلها أو يشابه بها بل يكون بينهما علامة لا يطلع عليها غيرهما أمثاله ما قرره أبو مسلم الخراساني مع كاتبه المطالبة المنصورة لما قتله أمر كاتبه ان يكتب عنه كتابا الى نائبه على الجيش ويعلم علامته ويختم بختمه بان تأتى بالثقل والخزائن وتقدم العراق فلما انتهى الكتاب اليه صاح وقال ما هذا كتاب سيدى ابى مسلم وارتحل من وقته الى خراسان وكان قد قرر معه ان يرد كتابه اليه وهو مختوم بنصف الختم واقتراحات الخواطر كثيرة فى ذلك وغيره .

الباب السادس

(فى الحجاب والنقباء والحرس والاعوان)

اعلم أيدك الله انه شبه الحاجب من الملك بالعين من الجسد فهو يرى مصالح المملكة فيدنيها ومضارها فيقصيها وكما ان العين السليمة تجلى وتقوى والسقيمة تداوى فكذلك الحاجب تقوى بصيرته وتهذب اخلاقه وتزاح اعذاره وتملأ عينه بالانعام والاقطاع والاموال وغير ذلك ويطلق اسم الحاجب على شخصين حاجبين أحدهما مع نائب المملكة وهو شاد ديوان الجيوش والآخر فى خدمته ملازما للملك ويسمى أمير جاندار والحاشية والزردخانات ورجالها والعدد والآلات راجعة تحت حكمه فلا يدخل أحد على الملك الا باستئذانه ولا يخرج فى أشغاله سواه وله نواب فيجب أن يكونا عارفين باخلاق الملك وطباعه فلا يدخل عليه الناس عند ضجره وملاله ولا ذوو الهيبة عند خلوته وانبساطه ولا الملهون عند أمره ونهيه ووقاره بل تضع الامور فى مواضعها وبرتب الناس فى مراتبهم ويقرب من يجب تقريبه ويبعد من يجب ابعاده ويكونان حسن

الاعتذار لمن يحجبانه والتلطف لمن يوحشانه والرفق عن ابعد والوعد لمن بطل والمساعدة له في صلة رزقه لله تعالى وان يبذلا جاههما لمن لاجاه له فهي أفضل الصدقة لقول النبي صلى الله عليه وسلم ان أفضل الصدقة ان تعين بجاهك من لاجاه له (وقال) عليه السلام ان لكل شئ زكاة وزكاة الجاه بذله للضعفاء فيجب على هذين الشخصين المساعدة في الله وان يقبل الملك منهما ويسمع شفاعتهما ويقبلها ويضاعف في الاحسان اليهما ويطيب خواطرهما فان نكايات الحجاب أليمة وجناياتهم شديدة وليس في خدم الملوك أصعب منها فان الاحسان والتودد يتولد بحسن سياستهما ورقة طباعهما والشرور تنسب اليهما والاحقاد تتركب بسببهما فكم من محن وحقود كان منشؤها قسوة الحجاب وغلاظتهم ونفورهم وفي ذلك يقول الشاعر

كم ملك تحمد اخلاقه * وترغب الاحرار في خدمته

قد أكثر الحاجب أعداءه * وسلط الذم على دولته

فينبغي للملك أن يبذل الاجتهاد في اختيارهم واختبارهم والتكن فيهم النزاهة والامانة فلا يقبلون الرشا والهدايا فيقربون بها من يجب ابعاده وبالعكس فيفسد نظام مجالس الملك وتتوغر عليه الصدور ويكون فيهم حسن تأن فيحسنون الخطاب والاعتذار ويتلطفون في رد الجواب (وقال) كسرى لحاجبه لاتحجب عني ثلاثة مظلوما ملهوفا أو رسولا أتى من سفر أو صاحب نصيحة ففي منع هؤلاء وتأخيرهم فوات مصالح الدنيا والآخرة ومع هذا لا ينبغي للملك أن يحتجب عن الناس ولا يغلق بابه دونهم فانه منصوب لذلك متصد لقضاء حوائجهم وان عرض له مهم أو مانع ضروري فلينتدب رجالا

من ثقاته نقباء قريبين من الناس يرفعون اليه حوائجهم وشكاويهم
وظلاماتهم (روى) أبو داود في سننه عن أبي مريم قال دخلت على
معاوية فقال ما انعمنا بك يا أبا فلان وهي كلمة تقولها العرب فقال
حديث سمعته أخبرك به سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
من ولاه الله شيأ من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم
وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره قال فجعل رجلا على
حوائج الناس ولم تزل خلفاء بني أمية تفعل ذلك مع المباشرة بانفسها
في بعض الاوقات وكذلك الخلفاء من بني العباس ثم استبد الوزراء
بامورهم والحجاب حسب اختلاف الاحوال وكان الرسم في دخول
الناس الى الخلفاء والملوك اذا جلسوا لذلك ان يفتح بعض الباب
ويستدعى الامثل فالامثل حتى يستقر بهم المجلس ثم يؤذن للجميع
ممن يدخل (وكانت) ملوك الفرس تفرد لكل طائفة يوما تدخل فيه
وقال كسرى لحاجبه قد وليتك بابي وانك عين انظر بها وجنة استنيم
اليها فانظر الى الناس بعيني وانزلهم على مقدار منازلهم عندي
واحسن ابلاغك عنهم وابلاغهم عني وقرب الى الفقير والمظلوم وذا
الحاجة ولا تقدمن متعنتا ولا تضعن شريفا ولا تسهل حجابي على سفلة
أو خسيس الا أن يكون مظلوما ولا ترفعن الى طالبة من ان منعته
حجابي وان اعطيته ازدراني الاعوامرة في ذلك سرا (وقال زياد)
لحاجبه لا تحجب عني خمسة المؤذن فالصلاة لاتؤخر وطارق الليل فانه
في مهم ورسول الثغر فتأخيره خلل والمتظلم فمنعه عن حقه ردىء
العاقبة وصاحب الطعام فان الطعام اذا أعيد فسد (وكان معاوية)
وغيره من أمراء العرب المتمكنين اذا حضر طعامهم شرعت أبوابهم

ودخله

ودخله كل من حضر وقدفه ملوك العجم وقال خالد بن عبد الله القسري اذا أخذت مجلسي فلا تحجب عني أحدا فان الوالي لا يحجب الا عن عي أو ريبة أو بخل

الباب السابع

(في ذكر رسل الملوك وصفاتهم وهداياهم وتحافهم)

في مسند البزار عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أبردتم الى بريدا فأبردوه حسن الاسم حسن الوجه وكتاب الملك لسانه ورسوله ترجمانه وقد شبه المتكلم عن القوم باللسان المترجم عما في النفس يقال فلان لسان القوم فيجب اختياره واختباره وقد قيل رسول المرء دليل عقله فليكن فيه مع ما تقدم من حسن صورته واسمه وشكله من الدين ما لا يميل به مع الهوى ولا يفعل من المناكر ما يزري بصاحبه ومن الامانة والنزاهة بحيث لا يقبل الرشا ولا يستفزه العطاء فيقصر فيما يجب لصاحبه ويبالغ فيما لا ينبغي لمن أرسل اليه وفي ذلك من الوهن ما لا اختفاء به ويكون فيه من العقل والرزانة ما لا يرتاع لتهديدات مرهبة ولا يتغير باطماع مرغبة بل يضع الامور مواضعها ويقابل كل فعل من ذلك بما يليق به (وكانت ملوك) الاول أبدا تبعث رسولين أحدهما صاحب سيف والآخر من أهل الشريعة وقد تعزز بثالث من الكتاب فصاحب الشريعة يقرر ما يسوغ فيها ويدفع ما لا يسوغ وصاحب السيف يرتب ما لا مضرة فيه على الملك ولا جنده ولا حيف ولا مخاطرة والكاتب يحفظ قوانين السياسة ورسوم المكاتبات وأدب المخاطبات وفي هذا الوقت اقتصر على رسولين صاحب سيف وصاحب قلم وفي انفاذ رسول واحد

أمين كفاية سيما اذا كان كافيا في أموره موثوقا بمحبته للدولة ومناصحته فليتخير الله تعالى الملك وليرسله ويكتب معه الكتاب ويكتب له تذكرة بما لا يكون في الكتاب أو بما يحتاج للبيان ويشافهه بذلك ليصح ابلاغه عنه وان كانت فيه أهلية للتفويض سيما مايرد عليه ورد الاجوبة حسبما تقتضيه المصلحة فعل فان الناس تتفاوت اقدارهم واخطارهم ويحذر أن يكون الرسول شارب خمر وان كان فليتركه في ذلك الوقت بالكلية فان الخمر تفضح شاربها وتطلع على مافي نفسه من الاسرار فقد كانت الحزمة من ملوك الفرس تحرم على الرسل شربها وتضرب عليه الاعناق عند المخالفة وكانوا اذا ورد عليهم رسول من الهند أو الترك أو الروم أقاموا له الضيافات والرواتب وبعثوا له بالخمر والمغاني والملاهي فان أجاب الى ذلك طمعوا فيه واطلعوا على جميع اسراره وهان عليهم وان امتنع نبل قدره عندهم وعلم سداده وان كان الرسول من عند بعض الاعداء فينبغي أن يشدد حجابه ولا يؤذن لاحد أن يجتمع به فربما أفسد قلوب أحد من أركان الدولة ورعاياها

(فصل) وينبغي للملك أن يتقدم أمره الى جميع عماله بالبلاد التي تحت حكمه ان يعتنوا بأمر الرسل والقصاد من أطراف البلاد فينزلوا في اماكن تليق بهم ويجري عليهم من النفقات والاطعمة مايرغد به عيشهم وكذلك يقام لهم بوظيفة المراكب حسبما تدعو الحاجة اليه وان نفق لهم دابة عوضوا عنها ويكون ذلك معدا لهم في جميع البلاد التي على أطراف الطرق ومايلزم الطرقات لمثل هذا وان كانت الطرق والمسالك تحتاج الى خفراء كان اجود أن

يسير معهم الخفراء والادلاء واما الحزمة من الملوك فانهم كانوا كما
يسمعون باخبار الرسول انه وصل الى أطراف بلاده فيجهز له جماعة
من الجيش مع أكبر الامراء يتحفظون به ويعنونه ويرتب له
الاقامات والمراكب وجميع ما يحتاج اليه ويوعر به فى الطرقات
ويدار به الطرق البعيدة المعطشة المشقة ولايمكن أحدا من
الاجتماع بهم حتى ينتهى الى الملك فان كان ممن ينبغى للملك الاجتماع
به وان يستقبله بنفسه فعل ذلك وهو على مقدار المرسل وكل رسول
على مقداره ومقدار مرسله ومن الرسل من يعتبر حاله فان لم يمكن
الملك ان يتلقاه بنفسه بعث اليه أحدا من أركان دولته على مقدار
الرسول ومرسله حسبما يليق بحاله فان كان الرسول من صاحب
ثغر او والى حرب جلس واجتمع به لوقته وسمع رسالته فربما كان فيه
مصلحة وفى تأخيره مضرة وان لم يكن كذلك فليترك فى دار الضيافة
ثلاثة أيام ولايمكن أحدا من الاجتماع به ثم يستدعى وقد رتبت دار
الملك فى ذلك اليوم ويجتمع العساكر والجند ويجلس الملك على سرير
الملك فى أحسن ابهة وزى وتصطف السلحدارية حوله بالسيوف
والطبردارية وغيرهم من أرباب السلاح ثم يمد السماط وتأكل
الناس أكل خدمة لا أكل نهمة وتخمة وأركان الدولة جلوس
على قدر مراتبهم وقيام فى الخدمة ويدخل الرسول والحاجب معه
والمهمندارية تتقدمه فاذا وصل بحيث يلمحه الملك يخدم الرسول ثم
يتقدم الى وسط الدار ثم يتقدم الى المكان الذى يليق به لمخاطبة الملك
فيخدم ويقف والحجاب والتراجم حوله فيبلغ سلام مرسله ويخدم
عنه الخدمة اللائقة بهما فيقابل الملك تلك التحية بما يليق بهما من

الجواب بالقيام والخدمة او القيام حسب ما يقتضيه حال المرسل والمرسل اليه ثم يخرج الكتب التي معه فيضعها على وجهه وعينيه ثم يطرحها بين يدي الملك فان أراد الملك اكرام صاحبها فليقم لتناولها ويشير بالخدمة عند فضها وقراءة اسم مرسلها ثم يلبث قليلا حتى يشير اليه الملك بالجلوس فيتأخر ويجلس حيث يجلسه الحاجب او أمير المجلس وهو أحد الحجاب فان سأله الملك عن شيء من أحوال مرسله أجاب عنه بما ليس فيه سر ولا كتمان ويترك ما عنده من المشافهة والاسرار الى مجلس الخلوة ثم يشير الى حاجبه بانصرافه الى دار الضيافة للاستراحة وان كان معه هدية فليخاطب الحاجب عنه الملك ان الملك الفلاني قد بعث هدية يلتمس قبولها فيشير الملك بحضورها وهي محصلة عند اقرب الابواب فتعرض عليه بما فيها من دواب وجوارح وثياب مع ثبت يتضمن ذلك الا الجواري فلا تعرض بل يمضى بها الى دار الحريم بعد استئذانه مع الخدام والقهرمانة تعرض ذلك ولو أورد ناذكر الهدايا والتحف لطال الكتاب ومن أعظمها وأكثرها هدية ملك الهند للمأمون وهدية ملك الروم للمقتدر وتأهب للقائها وزينت البلد والقصور لدخولها وهدية المعز بن باديس للمعز الذي بنى القاهرة وسميت به وتفاصيل ذلك مشروح في كتب التواريخ وقد تتهادى بهدايا يراد بها المعاني وهي ألغاز مثل نوع من السلاح وهو تهديد وما أشبه ذلك

الباب الثامن من القسم الثاني
في صحبة السلطان وشرائطها وما يحمد ويذم من ذلك

فاما الملك فانه كالجبل الشامخ الوعر وفيه الثمار والمياه والوحش والسباع

لعل من ادماء الملك الورقة التي يكتب فيها أصناف الهدية

والسباع فالوصول اليه صعب لصعوبة المرتقى والمقام فيه صعب لما يعرض فيه من الاخطار والسباع وغيرها وقيل زائر السلطان كزائر الليث الكاسر وصحبة السلطان ترفع القدر وتنوه بالذكر وتبلغ الغايات وتجمل الاحوال اذا كانت على السيرة المرضية والا فهي رديئة الشوائب مردية العواقب (قال بعض الفضلاء) اذا قربك السلطان فوازن بين حاجتك اليه وحاجته اليك واجعل رغبتك دونها ولا تشغل بجميع خلواتك معه بأمر نفسك بل بأمر نفسه وانفاسه وذكر ما تدعو الحاجة اليه واعلم بأنك لست بأكثر شغله ولا بك قوام أمره ولا نظام دولته وملكه فانه يرى في كل حال انه يتفضل عليك فلكن اعتقادك هكذا واحذر من طريق العجب والانفة واياك في أوامره ونواهيه من الغفلة (وقال) الحسن بن سهل اذا اتخذك الملك أخا فاتخذه سيدا وان زادك فزده (وقال) على بن عيسى لا تكن صحبتك للملك الا بعد رياضة نفسك على طاعته على المكروه عندك وموافقته فيما خالفك وقدر الامور على هواه دون هواك وكن فطنا اذا ولاك حذرا اذا قربك أمينا اذا ائتمنك تعلمه وكأنك تتعلم منه وتدله وكأنك تستدل به وتشكره ولا تكلفه الشكر لك تتضاءل ان هجرك وترضى وتعتذر ان أبعدك فان وثقت من نفسك بهذه الاخلاق والا فالبعد منه البعد والحذر الحذر (وينبغي) لمن صحب الملك ان لا يضجره بكثرة الدخول عليه الا اذا كان له شغل يقتضي المواظبة واذا دخل اليه لا يكثر المقام عنده ولا يحدث مع أحد في مجلسه كلاما خفيا ولا يمزح ولا يوشوش ولا يومئ وان اضطر الى الحديث فليبدأ أو فليخرج ولا يلح بالنظر اليه

ولا الى غيره بحضرته ولا يجلس بين يديه على كرسي ولا على مطرح الا اذا وضع له بأمر تشريفا له واذا أنعم عليه بشئ يقوم قائما ويخدم كما يليق به وكذلك ان وصفه بجميل أو اثنى عليه أو شكره (وينبغى) لمجالس الملك ان يكون فيه من التواضع وحسن التأني والادب ما يفوق غيره كما ان الملك يفوق غيره ولا ينبغي للجالس والواقف في الخدمة ان يجلس أو يقف الا في الموضع الذي يعلم انه يستدنيه منه ولا يقصيه وان رأى غيره قد سبق اليه فلا يزاحمه الا أن يتأدب الجالس فيؤثره به ويوصله الى حقه فان أخل بشئ من واجبات الادب يمهله أمير المجالس حتى يخرج ثم يعلمه فلا يعود الى ذلك وهذا شغل الحاجب فانه يعرف طبقات الناس ويصلح ما اختل من آدابهم (وقيل) من أراد صحبة الملوك فليدخل كالاعمى وليخرج كالاخرس فهو طريق السلامة * وأما اهل الاقاليم فانهم اختلف أحوالها في الآداب والسلام والخطاب فليكن للملوك أرفعها العلو أقدارهم وقد اصطلح أهل المشرق في هذه المدد القريبة على ان تكون تحية الملك الخدمة والدعاء دون السلام الذي فيه تكليف الرد والجواب ثم ان الخدمة تختلف منها ما هو بالاشارة بالرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع وما زاد عليه فهو السجود ولا يجوز السجود لغير الله تعالى وبعضهم يرى النزول عن الدابة وتعفير الوجه على التراب ولم يكن عند العرب شئ من هذا وانما هي رسوم الاعاجم (وأما ملوك الغرب) فانهم على الرسم الاول في صدر الاسلام من التحية والسلام وكراهة الخضوع والقيام وهذا أمر يختص بالاجناد والرعية وأما أهل العلم والدين والنسك فلا يليق بهم

ذلك بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار ويسلمون على السنة فيرد عليهم الملك أحسن الرد وكذلك كانت تفعل ونجده فى وصاياهم (يحكى) ان المنصور عطس بحضرة مالك بن أنس فأومأت الجند والاعاجم اليه بالخدمة فقال مالك أجيب بسنة الله ورسوله أم بسنة الملوك فقال بل بسنة الله ورسوله فقال يرحمكم الله يا أمير المؤمنين * ومما حكى عن الفتح بن خاقان أنه قال للمتوكل لما عطس يرحمنا الله بك يا أمير المؤمنين فصار ذلك من آداب الخلفاء * وأما الملوك اذا مرت أو ظهرت من مكان بعيد فليقم الناس لهم أدبا وإكراما وقد ورد فى السنة ما يناسب ذلك روى البخارى فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث الى سعد بن معاذ فجاء على حمار فلما دنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوموا الى سيدكم وكذلك يقبل الناس يد الملك عند البيعة وعند تجديد العطايا وعند العفو وعند الوداع وقد كانت الصحابة رضى الله عنهم تفعل ذلك مع النبى عليه الصلاة والسلام وكذلك استمر هذا الرسم مع أكثر الخلفاء فصار التقبيل للاكمام والعتبات على حسب الاقدار * التمس مسلم بن قتيبة تقبيل يد المهدى فقال نصونك عنها ولا نصونها عن غيرك أراد تشريفه بذلك (وسمعت) عن ملوك الترك والخطا أن الداخل عليهم يقبل التراب بين أيديهم ولا يقنع منه بتقبيل البساط بل يترك منه موضع خال لذلك وملوك الهند يتقرب اليهم بتقبيل أسفل أقدامهم وهى عندهم من الرتب والافية تقبيل النعل وملوك الافرنج يجثو على الركب الداخل عليهم ويكشف رأسه ثم يخدم واضعا يديه على صدره مرارا ثم يقف حتى يؤمر بالجلوس وبلغنى عن ملوك وذان صاحب غانة وغيره ان

الداخل عليهم اذا عاينهم يقع على الارض ويتمرغ على رمل هنالك حتى ينتهي الى الملك ولا غرض في تعديد ذلك وانما اتفق سياقة الكلام وانما أكمل الاخلاق وأتم الآداب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وأدب الشريعة المطهرة فانه صلى الله عليه وسلم قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ومحاسن العادات

القسم الثالث

في الامور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته وهو عشرة أبواب

الباب الاول

في هيئة الملك ولباسه وركوبه وجلوسه وانفراده وخصائص تميزه

من كمال خصائص الملك وحاله ان يكون في بيت تقدم ورياسة أو ملك وسياسة فيفي النسب بعض الفخر كما قال بعض شعراء العجم في المعنى

ان أسيافنا العضاب الدوامي * صيرت ملكنا قرين الداوم
واقتسام الاموال من وقت سام * واقتحام الاهوال من وقت حام

وبعضهم اسقط النظر عن ذلك كما قال المتنبي

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي * وبجدي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا * د وعوذ الجاني وغوث الطريد

وفاخر بعض أولاد الحكماء ارسطاطاليس وكان عريق النسب في الملك ولم يكن ارسطاطاليس ذا نسب فيهم فقال الحمد لله الذي ابتدأ نسبي بي وانتهى نسبك اليك * ومن ذلك حسن الصورة وتمام جمال الخلقة فانه من النعم السنية والعطايا الالهية وهو من دلائل جودة الاخلاق وحسن السجايا واليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام اطلبوا الخير عند حسان الوجوه ولم ينقل شئ من صفات الانبياء

عليهم السلام والملوك العظماء المعتدلى الطباع السليمى الاخلاق الاويذكر أن صورهم جميلة وأعضاءهم سليمة تامة * ومن ذلك القوة والبطش والشجاعة فانها من مكملات هيآت الملك قال الله تعالى وزاده بسطة فى العلم والجسم وقد كانت ملوك العجم فى زمن افريدون الى آخر زمانهم توصف ملوكهم بتمام الخلقة وعظم القوة والبطش وكانوا يصورون وقائعهم التى يفتخرون بها فى هياكلهم وجدران منازلهم تخليد الذكرهم * ومن ذلك قصة بهرام جور فى أخذه حلة الملك والتاج من بين يدى الاسدين وسيأتى سياقة ذلك فى باب الحروب وماجرى له مع خاقان الاكبر ملك الترك (وقد اعتبر) أهل العلم فى باب الامامة ان يكون تام الاعضاء سليم الحاسة ومن ذلك ان يكون جهير الصوت فخم الكلام فهو أوقع فى النفوس وأهيب ومن ذلك حسن العبارة والفصاحة فى لغته فالعى والحصر عيب وخجل فان كان ذلك فليترجم عنه من يقوم مقامه (وينبغى) ان يكون فيه من الفطنة والذكاء مايسرع الى فهمه الاشارات والحركات والتعريضات حتى يفهم كلام المتصنع ويعرف اشارة المتكلف ولا بأس ان يغضى فى بعض الاوقات ويظهر كانه مارأى ماجرى ولاسمع ماطرا لمصلحة الوقت وهو التغابى المحمود العاقبة (قال معاويه)

ليس الغبى بسيد فى قومه * لكن سيد قومه المتغابى

(فصل) وأما لباس الملك فليكن من أفخر اللباس مما تبيحه الشريعة وينسب لابسه الى الشهامة وليس له حد فيرجع اليه ولانوع يقع الاختيار عليه الا بالنسبة والاضافة الى العادات فان تميز الملك بنوع من اللباس أو بلون من الالوان فمن الادب أن لايلبس أحد ذلك

بحضرته * نقل عن معاوية كان اذا ركب فى موكبه وعليه رداء أزرق
أو أخضر لم يبق أحد عليه ذلك اللون الا غير رداءه سوى البياض فانه
عامة لباسهم وكان الحجاج اذا لبس قلنسوة لم يدخل عليه بقلنسوة أحد
ولم تزل الخلفاء والملوك تختص بنوع من الزى لا يشاركون فيه فملوك
تركب بالجتر على رأسها وهى التى يسمونها عصير المظلة ويجلسون تحتها
على التخت وكذلك الخلفاء وملوك تجلس على الكراسى وملوك
تجلس على نطع أو مصلى لميلهم الى التواضع وأما المواكب فمنهم من
يركب بالسنجق وراءه وملوك المغرب يركبون بمصحف عثمان رضى الله
عنه فى قبة على ناقة أمامهم وعلم أبيض ويلبسون برنسا بيتة بحيث
لا يلبسه غيرهم وما كان فى جميع بلادهم وما ثم زى ولا موكب ولا جيش
أحسن ولا أظرف ولا أجول من جيش الاسلام بمصر والشام من
أول دولة الاتراك والى هلم * ومن خصائص الملوك ادامة الدعاء لهم
فى الخطب بالجوامع والاعياد والمواسم بعد حمد الله والصلاة على
رسول الله صلى الله عليه وسلم والترضى عن الصحابة والدعاء لامام
العصر ثم بعده لملك ذلك العصر وبعده ذكر من ينوب عنه على حسب
ما يراه * ومن ذلك اتخاذ عصائب وأعلام خواص فى لونها وصفتها
ولا ينشر مثلها على رأس غيره والغرض من ذلك التمييز لا غير ولم تزل
الملوك على هذا الرسم * وكانت للنبى صلى الله عليه وسلم راية من صوف
أسود وكانت له راية سوداء تسمى العقاب وهذه يروى انها ركزت
على جبل دمشق على الثنية فسميت بها وهى ثنية العقاب وكان له
عليه السلام الوية بيض وكانت أعلام بنى أمية حمر وكل من دعا الى
الدولة العلوية فعلمه أبيض ومن دعا الى بنى العباس فعلمه أسود

وكذلك

وكذلك الخلفاء والملوك وملوك السلجوقية والمتقدمون يركبون بالجتر على رؤسهم وهو كالقبة الصغيرة مرتفع في الهواء على رمح يحمله من يسير قريب الملك بحيث يظله من الشمس ويكون من الديباج والحرير المذهب *ومن الرسوم السلطانية نقش اسم الملك والخليفة على الدينار والدرهم ويكره ان ينقش عليه كلمة التوحيد وهي لا اله الا الله محمد رسول الله خشية من ان يقع في المراحيض وتحت الدوس والاوحال الوسخة وكانت ملوك الفرس والروم تنقش صورة الملك في الوجه الواحد والوجه الآخر فيه كلام بخطهم وهو اسمه وتاريخه والفرس أيضا تصور صورة زرادشت وبعضهم صورة غيره والنصارى والفرنج يصورون الصور وينقشون الصليب وأول من ضرب السكة العربية عبد الملك بن مروان في سنة ثلاث وسبعين وكتب على الدرهم سورة الاخلاص وكانت المعاملة بالدراهم الكسروية والرومية والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعطى الذهب والفضة للوفود وغيرهم وزنا بالاوقية وكذلك التبايع ومهور النساء

(فصل) ولما كان وجود الملك من المصالح الكلية وانتظام الامور وصلاح الجمهور كذلك في فقده من المضار مثل ذلك ولهذا كانت الملوك تعهد في حال صحتها الى من يقوم بالامر بعدها حرصا على دوام الانتظام وقطع أمل الاعداء من الطمع فيجب ان يكون الملك كثير الاحتراز على نفسه في يقظته ونومه وحركته وسكونه ويستوثق من الحرس والاعوان فان النبي صلى الله عليه وسلم مع جلالة قدره حرس عليه يوم بدر حين نام في العريش سعد بن معاذ وحرسه ذكوان بن عبد قيس وحرسه باحد محمد بن مسلمة الانصاري

وحرسه يوم الخندق الزبير بن العوام وحرسه سعد بن ابى وقاص وحرسه بخيبر أبو أيوب الانصارى وحرسه بلال بوادى القرى فلما نزل عليه يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ترك الحرس (ولا ينبغى) للملك ان يتنكر ويمشى فى المواضع المجهولة فربما اغتاله من عرفه وآذاه من جهله كما جرى فى قصة سابور ذى الاكتاف حين خرج متنكرا الى بلاد الروم فى زى الفقراء فعرفت صورته وقبض عليه والقصة طويلة مشهورة (و ينبغى) ان يحترز من الدخول الى بلاد العدو اما بانفراده أو بجماعة يسيرة على ظن انه يطلع على الاحوال ولا يشعر به فكم قد أعقب ذلك من الندم ما لا يستدرك فارطه ومن نظر فى تواريخ المتقدمين رأى عجباه و يجب ان يحترز فى طعامه وشرابه ان لا يباشره الا من يوثق به و يتناول منه قبله وكذلك فى الطب واللباس والعسول والادوية والفصد والحجامة والمراكب والمشموم وغير ذلك وكل ذلك اذا كان مسموما فله علامات فيه وأنواع من المضرات فان الملوك قد تكايد بمثل هذا (ويحكى) ان بعض ملوك الهند بعث الى الاسكندر بهدية جليلة فى جملتها جارية فائقة الجمال رائعة الحسن فعرض الاسكندر ذلك على ارسطاطاليس لسعادته فتفرس فى الجارية انها مسمومة وكانت قد غذيت بالسم من الصغر على التدريج وربيت على ما يلائمه حتى صارت فى طبع الافاعى فكرهه الاسكندر منها ودفعها الى من استحق القتل فلما جامعها واختلط عرقها بجسمه أورثه حكة و بثرا وتهرأ جسمه فمات فينبغى للملك ان يتخذ عنده ما يدل على السموم ان حضرت فى الاطعمة وغيرها وما يبطلها أو

ينقص قواها قبل تأثيرها وما يدفع مضرتها بعد تناولها * قال بعض الحكماء ان الطاوس اذا نظر الى طعام مسموم أو شم رائحته صاح فان قرب اليه زاد فى الصياح وقال ان الببغا اذا مر بها من معه سم صاحت واضطربت كالمحذرة منه والقرد اذا شم رائحة السم احمرت عيناه وهرب من ذلك الموضع وربما قرب اليه كثيرا فقفاه واليشم اذا على على الطعام المسموم عرق فيجب ان يتخذ بعض هذه الحيوانات فى مجالس الملوك ومنازلها وكذلك استعمال أوانى اليشم والتختم به وبالزمرد واتخاذ نصب السكاكين من اليشم والملاعق وحجر الحية الذى يجلب من بلاد الصين فانه يظهر عليه عرق اذا قرب من الشئ المسموم * ويجب أن لا يفارق الدرياق والحجر البادزهر فان طرأ امر لم يطل الامر فى احضارهما وأما من سقى بشئ من السموم المعدنية أو النباتية أو الحيوانية فعلاجاتها مشروحة فى كتب الطب فلا يليق اطالة الكتاب به ههنا

(فصل) وان مرض الملك أو شرب دواء مسهلا أو افتصد واذن للعواد فى عيادته فلا ينبغى ان يستوصف حاله ولا يقال كيف أصبح ولا كيف أمسى وانما يقتصر على الدعاء وانما يباشر ذلك ويبحث عنه خواصه والاطباء ولا يفارقه الطبيب ليلا ولا نهارا ليعرف أوقات تنقلات الامراض وحركات البحران فيستدل على التحقيق للامراض وصحة العلاج بتحقيق المرض

الباب الثانى

(فى آداب خواص الملك معه فى جميع أحواله وبطانته)

لما كانت هذه الطائفة أقرب الناس الى الملك وجب ان يكونوا

أكثر الناس ملاءمة لطباعه ومن المائلين الى اغراضه ليكونوا معه في محل تقريب وهو معهم في سرور وأنس ويحسن ان يكونوا ذوى صور جميلة وألفاظ عذبة واشارات لطيفة وفهم حاضر وذكاء وافر ولتكن بزتهم فاخرة ويستعملون الطيب ما أمكن ويلتزم كل واحد بخدمته ويواظب عليها في نوبته ولكن عليهم مقدمون تجمع أمرهم وتصلح حالهم ويرعون حالهم ويكون الخدام متناوبين على الخدمة لأن لا يقع التقصير في وقت من الاوقات ولا بأس بانبساط الملك مع خواصه ليقع الانس وتألفهم على محبته ومناصحته (قال) المأمون نحن أمناء على رعيتنا وخدمنا آمناء علينا فلا ينبغي ان يكون في قلوبهم غش ولا حقد ولا ضغن فانهم يقدرون على النكايات العظام من النكبات وكذلك أصحاب الملك والمتعلقين به يجب ان يحترزوا من ضغائن البطانة فانهم يتوصلون في الخير والشر ما لا يتوصل غيرهم (يحكى) ان بعض الملوك كان له وزير متمكن منه متصرف في الدولة والمملكة وأن بعض المماليك الخواص رأى بيد الوزير منطقة من ذهب مجوهرة حسنة الصنعة فاعجبته فطلبها منه فقال ما تصلح لك فالح عليه فلم يدفعها له وانتهره فخرج وهو مغضب وقال لرفيق له لا كيدن هذا الوزير ولاجهدن في أمره فقال له رفيقه ما عسى ان تصنع فقال له اذا كان وقت نوبتنا عند الملك وغمض عينيه قبل ان ينام فقل لى ما الذى كنت تقول عن الوزير وأمرتنى بكتمانه من غير ان أفهمه فاقول رأيت منه ما أذهلنى وذلك انى رأيته منذ ليال وقد خرج من عند الملك وتبعته فزاغ من الطريق وحده الى ناحية باب الحرم وخرجت اليه جارية فحدثت معه

طويلا

طو يلا ولست أعلم ما وراء ذلك ثم انصرفا ففعلا ذلك والملك يسمع
وهو كأنه نائم فلما أصبح تغير على الوزير وانقبض عنه وزاد تغيره حتى
طلب غيره واستكفى الملك به وعزله ولا يعلم هو ولا غيره سبب ذلك فلما
كان بعد أيام مر به ذلك الغلام ورفيقه معه فقال له أيها الوزير لمن
تصلح المنطقة ان فعل بك هذا أو لمن يردك الى ما كنت عليه فعلم انه
قد دهى من جهته فتضرع اليه وبعث بالمنطقة وبهدايا معها
وتحف فقال له رفيقه ويحك كيف تصنع فقال اذا كان وقت نوبتنا
فى خدمة الملك وتغميز أقدامه فقل لى يا أخى ما خدمة الملوك الا عظيمة
الخطر قبل ان يستغرق الملك فى النوم فقال له الغلام مثل ما قال له
فقال يا اخى هو كما ذكرت وكلها كثيرة المعاطب واذا كان الانسان
على خطر كان عيشه نكدا فلو كان أحدنا لبعض السوقة أو العوام
وغضب عليه ترضاه فرضى أو طلب منه البيع فباعه انتقل الى غيره
واستراح ألا ترى الى وزير سيدى الملك مع جودته ومناصحته وشفقته
كيف غضب عليه وأبعده وصار طريدا مهانا ولعل هذا يا أخى
تأويل المنام الذى حكيته لك من ليال فلما سمع الملك جلس وقال
ويلك أعد ما تقول الست القائل كذا وكذا قال نعم يا سيدى رأيت
ذلك فى النوم فحكيته لاخى فعلم الملك ان ذلك كان منه على غير تثبيت
ولا تحقيق فشرع فى ازالة الوحشة بينه وبين الوزير ثم لم يمض أيام
قلائل حتى أعاده الى ما كان عليه وهذه الحكاية وان تعلقت
بالمماليك الا انها تتعلق بالخاصة كانوا مماليك أو غير مماليك (ونظير)
هذا ما يحكى ان الافشين لما ظفر ببابك الخرمى وحمله أسيرا الى
المعتصم بعد الحروب الشديدة والمصافات المديدة عظم شانه عند

المعتصم وكبر محله ولم يبق له نظير في الدولة وكان يتهاون بالقاضي أحمد
ابن دواد وبمحمد بن عبد الملك الزيات وكانا خصيصين بالمعتصم فاعملا
الفكر في أمره وكان له صديق يعرف بمحمد بن ابراهيم الطاهري
وكان بينه وبين الزيات مؤانسة فالتمس له ووعده ان يوليه فارس
والاهواز ويرفع عند المعتصم قدره على ان يتلطف في ايحاش
الافشين من المعتصم فدخل محمد الطاهري يوما على الافشين وأظهر
له الاغتمام والكآبة فسأله عن شأنه فكتمه فألح عليه فتحلج فاستحلفه
ان يكتم ذلك وقال ان المعتصم قد تغير عليك وأخذ في التدبير
على قبضك فقال الافشين هذا باطل لاني عليه عظيم البركة وقد فتحت
له الفتوح وأرحته من بابك ولم يظهر مني سوء قط فكيف يكون هذا
فقال له قد بحثت لك بما في نفسي وسيظهر لك عن قليل فكثر فكر
الافشين واغتم لذلك واتفق ان دخل على المعتصم يوما فرآه ضجرا
متبرما لبعض أحواله فظن ان ذلك بسببه فقدر على نفسه وتحرز في
منزله واستظهر بحرسه واحتفظ بابوابه فبلغ المعتصم ذلك فانكره
ثم قال له ابن أبي دواد يا أمير المؤمنين أنت منا بمنزلة الروح من الجسد
وهذه الاعاجم تدخل عليك وأنت في ثوبك وتقرب منك وبايديها
السيوف ومعها الخناجر ولا مضرة في الاحتراز فقال له ما الخلافة
أهيب مما تظن الا انه أثر الكلام في قلب المعتصم وتوحش من
الافشين ولم يزل كل واحد منهما يدبر على الآخر حتى ظفر المعتصم
بكتب للافشين الى يكعور والى أذربيجان في التدبير عليه فبادر الى
الافشين وقبض عليه وقتله وكان سبب ذلك السعي الخفي والتنميم
فينبغي للملك ان يتثبت فيما ينقل اليه ويحقق صدق النقل ولا يعجل

وما أشبه هذا بحديث كليلة ودمنة

الباب الثالث

(فى آداب الاولاد والاقارب وحسن السيرة معهم)

يتعين على الملك ان يجتهد فى ان يكون له ولد صالح يخلفه فى ملكه ويبقى ذكره من بعده * قال النبى عليه الصلاة والسلام اذا مات الرجل انقطع عمله الامن ثلاث صدقة جارية أوعلم ينتفع به أو ولد صالح يدعوله أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ثم لا ينبغى للملك ان تكون رغبته فى تكثيرهم بل فى تجويدهم فاول ما ينبغى له ان ينتخب الامهات ذوات الاصالة والصباحة والملاحة والسلامة فى الاعضاء والحواس وجودة الاخلاق وكرائم الطباع وليختر لذلك زمن الربيع وفى الاسحار وعند السرور والنشاط والانبساط فاذا جاءه الولد أحسن تسميته واختار له المراضع لتعتدل طباعه وتتكامل هيئته ثم اذا ترعرع يعلمه الخط والقراءة ويهذب لسانه على الفصاحة ويوكل بتربيته من يثق بامانته وشفقته ثم يعلمه الركوب والفروسية والرمى والطعان وجميع ما يحتاج اليه أهل الحرب * وكان بعض الملوك يرى ان يربى ولده فى التعب والشقاء وربما يسفره لتهذب أخلاقه وطباعه ويمرن على التعب والنصب فاذا وجد الراحة عرف قدرها وأشفق على أهل الشقاء وفيه فائدة أخرى وذلك انه ان طرأ عليه طارئ من التعب وما أشبهه وجد الولد عنده من الصبر والاستعداد له ما لا يؤثر ذلك عنده * ولما ولد للملك يزدجرد ولده بهرام جور دفعه للنعمان بن المنذر ملك العرب ليكون فى حضانته فاختار له المراضع والدايات وعلمه الفروسية والمطاردات ولما بلغ وحذق وبرع فى

بجميع آداب الملوك مات والده وولي بعض أقاربه لكراهة الناس في والده فجمع النعمان جموع العرب وسار الى بلاد الفرس حتى خلص له الملك وأجلسه على سريره والقصة مشهورة (وينبغي) للولد أن يكون مع الوالد كالعبد مع السيد يسابق الى خدمته ويبادر الى اجابة دعوته ولا يهجم عليه في وقت خلوته ولا يخاطب أحدا في مجلسه ولا يحدق النظر اليه ولا يرفع صوته عليه ويتتبع اغراضه ويقتفي آثاره ويأتمر بامره وينتهي بزجره ولا يتصرف في الامور الا باذنه ويتلطف في بره ولا يلح عليه في الحاجات ولا يزاحمه في باب العطاء والاطلاق الا ان يكون قد نديه لذلك ولا يشفع في عدو ولا مسخوط الا بعد الاذن في ذلك أو بعد ان تلوح له اشارات الرضا واذا رأى الملك فيه النجابة والكفاية فليقلده ويكل الاشغال اليه بتدرب ويتمرن حتى اذا صار الامر اليه يكون قد خبر وجرب وان كان فيه تقصير فيعزله ولا يوليه فيختل أمره بسببه (وقال) أهل السياسة لا شيء أضر على الملوك من تمكين الاولاد والاقارب من بلوغ الاغراض ونيل المطالب مع نقصان التدبير وضعف التمييز فانه يؤدي الى خلل عظيم فأما من كان من الاولاد والاقارب ممن فيه نجابة ورأى الملك ان يفوض الى أحدهم ولاية العهد فليكن بعد فكرة تامة واختيار ومشورة ثم اذا عزم على ذلك فليكتب كتاب العهد ويشهد فيه أهل المشورة ثم ان شاء كتمه وأوصاهم بكتمانه وأودع الكتاب حيث يثق وان شاء أظهر ذلك ومكن ولي العهد من التصرف والعطاء والاقطاع ولم يستصوب رأى العقلاء غير أحد هذين القسمين والا ندم فانه ان أظهر له الولاية وحجر عليه التصرف وضيق

عليه

عليه استطال حياة أبيه وتمنى فقده فيجب الحزم في مبادى الامور وقد كان بعض أهل السياسات يرى ترك ذلك (ويجب) على الملك ان يضبط أقاربه وأهله ولا يمكنهم من الامر فان لهم ادلالا على الممالك تورط في المهالك فيفوض الامور الى الكفاة منهم ويكف من خاف منه نوعا من أنواع التعدي مع ارغاد عيشهم والتوسعة عليهم

الباب الرابع
(في أمر الحرم وسياستهن)

قيل ان الملوك تعفوا عن كل شيء الا عن ثلاثة القدح في الملك وافشاء الاسرار والتعرض الى الحرم والملك على الحقيقة هو راعي الحرم والدافع عنها بأسرها فلتكن حمايته لحرمه أشد وأبلغ ولتكن حميته وغيرته أتم وأكمل وكانت الحزمة من الملوك لا يكثرون من عدد النساء بل يختزن ويستجودن واتخاذ العدد الكثير منهن بعيد عن الانصاف سريع الى ظهور الخلل فيهن والتلاف* قال الله تعالى ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم *وقد كان بعض الملوك يرى خلاف هذا الرأي فيكثر في العدد حتى بلغت عدتهن عند بعض الاكاسرة ستة آلاف واحدة وكانت لجماعة من خلفاء بني العباس الالف وما جاوزها وكذلك لجماعة من ملوك بني سامان وللامير تميم صاحب افريقية عدد كثير قيل انه عمر حتى رأى من نسله ألف ولد ذكورا واناثا أكثرهم لصلبه ومنهم أولاد أولاده وهذه افراطات تنافي الاعتدال وتخرج عن المصلحة وينبغي ان لا يكثر الجلوس مع النساء ولا يطيل الحديث معهن فان فيه من التحليل للقوة التمييزية والغضبية كثيرا يظهر أثره وانما ينبغي ان يكون عند كلال الجسد

وملال الخاطر فى وسط النهار وبعض الليل والمختار منهن ما شرف
جنسه وحسن منظره وكمل أدبه (وقد) صنف الناس فى اصناف
النساء واختيار الجوارى من الكتب ما ان شرح زيادة عن قدر
الحاجة طال الكتاب وانما أذكر شيأ على سبيل الاجمال * قيل من أراد
النجابة فبنات فارس ومن أراد الخدمة فبنات قيصر ومن أراد اللذة
فبنات بربر والمولدات (وقيل) الوجوه فى الترك والاجسام فى الروم
والشعور بالخطا وفارس والعيون بالحجاز والصور بالصين (وقيل)
تختار الترك للاولاد والروم للخدمة والمولدات للذة والاستمتاع
والغناء لان طباعهن أعدل وأصواتهن أندى والزنج للزمر والبراع
لان فى طبعهن صحة الايقاع وأكثر السودان كذلك والحبش للحفظ
وخزن المال والنوبة للطبخ والارمن للتربية والرضاع وقد كان فى
الرسم الاول ظهور الجوارى غير السرارى وتصرفهن فى الخدمة
بارزات غير متستترات مثل الاستئذان عليهم والوقوف بين أيديهم
للترويح ومناولة ما تدعو الحاجة اليه من طعام وشراب ثم اتخذ
لذلك الخصيان ليتناولوا ذلك من النساء ويحضر وعند الرجال ثم
اتخذ بعد ذلك الصغار من المماليك (وأما) السماع فكانت الملوك
المتقدمون والخلفاء الذين يسمعون الغناء يحضرون الندماء فى
مجالسهم والجوارى يغنين من وراء الستائر وكانت هذه منهم خلة
غير مرضية لكن يستحب لمن يحضر مجالس الملوك اذ لك أو لغيره
ان يكون فيه من العفة والنزاهة والثبات ما يحمد عاقبته والا فهو
على خطر (يحكى) ان بعض الملوك جاءته هدية سنية فيها أثواب فاخرة
وحلى وجوهر نفيس وعنده جارية له حظية فخيرها الملك بين الثياب

أو الحلي فتحيرت ونظرت الى الوزير وهو بين يديه كالمستشيرة له فغمزها
على أخذ الحلي وجاءت من الملك التفاتة اليهما فرآهما فأخذت
الثياب حتى لا يفطن لها وأقام الوزير مدة عشرة أعوام يكسر على
عينه كلما دخل على الملك حتى اعتقد الملك ان تلك عادة والوقائع
في هذا المعنى كثيرة والكتب بذلك مشحونة * ولما اجتمع محمد الباقر
رضي الله عنه بالحجاج وجادله وقهره أحضر له جارية جميلة وفرسا
رائعا سابقا وألف دينار وقال له اختر من هذه الثلاثة واحدا
فتفكر في نفسه وقال اخترت الفرس فغمزته الجارية تريد أن
ينقذها من الحجاج فأنشد محمد الباقر يقول

لصلصلة اللجام برأس طرف * أحب الي مما تغمزيني
أخاف لأن يرى شيء ضيق * فيمنعك الردى أن تلحقيني

فقال الحجاج كأنك غمزتيه يا خبيثة خذها فلا خير فيها فركب الفرس
وأردف الجارية فكأنه طار في الهواء أو غاص في الارض لان
الحجاج طلبه عقيب ذلك فلم يوجد * فينبغي للملك ان يفرد لكل جارية
مكانا ويجعل اقربهن اليه أقلهن غيرة عليه فان الافراط في الغيرة
يحمل على المكاره فيحترز من اطلاع بعضهن على مكانة بعض بل
يظهر لكل واحدة انها أحظى الجميع (ويروى) في الصحاح عن
عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه
ويعدل ويقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك
يعني القلب * ويروى من غير الصحاح انه عليه السلام أعطى لكل
واحدة تفاحة سرا وأمرها ان تكتم ذلك عن صواحبها ثم قالت له
عائشة بجمع منهن أي نسائك أحب اليك يا رسول الله فقال صاحبة

التفاحة فسر ذلك جميعهن ولم يشعرن * وحق على الملك ان لا يتعرض
الى حرم جيشه ورعيته فانه اذا اشتغل بذلك مع القدرة لم يمتنع عليه
شيء فيكون قد أساء المملكة وضيع حق السياسة فتوغر عليه
الصدور وينفر عنه الجمهور * ويجب أن يكون غيورا على حرم
رعيته زائد الحد ولا سيما خواصه واذا اطلع على خلل من ذلك أزاله
(يحكى) ان عضد الدولة بن بويه كان ينام في منظرة له ببغداد مشرفة
على البلد فسمع في بعض الليالي صوت البرادة نصف الليل ليلة بعد
أخرى فبعث خادماً له لكشف الحال وقال في نفسه ليس هذا وقت الماء
المبرد وربما أن يكون هذا علامة بين أحد وصاحبه ورصد ذلك
فأحضر الخادم وأخبره ان شاباً من الغلمان الخاصة يتسور كل وقت
الى منزل شيخ من التجار وله زوجة حسنة جعلت الامارة بينهما حس
البرادة فأحضره واستقره فأقر وضربه وسجنه حتى شفع فيه
فأخرجه وزوجه بجارية له وأنفذ الى الشيخ التاجر ان لك على حق
الجيرة واستأهتك لك حرمة ولكن استبدل زوجتك بمن تقنع بك
فدعا له وشكره وفعل ما أمره به فهذه من مكارم الاخلاق ومحاسن
الشيم (ونظير) هذه ما جرى في زماننا انه بلغني عن الجيبا النائب بغزة
كان ذات ليلة في سطح دار السلطنة بالقلعة في الدولة المصرية في
سنة خمس وسبعمائة وهو سهران اذ سمع نصف الليل حس امرأة
تصيح فعلم الموضع الذي سمع منه الحس الى ثاني يوم فلما أصبح أحضر
المقدمين وأصحاب الارباع وطلع الى السطح وأراهم المكان فعرفوه
فقال أريد المرأة التي كانت تصيح نصف الليل وجزم فتلطفوا في
السؤال فوجدوا أن صبياناً من البلد هجموا على امرأة جميلة حرة

يغضبون لها على نفسها فادركها الخفراء فانهزموا ولم ينالوا قصدا وكفوا ذلك ان يطالعوه به فألزمهم باحضار المرأة والصبيان وعمل مع الصبيان السياسة ونفاهم واحسن الى المرأة وزوجها والوقائع فى مثل هذا كثيرة

الباب الخامس

(فى سيرة الملك مع مماليكه والخدم وتفضيلهم)

المماليك جمال وحرس فى الحضر وخدم وأعوان فى السفر يخرج منهم ما لا يخرج من الاولاد والاقارب ويحصل منهم من الشفقة والاعانة ما لا يحصل من رفيق ولا صاحب سيما من اعتدلت اخلاقه وكملت آدابه وأرى من حسن التعهد وجميل الرفق ما يزرع فى قلبه المحبة حتى انه يؤثر سيده بالحياة على نفسه (بلغنى) أن أحمد بن طولون نزل عن فرسه فى بعض متصيداته لاراقة الماء فنهشه ثعبان فى ابهام رجله فسقط الى الارض فبادر اليه مملوك له فقطع الخف بالسكين عن اصبعه وأدخلها فى فمه وجعل يمص موضع النهشة ويتفل مرارا الى أن أحضر واله الدرياق فشرب جميعا وقدر الله سلامتهما فما عسى أن تكون قيمة هذا المملوك وبم يجازى (ونظير) هذه ما تواتر عن نجاح الشرابى عند الامام الناصر انهما كانا على سطح عال وهما صغيران فسقط الناصر من أعلاه فرمى نجاح نفسه على اثره وقال لا حاجة لى فى الحياة من بعده فقدر الله سلامتهما وتداويا فأفاقا وافضت الخلافة اليه وملكه ففوض أموره اليه وأجلسه فى أعلى المراتب ولقبه بالملك الرحيم * وقال نصر بن نوح السامانى اتخذوا المماليك واحسنوا تربيتهم فهم أولاد يريدون حياة والدهم (وقال)

التسلط على المماليك من عجز المقدرة والكلام القبيح من لؤم النفس وانما يجب الرفق بهم والاحسان اليهم والتوسعة فى نفقتهم واطعامهم مما تأكلون والنهى عن ضرب الوجه وعن المثلة فى العقوبة كل ذلك وردت به الشريعة المطهرة واقتضته المكارم الجميلة والاخلاق الرضية * وأما اختيار الاجناس وانتخاب الاصناف فذلك شرح يطول به الكتاب وبالجملة فان الشجاعة فى الترك والثقة فى الروم والخدمة أيضا والوفاء والحنو فى الجركس والالفة أيضا والخيانة فى الارمن والامانة فى الحبش والغدر فى الكرج * ويجب على الملك ان لا يعجل على المماليك الصغار باشراكهم فى الملك وتقديمهم للامور الجسام بل على التدريج فان الغالب على هممهم القصور وربما بهرتهم الولايات الجسيمة فدهشوا وربما غرتهم فبطروا فيجب الاحتياط والتأنى فى ذلك ولا يمكنوا من الشفاعات والعنايات فكثيرا ما طرأ الخلل على الدول بهذه الاسباب لان الناس اذا علموا قربهم من الملك وقضاء الحوائج على أيديهم مع صغر سنهم وقلة تجربتهم يحسنون لهم القبيح ويقبحون لهم الحسن فيوقرون سمع الملك بما لا ينبغى ويبلغونه ما لا يصلح وتجرى الامور على ذلك فتختل الاحوال وتفسد واذا ظهر فى بعض المماليك نجابة وفضل رأى وحسن تدبير وصحة عقل فليقربه الملك ويرتبه فيما يليق به كما شرطنا فى التدريج وليظهر لمن حسده من المماليك أن تقديمه بالشهامة والنجابة التى فيه ليقع التنافس فى أسباب التقدم لا فى نفس التقدم (كما يحكى) عن بهرام جوبين وكان من آحاد الغلمان فتقلبت به أحوال النجابة والتقدمات الى ان صار

من كبار الملوك وكذلك في الدولة العباسية عظم شان جماعة من المماليك مثل الافشين ومونس الخادم وابن طغج وتنامش وتودون وايا ذا المسعودي وكانو رواؤا وصاحب الموصل ومن قبله قراقوش الناصري وذلك انه لما ركب الله فيهم من السر الالهي والعناية الربانية ملكهم بلاده وعباده وجعلهم حضنة بيته وخدام حرمه وناصرة دين رسوله محمد صلى الله عليه وسلم محافظين على كتابه وسنته منفذين أحكام شريعته ملازمين على طاعته وخصصهم بخصائص نالوا بها الحظ الاوفى فتقربوا بها اليه زلفى ومنهم المماليك الصالحية النجمية مثل الملك المعز ايبك واقطاى والملك المظفر قطز وكسره للعدو المخذول على عين جالوت وفتحه الشام جميعه وأخذه من أيدي التتار عسكر هلاكو والملك الظاهر بيبرس وفتحه قلاع الاسماعيلية والحصون الفرنجية وخوضه الفرات وكسره التتار مرتين ودخوله الروم وقيسارية وكسره للمغل الخواص على البلستين وما انفرد به من الاجر المذخور في ابطاله المنكر واراقة الخمور وسيرته المرضية وأيامه المضية والمولى الشهيد السلطان المأجور الملك المنصور قلاوون تغمده الله برحمته قد كسر على حمص منكوتمر وجيوشه وهم مائة ألف أو يزيدون وفتح المرقب وطرابلس وابطل المظلمة المتعبة زكاة الدولبة التي تسترق الاحرار وتخلد محدثها في الدرك الاسفل من النار وخلف ولديه ذوي الهمم العالية والغزوات المشهورة المتوالية فالملك الاشرف الذي فتح عكا وصور وقبلهما عثليث ثم صيدا وبيروت والساحل جميعه وقلعة الروم وبهسنا وحرمته الثاقبة والملك الناصر وكسره التتار على مرج الصفر وكانوا

عدة لا يوصف ومددا لا يعرف وبعدهما المماليك المنصورية الملوك الكسروية فمنهم الملك العادل كتبغا والملك المنصور لاجين وملك العصر والزمان صاحب الامن والايمان الليث الغضنفر الملك المظفر بيبرس ركن الدنيا والدين سيد الملوك والسلاطين واسطة عقدها وكوكب سعدها أدام الله أيامه ونشر فى الخافقين أعلامه واما النجباء او الامراء من المماليك المنصورية فمثل طرنطاى والشجاعى وبيدرا وايبك الخزندار وقراسنقر والابوبكرى وبيبرس الدوادار وقطز وبكتوت العلائى وبكتمر امير جاندار وبكتوت الفتاح وسنقر الكمالى وايبك البغدادى وبرلغى ونائب السلطنة سلار واقش الافرم وقبجق والخاصكية والبرجية وهممهم العلية ولو شرحناهم اسماء لطال الكتاب والله الموفق للصواب وما زال السر الالهى متحركا فى تنقلات الاحوال وتغيرات الاوضاع فى استمرار المسير على قوم والشر على قوم فيعلو مستفل ويحط عال ويكمن ظاهر ويظهر كامن (قيل) لبعضهم لم زالت دولتكم عنكم قال لانها زالت من غيرنا فانتقلت الينا وكما قلنا انه ينبغى للملك أن يرفع من كان نازلا من المماليك الى ما يليق به من الرتب على التدريج فكذا ينبغى ان يحط من العلو من كان مقصرا عما هو بصدده حتى ينتهى الى ما يليق به فهكذا وضع الدنيا وما فيها * وينبغى للملك أن يحسن الى من ظهرت نجابته من العبيد كما فعل أحمد بن طولون فانه الذى جمع العبيد السود واحسن اليهم ووسع فى نفقاتهم حتى انه بنى لهم مساكن الى جانب الفسطاط وجامعا وهو الى الآن والمساكن الى جانبه بقدر المدينة وكان يزوجهم ويكسوهم ويعتق أولادهم وانتفع بهم فى حربه (ويحكى) انه قدم من سفر فاهدت

له أخته عشرة جوار مليات محليات فاستحسنهن ووهب الى اخته عشرة عبيد من سودانه وقال لاخته ابو ديجارب عبي وغلمانك أحب الي من هؤلاء واما الخدام فيختار منهم من ظهرت صحته وشرفت أخلاقه في غيرته وحسنت آدابه فيقدم على الممالك وكان بعض الحزمة من الملوك يمنع الخدام الكبار من الدخول الى الحرم ولاسيما ذوو الجمال والصلف منهم ويجب على الملك الحازم ان يكثر تفقده لاحوال مماليكه وخدمه وعبيده ويرتب لهم من يتولى تاديبهم ويباشر تعليمهم الادب والحفظ وحسن التصرف فانهم أقرب الناس الى الملك فيكونون أقرب الناس الى طباعه واختياراته وأبعدهم عما يسوءه وليكن فيهم من البر وحسن التصرف واللقاء والادب ما يحسن موقعه من خواص الملك وتنشرح به صدورهم فان كان الامر بالعكس أوحش الخاصة وأوغر صدورها ونفرها وظنت ان ذلك من الملك فسكنت الاحقاد في قلوبها وفي هذا كثير من المضرات التي لا يستدرك فارطها

الباب السادس

(في طعام الملك والادب فيه)

قال الله تعالى ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا والآيات والاخبار التي وردت في فضل الطعام واطعامه والحث عليه كثيرة جدا لانه أشرف أصناف البر وأنفع أنواع الجود لما فيه من قوام الابدان ومادة الانسان قلما بذله أحد الا وساد وزاد وقال من الداوين المراد ولله در العرب به عناية عظيمة حتى ان أكثر مفاخرها راجعة اليه وأكثر أشعارهم في الاضياف واكرامهم والبشر بهم وانزالهم

وفى وصف النيران ووقودها لدلالتهم والذبائح لطعمتهم ولهم حق الدخيل والنزيل وحماية الجار وهذا فن بلغت العرب فيه الغاية القصوى ويقال ان بعضهم كان يطرح فى البرية اللحوم الكثيرة اقرى السباع والطير وبعضهم يترك الحب والزاد لذلك المعنى حتى قيل رحلنا وخلينا على الارض زادنا * وللطير فى زاد الكرام نصيب وكم وقع التشاجر والحرب على الضيف والانفراد به والملوك أحق ببذل الطعام من كل أحد لانهم عليه أقدر وكان السلف من الملوك يتفاوتون فيه فبعضهم يأكل مع الناس وبعضهم يحضر ولا يأكل وبعضهم يأمر بنصب الموائد ولا يحضرها وبعضهم يفرد لكل طائفة مائدة وطعاما يليق بهم على حسب طبقاتهم فطائفة يعجبهم الثريد واللبن ولا يؤثرون عليه غيره والترك وأهل البدو يأكلون اللحم المسلوق والمشوى واللبن والشوربات القمح لا يعجبهم سواه وكانت ملوك الفرس تفعل ذلك واطباع الملوك مختلفة فمنهم من يبخل بالطعام ومنهم من يسمح به وينقل ذلك عن معاوية بن أبى سفيان وسليمان ابن عبد الملك وغيرهما من بنى أمية وعن الامين والمستكفى من بنى العباس مع ان الامين وهب المجلس بما فيه غير مرة وكان يصعب عليه أكل الطعام ويكره من ينبسط فيه وكان بعض ملوك الفرس يصنع كل يوم خمسمائة مائدة على كل مائدة نصف شاة اما طبيخ واما شواء وجام حلوى أو عسل وعشرة أرغفة وآنية من شراب أو لبن وسمكة مصنوعة ونقل ان الحجاج جرى على هذا الترتيب مدة من ولايته يوضع على مائدته وخوانه فى كل يوم ألف حوت وفى زمان بنى أيوب كان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب دمشق خوان

وراتبه في كل يوم خمسمائة رأس غنم والدجاج لا يعبر عنه وتوابل ذلك وينبغي للملك أن يفتح بابه ويشرع سرادقاته عند حضور الطعام قال الشاعر

واذا أتاه طعامه لغدائه * رفعت له الاستار والابواب
وتهاتف الغلمان في جيرانه * فتسامع المعتر والمنتاب

ويستحب أن يكون على سماط الملوك سائر أصناف الاطعمة ويتفقد الحاشية كبرية أحوال الطعام وكلما خلا مكان من طعام يكمله ويرفع النوائل لارباب الاشغال على قدر طبقاتهم وينبغي لمن يأكل على طعام الملك ان لا يشره فانه أكل خدمة لا أكل نهمة بشرط أن يلزم الادب في المؤاكلة والجلوس على الركب وغض الطرف والاكل مما يليه ولا يدسم الخبز وان دسم شيأ أكله ولا يستدعي ما بعد عنه ولا يمسح يديه في الخوان ولا في البقل ولا يغسل يديه بحضرة الملك واذا أراد ذلك فليبعد ويستحب احضار الكيزان بالماء في السماط خشية من الشرقة

الباب السابع

(في سماع تلاوة القرآن والمنادمة والمسامرة)

لا بد للملك من ندماء ومسامرين وهم له بمنزلة الاوداء والاصدقاء الا انه لشرف الملك وجلالة حاله يكونون له كالعبيد ومنفعتهم له كمنفعة الصديق لانهم يذهبون وحشته وملاله ويجلبون انسه ونشاطه وهو كثير الحاجة الى ذلك لانه يحمل من اعباء الملك واثقال السياسة وورود الاخبار المختلفة والامور المضطربة ما يضجره ويسئمه وبمنادمته فوادح تبهره وتقلقه فاذا

جالسيهم خففوا عنه ما يجده وحكوا له من أخبار المتقدمين فى ذلك
الفن الذى عرض له ما يكسبه تجربة ويحدث له تسلية أو يخفف عنه
ثقلا فيعود اليه انسه ونشاطه فيستقيم عند ذلك خاطره وتعتدل
آراؤه فليكن فى الندماء من يعرف أخبار المتقدمين وسير الماضين
فيأتى بالاشياء فى مواضعها ويشغل الوقت بما يليق به وليكن فيهم من
له نكت ونوادر وأجوبة حاضرة وفطنة وذكاء يضحك بنوادره
ويشرح الصدور بغرائبه وليكن فيهم صاحب روايات واشعار وفنون
من البلاغة والبراعة واما أصحاب المساخر والمضاحك والحاكون
والملهون فتلك طبقة أخرى لا ينبغى للملوك أن تجالسها ولا تجاورها
الا فى الشاذ النادر فى بعض الاوقات والخلوات وينبغى للندماء ان
لا يتجاوزوا ماهم بصدده فلا يدخلون فى الشفاعات وتقديم القصص
والحديث فى أمور المملكة والتعرض لاحد من أرباب الدولة الا لمن
أذن له الملك فى ذلك فيكون قد رفع طبقته ومن تبسط هو بنفسه
وشرع فى أمور الملك فيصده الملك عن ذلك ويشير الى أمير مجلس بكفه
ويأمر الندماء بالاقتصار على ماهم عليه فان عقولهم واقدارهم تصغر
عن ذلك فى أمر المملكة وأضر ما على الملك أن يشتهر عنه انه يسمع
من حاشيته وبطانته الكلام فى أمرائه وأركان دولته فان الناس اذا
علموا ذلك اقبلوا عليهم بالاكرام والهدايا والتحف فيميلون آراءهم الى
اغراضهم فيصفون بالكفاية من كان عاجزا وبالشجاعة من كان
جبانا وما أشبه ذلك ويكررون ذلك على سمع الملك فيعمل بحسبه
فيقدم من يجب تأخيره ويؤخر من يجب تقديمه ويستكفى فى العمل من
ليس بكفء فتختل أحوال الدولة ويفسد نظامها ولا يشعر به وانما

يشتغل كل بما يليق به لان كل فن لا يعرفه الا الماهر فيه الخبير بفنونه
(أوصى) ابراهيم النديم ولده فقال له اعلم يابنى ان مجالس الملك لا تخلو
من تحاسد وتضاغن ويجرى بين الجلساء التشاجر فاذا تكلمت بشئ
واعترض معترض ذو شنآن فاذا أصاب فاعترف له بالحق يحمدك
الملك وتنقص من عداوته وان هو اخطأ فرد عليه برفق واستدل
لكلامك واقنع بظهور حجتك وصحة قولك عند من حضر ولا تظهر
التشفى والتبكيت فانه لا يسر الملك ذلك اذ ليس عنده ما عندكما من
تحاسد وانما هو كالبحر تبتدئ منه الانهار وتعود اليه وان سئل غيرك
فلا تجب انت ولو اخطأ المسؤل فيما سئل عنه فان سألك فاجب وان
امكنك ان تعتذر عن خطا صاحبك فافعل وان لم يكن لك فيه علم
فاياك من الدخول فيما لا تعلم ومن حق الندماء على الملوك اطراح
التكلف وترك الابهة التى تتعلق بالملك والمساواة فى المطعم والمشرب
والمسمع وكان بعض الخلفاء يحتجب عن الندماء ويجلس خلف ستارة
أو شباك مخرم يراهم ويسمعهم ولا يسمعونه وبعضهم يظهر لهم
وبعضهم ساواهم وواساهم فكانوا فى الشتاء يجلسون فى المجالس
وبها منا قد النار ويبخر فيها العود والند وعليهم الفراء اللائقة
بالوقت على اشكالهم وفى الصيف فى القاعات والبساتين والفساقى
على سمت كل أوان والملك دائما يتميز عليهم بملبوسه وتاجه ثم يرش عليهم
الماورد ويتناشدون الاشعار ويتذاكرون الاخبار فاذا كان وقت
النوم والاستراحة دخل الملك الى منزله وقام الندماء الى مكان معد
لهم أو ينصرفون الى منازلهم ولا ينبغى لهم أن يجتمعوا ابعده بغيره
ويجب على الملك فى غالب الاوقات ان يفرغ نفسه ويقبل على سماع

تلاوة الكتاب العزيز والاصغاء اليه وتدبر الآيات واستفهام معانيها ولكن عند من مقرؤن لذلك عالمون بنص تفسيره حتى لو ان اى آية اشكلت فسروها له وعرفوه ذوقها ثم يجب عليه البحث فى ذلك والسؤال حتى يفهم ثم يجب عليه وعلى الحاضرين اذا قرئ القرآن ان ينصتوا له ولا يشتغلوا بغيره قال تعالى واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون

الباب الثامن

(فى مجلس السماع وراحة النفس واختيار ذلك)

السماع من أشرف الراحات وانفع اللذات واجلها موقعا اذا استعمل على الوجه المرضى الذى ينبغى من جميع ملاذ الدنيا التى هى عائدة الى المطعم والمشرب والمنكح والمشم والمنظر والملبس والمسمع فهذه السبعة قانون راحة البدن فاما الستة الاولى فأى شئ حصل منها استعماله زائدا تكاثرت له الاعضاء وحصل الملل الا السماع المطرب فانه لا كلفة فيه على الجسد ولا مضرة تحدث بسببه وكانت حكماء الهند واليونان والفرس يجعلون الموسيقى واستماعه من باب الجد لما فيه من تهذيب النفوس وتقويم الخواطر وتصحيح الفكر وتعديل الامزجة والجذب الى الاخلاق الحميدة والانقياد الى السنن الصحيحة فان منه ما يشجع الجبان ونوع منه يلين القاسى ويقود العاصى وأنواع تؤلف بين المتباغضين وتذهب التشاحن بين المتشاجرين وأنواع تسر الحزين وتخفف كرب ذى الانين حتى انهم كانوا يستعملونها فى الهياكل وبيوت العبادات وتلحن بها القراآت والمشهور عن داود النبى عليه السلام انه كان اذا تنغم

في مزامـيره ورجع صوته تصطف الطير على رأسه في الهواء وتـكاد
ان تتساقط عليـه طربا من حسن صوته وترنمـه وكانت له معزفـة
يضرب بها (وللهند) خاصة في هذا الفن علو عظيم يتخذونه في بيوت
عباداتهـم ويتقربون به الى هياكلهم وأصنامهم واذا خرجوا الى
صيد الفيلة والسباع العادية يخرجون معهـم المعازف والملاهي
ويتخذون ستائر من الشجر والورق ويمشونها امامهم والمعازف
خلفـها والفـيلة تقرب اليها حتى تقـع في مصايدها ويزعمون في
تأليفهـم ان للالحان اللـذيذة والبخورات خواص في جـذب
الروحانيات واتخـذت الروم الارغن في الكنائس والفرس الزمزمة
عـلى الموائد وعنـد القـرابين وهي بالحان مطربة وأهـل الطب
يصفون الموسيقى لامراض النفوس والرؤس وكان جالينوس
يستعمل العود في امراض المالنخوليا والفكر الرديئة بقصـد
بذلك رد مزاج الدماغ الى الاعتدال وموقع الالحان للنفوس كموقع
الاغـذية اللـذيذة للابدان وتأثيره في الاطفال واصغائهم اليـه
وقطعها البكاء واشتغالها عن الامهات دليل على قوة تأثيره وكذلك
الابل وحملها الاثقال وقطعها المسافات على نغم الحـداء مع الكلال
وكذلك أكثر الحيوانات وكل من عانى من الناس عملا متعبا مثـل
القطاع والقصار والدقاق والعتال ومن يجر الاثقال فـلابد له من
نوع من التنغيم والموسيقى يستعين به على ما يعاني والاعجز واوتألموا
فأما المباح منه والمنهي عنـه فللفقهاء فيه اختلاف فمذهب الامام
الشافعي رضي الله عنـه يباح الدف واليراع وهي الشبابة ومذهب
مالك يباح الدف في العرس ويندب اليه ويكفي عنده الاشهار

بضربه فى ذلك و يكره الدف واليراع عند أحمد بن حنبل ومذهب
أبى حنيفة كراهة ذلك جميعه وروى عنه تحريم الغناء على
الاطلاق أيضا ومذهب أهل الظاهر كداود الاصفهانى وطائفة
من أئمة السلف يبيحون الدف والشبابة والاوتار جميعها ويحتجون
فى ذلك بانه لم يرد فى القرآن العزيز ولا فى الخبر الصحيح نص يدل على
تحريمها ولهم فى الاحاديث التى رويت فى تحريم ذلك وكراهته
مطاعن يطول شرحها وا كثر الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس
كانوا يشترون الجوارى المغنيات ويحضرونهن مجالسهم بانواع
الملاهى والسماع لا يرون بذلك بأسا وقد كان لعبد الله بن جعفر
جارية بعشرة آلاف دينار وهى التى دس عليه يزيد بن معاوية من
يحتال فى شرائها منه ففعل وحملها من المدينة الى دمشق فوجد يزيد
قد مات فاعادها الى سيدها عبد الله بن جعفر والقصة مشهورة
(وقد) اشتهرت اشعار يزيد بن عبد الملك فى سلامة وحبابة وهما
مغنيتان ولما ماتت حبابة أسف عليها ولم يدفنها أياما ومات بعدها
بقليل أسفا وحزنا ولو أوردنا ذكر من جلس فى السماع واشتغل
بالغناء لاحتاج الى تاريخ كبير يتضمن ذلك من ذكر الملوك والخلفاء
والرؤساء ثم لو أردنا ذكر من كره ذلك وامتنع منه لكان عددا يسيرا
وطالما غالى الملوك والخلفاء فى اثمان القينات وبذلوا فيهن نفائس
الاموال منهن من بلغت مائة ألف دينار مثل قوت القلوب جارية
هرون الرشيد وفريدة جارية المتوكل ومنهن من زادت على العشرة
آلاف دينار مثل عريب المأمونية ودنانير البرمكية وقبيحة
جارية المتوكل وهذا المعنى مستوعب فى الكتب المصنفة فى هذا

قوله قبيحة من باب أسماء الاضداد فانها كانت جميلة جدا اه مصحح

الفن

الفن

(فصل) في أدب السماع لا ينبغي ان يشتغل في وقت السماع بأكل ولا بشرب ولا بحديث الا الكلمة والكلمتين في معنى ما هم فيه فانه غذاء نفساني يتشوش بالاشتغال بغيره ولقد أجاد بعضهم حيث تمنى ان يسمع بجميع جوارحه فقال

يود اذا ان اعضا جسمه * اذا أنشدت شوقا اليها مسامع

(وقال آخر)

جاءت بوجه كأنه قمر * على قوام كأنه غصن
غنت فلم يبق في جارحة * الا تمنت لو انها أذن

ولابن القيسراني في وصف مطرب وصف مغن

تالله لو أنصف الاقوام أنفسهم * اعطوك ما ادخروا منها وما صانوا
ما أنت حين تغني في مجالسهم * الا نسيم الصبا والقوم اغصان

(وللسري الرفاء في راقص)

اذا اختلجت أنامله لرقص * ترى حب القلوب اليه تزوى
حبيبي أنت أحسن من تثنى * على وتر وأحسن من تلوى

(ولمؤلفه في راقصة)

اذا هزت معاطفها لرقص * وحركت الانامل والنهودا
ومالت والتوت دلا وظرفا * ورنحت الشمائل والقدودا
وأشرق وجهها واحمر خدا * قطفنا من تضرجه ورودا
ومذ عرقت تساقط منه در * نظمنا من نفائسه عقودا
وهب نسيم خطرتها فاهدى * الى عشاقها مسكا وعودا
فتاة تخجل الاغصان قدا * وغزلان النقا طرفا وجيدا

رمت بقسى حاجبها البنا * نبالا فتتت منا الكبودا
وقد نصبت لنا من مقلتيها * شراكا تسترق بها عبيدا
فيالله من عجب عجيب * رأينا ظبية صادت أسودا

(ولبعضهم فى دقاقة)

لما تبدت بين اترابها * مطربة عيل بها صبرى
شبهتها والدف فى كفها * شمس الضحى تلعب بالبدر

(ولغيره فى عوادة)

وكأن فى حجرها استرضعا * طفلا بين ترائب ولبان
طورا تدغدغ بطنه فاذا هفا * عركت له أذنا من الآذان

(ومما نقش على العود)

سقى الله أرضا أنبتت عودك الذى
زكت منه اعراق وطابت مغارس
تغنى عليه الطير والعود أخضر
وغنى عليه الناس والعود يابس

(وفى وصف ضربه)

فى كف جارية كأن بنانها * من فضة قد قمعت عنابا
وكأن يمناها اذا نطقت بها * ألقت على يدها الشمال حسابا

وهذا باب كثرت فيه التصانيف وانبسطت فيه الخواطر وانما ذكرنا هذا القدر على سياقة الكلام

الباب التاسع

(فى الرياضة واللعب بالكرة والمطاردة)

اللعب بالكرة هو رياضة حسنة تامة وصفتها الحكماء والفضلاء من

الملوك رياضة الجسد ورياضة الخيل واللعب بالكرة والجوكان واستعمالهما بالغدوات من أتم الرياضات وأكملها وأنفعها الا ان من الرياضات ما يختص بالكفوف والسواعد مثل الشباك وتناول الطابة أيضا وما يختص بالرجل مثل المشى والسعى ومنها ما يختص بانواع البدن مثل الصراع وحمل الاثقال وهذه تعم البدن جميعه وهو يحرك لها حركات مختلفة والبصر يتبعها والرأس يلتفت اليها والاصوات والضجات ترتفع فيها والخيل ترتاض وتلين وفيها الجولان والكر والفر وفيها تحريك القوة الغضبية لما فيها من طلب المغالبة وأما نفع الرياضة بالجملة فظاهر معلوم لما جعل الله فى الابدان من الاخلاط المتغايرة المتغالبة التى موادها من الاغذية المختلفة وجعل لكل شئ منها مقرا يأوى اليه فضلاته وهيأ له من المنافذ والمجارى ليخرج من الجسد ما لا حاجة به اليه وكان السكون موجبا لتقرير الاخلاط حيث حلت من الجسد ودواعى الزيادة والنقص موجب ذلك اما تعفنها واستحالتها الى ما يؤدى لخروجه عن الاعتدال واما غلبة أحد الاخلاط على غيرها وتأثيرها واضطراب حال الجسد وخروجه عن حالة الصحة وكانت الحركة توجب التحليل والتنفيذ وتعين الطبيعة على أفعالها وتحفظ الصحة على دوامها فاقتضت الحكمة استعمال الحركة الرياضية فاتخذ لكل نوع من الناس نوع من الرياضة وهذه رياضة ملوكية وفيها فوائد كثيرة منها التدرب على ركوب أصناف الخيل والانتقال والخفة والرشاقة ومنها السرور والفرح بالظفر والاستيلاء مع مباشرة التألم من العجز والغلبة فانه بذلك يعرف مقدار لذة الغلبة ومنها التعود الاجتماع

والتدرب ومساعدة الاصحاب لبعضهم والتعاضد للاولياء وتعاونهما على الخصوم والاعداء (يحكى) ان المعتصم قسم اصحابه للعب الكرة يوما فجعل الافشين فى جهة وهو فى جهة فقال يعفينى أمير المؤمنين من هذا فقال ولم قال لانى ما أرى أن أكون على أمير المؤمنين فى جد ولا هزل فاستحسن ذلك منه وجعله فى حزبه وكل رياضة مليحة لما فيها من الحركات وما شرحناه أولا ولكن يخشى من الوقوع والتقنطر والسقوط والعثار والمصادمة واصابة الجوكان والكرة وغير ذلك مما لا يمكن الاحتراز عنه غالبا ويجب ان لا يفرط فيها ولا يطول فى اشتغالها بل يكون عند ابتداء او اكر النهار والعشيات عند خلو المعدة من الاكل وتقطع عند ابتداء العرق والنفس المتتابع وان أمكن الدخول بعدها الحمام لاخراج ما تحلل من الفضلات وازالة ما خرج من العرق بتلك الحركة فحسن ثم بعد الحمام يتناول من الشراب الموافق لمزاجه ثم التغذى بعد ذلك وأما من يتعاناه فى زماننا هذا فى وقت القائلة من الظهر الى العصر فضر بالفارس والفرس ويتولد منه أنواع المضار المختلفة فليكن على قدر العوائد وما مرنت عليه البشرية

(فصل) وأما الشطرنج فندخله فى هذا الباب لكونه وضع لصفة الحرب ولما فيه من قصد المغالبة وهو ينهض القوة الغضبية وهو من وضع الهند واقتباساتهم مثال فى سياسة الملك وتدبير الحرب ويشيرون الى ان بالتدبير والفكر فى المصلحة ينال الظفر ويدفع الضرر والفرس وضعت النرد على الجبت والرزق يشيرون الى أن الامور بالتقدير لا بالتدبير وبالعادة لا بالارادة فاما ما يتعلق

بالشرع فالنرد محرم باجماع والشطرنج مختلف فيه والاظهر فى مذهب الشافعى اباحته اذلم يثبت فيه نص ونقل أن الصحابة كانت تلعب به كعبد الله بن جعفر وغيره

(فصل) والذى ينبغى لمن يلعب بالشطرنج ان لا يحلف عليها بصدق ولا بكذب ويترك المراء ويجتنب المكابرة فانه لعب لا ينبغى ان يوصل به الى الحسد والغضب ولا يراهن عليه لانه حرام وفيه مواد الحقود فان كان لا يتفق ذلك فيتوصل اليه بطريق الهبة او النذر وامكن على المأكول والاشياء اليسيرة دون الاموال فانه قمار وهو ردىء غير محمود لا شرعا ولا عقلا ومن لعب مع الملك أو مع من هو من العظماء فليصبر حتى يبتدئ هو باختيار أحد الصنفين ثم يصبر حتى يبتدئ باللعب ويحترز ان يمثل عليها بالامثال القبيحة والاشعار السخيفة فكثيرا ما يجرى مثل ذلك من العاب ولا يقال للملك غلبت ولا قهرت ولا شاه مات وانما يقال شاه بالبيت أو شاه ويسكت واذا فرغ من اللعب فلا يطرح الشطرنج فى وسط الرقعة بل يبقى مكانه حتى يشرع فى صفة واذا حضرت بحضرة من يلعب فلا تبيد لاحدهما على الآخر ولا تشر اليه فيشتغل صاحبه ويشنؤك الخصم (ويحكى) ان أميرين جلسا بحضرة عضد الدولة يلعبان بالشطرنج فاشار الى أحدهما بعلمه على الآخر وهما متراهنان فقال لصاحبه غلبتنى يا فلان قال وكيف ذلك قال لان الملك عضد الدولة يديدب لك على ومن كان عليه فانه مغلوب لا محالة فدعى أزيح التعب فاعجب بادبه وسكت عنه فاتفق أنه غلب كما قال فوفى عنه عضد الدولة ولعلى بن جهم فى وصف الشطرنج

أرض مربعة حمراء من أدم * ما بين جيشين مصفوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبها * من غير أن يأثما فيه بسفك دم
هـذا يكر على هذا وذاك على * هـذا يكر وعين الحرب لم تنم
فانظر إلى فطن جاشت بفكرهما * بعسكرين بلا طبل ولا علم

ولابن بكرى فيها

إنما اعجبك بالشطـ * ـرنج يا صاح رياضه
فاهجر الهجر لديها * لا تردنو ما حماضه
وتجنب صاحب الجهـ * ـل ومن فيه غضاضه
لا تجالس غير ندب * زانه العقل وراضه

وأحسن ما سمعته من الشيخ رشيد الدين الفارقي رحمه الله بيتاه فردا في كيفية لعبها وأنه من حفظه وعمل به لم يغلب وهو

حقق مقاصد كل نقل واتهى * عنه ولاحظ ما على الشاهين

الباب العاشر

في الصيد والقنص وصفات الجوارح والكواسر وأمراضها وعلاجاتها

قال الله تعالى وإذا حللتم فاصطادوا وقال عز من قائل وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه وفي الحديث الصحيح عن عدي بن حاتم قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت إنا قوم نصيد بهذه الكلاب فقال إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك وإن قتلن إلا أن يأكل الكلب فإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه وإن خالطها كلاب غيرها فلا تأكل

فانما سميت على كلبك ولم تسم على غيره * وفى الترمذى عن محمد بن حاتم قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن صيد البازى فقال ما أمسك عليك فكل * وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم قال قلت انى أرمى بالمعراض فأصيب فقال عليه السلام اذا رميت بالمعراض فخزق فكله وان أصابه بعرضه فلا تأكله في الشرح ان المعراض سهم كبير لاريش عليه والعصا فى معناه * وفى صحيح مسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رميت سهمك فاذكر اسم الله فان وجدته قد قتل فكل الا ان تجده قد وقع فى ماء فانك لا تدرى الماء قتله أو سهمك

(فصل فيما يباح ومالا يباح ومايكره) روى البخارى عن أنس قال انفجنا أرنبا بمر الظهران فسعوا عليها حتى تعبوا فسعيت عليها حتى أخذتها فجئت بها الى أبى طلحة فبعث الى النبى صلى الله عليه وسلم بفخذها و وركها فقبله * وفى سنن أبى داود عن ابن عمر قال جىء بها الى النبى صلى الله عليه وسلم فلم يأكلها ولم ينه عنها وقيل انها تحيض وفى سنن أبى داود والنسائى عن خزيمة بن جزء قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن أكل الضبع فقال أو يأكل الضبع أحد * وعن يزيد بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال أكلنا مع النبى صلى الله عليه وسلم لحم حبارى * وفى الصحاح عن ابن عباس قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذى ناب من السباع وعن كل ذى مخلب من الطير * وفى البخارى والنسائى عن أسماء بنت أبى بكر قالت ذبحنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة فأكلناه * وفى النسائى عن خالد بن الوليد انه سمع رسول الله صلى الله

عليه وسلم لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير والاول أصح وان صح هذا فهو منسوخ بالاول وفى الصحاح كثير من ذلك وفيما أوردناه كفاية

(فصل) والصيد نزهة الملوك وقناعة الصعلوك أما الملوك فانها تتدرب على الفروسية وتمرن على الصبر فى السفر والجوع والعطش وتقوى على شدة التعب وتسر بحلاوة الظفر ومن كانت قوته الغضبية خاملة تحركت أو ناقصة تكملت فان أرباب السياسة يحتاجون الى تعهد القوة الغضبية حتى يستقيم الامر وأما الصعلوك فيخرج من منزله وقد ترك أطفاله جياعا يتصارخون الى الصحراء بكلابه فيرجع وقد حصل اهم ما يقوتهم ولعله يحصل أكثر من ذلك وفيه من النشاط والانبساط وحسن التصرف فى ركوب الخيل ورياضة البدن على التعب ما لا يخفى ولا ينبغى ان يواظب على ذلك ولا يكثر منه ولا يفسد بسببه الزرع قال الله تعالى ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها قيل هو اتلاف الزرع والاكثار منه ليس بمحمود وكثيرا ما يتأتى فيه الخطأ والسقوط والجراح وغيرها والتوسط فى ذلك خير من الافراط ولا ينبغى ان يتوغل فى طلب الصيد فى أرض لم يخبرها فربما كانت فيها مسايل أو أودية أو موحل أو مهالك وكذلك لا يدخل الاجمة ومواضع السباع ولا يجرى بفرسه على الجندل وبالجملة لا يغرر بنفسه ولا يصطاد فى أرض العدو ومواضع يخاف فيها المكامن وكثير من الملوك ظفر بهم العدو فى الصيد واذا تدبرت هذا الامر تجد أكثر ما دخل الدخيل على الملوك فى الصيد وتمكنت فى قلوبهم الاحقاد الكامنة مثل أمر قطز والملك الاشرف وغيرهما وما جرى لبهرام جور

ملك الفرس مع جودة فروسيته كان كثير الغرام بالصيد وفيه هلاك وذلك انه تبع حمار وحش فغاب عنه فى ضباب وأطلق فرسه خلفه فوقع فى سبخة غاص فيها بفرسه وهلك ولم يقدر على اخراج جثته الا بتعب شديد (ويحكى) عن بعض ملوك السلجوقية انه عمل حلقة على الصيد فجمع فيها كل صنف من الاصناف وضيقها وضغطها فجعلت تلهث من شدة الحر والعطش وألم الجراح فرفعت رؤسها الى السماء وصاحت كالمستغيثة صياحا منكرا بأصوات مختلفة فأصاب الملك القولنج فسقط عن فرسه لوقته فانحل الجمع لاشتغال الناس به وشردت الوحوش منطلقة فى البرية ثم أفاق الملك

(فصل فى ذكر الصيد وصفة الجوارح من الطير والكواسر من الفهود والكلاب) فأما أهل التجارب فيذكرون ان اتخاذ الفهد مبارك مسعود وان البركة تظهر من حين دخوله الى منزل صاحبه وهو حيوان فيه صلف يحتاج الى مداراة ويضره الحر الشديد والبرد الشديد والموضع الندى وعلامة الجيد منه ما صغر سنه واتسع صدره وصغر رأسه وطال عنقه واتسعت عيناه واستدارت وأهل الشرق يختارون ما ضاقت عينه ويزعمون انه أبصر ويختار فيه دقة الخصر ولطف الكف واعتدال القد وبعد ما بين الاذنين والفهد الصغير السن علامته ان تكون أسنانه بيضاء حادة والهرم تكون أسنانه صفراء كالة وفى الفهود الابيض والاصفر والاحمر فالابيض والاصفر أحسنها وأطيبها خلقا والاحمر شرس الخلق دعر والانثى أخف والطف للصيد والذكر لا يكاد يصطاد الا طلقين أو ثلاثة والانثى ربما تصيد عشرة اطلاق والفهد الجبلى ينبغى ان يطرح فى مكانه

حجارة وحصى لتتألف اليها ويعتاد وكذلك السهلي يجعل له التراب والرمل لذلك * وأما الكلاب ففي طبعها الوفاء والمحافظة وكلاب الصيد أبلغ في ذلك وهي أصناف كثيرة وصفة الجيد في السلوقية ان يكون صغير الرأس قصير العنق عظيم المقلتين ناتئ الجبهة عريضها غليظ المشفر قصير الساقين طويل الرجلين عريض الظهر دقيق الخصر في ظهره طول وفي ركبتيه انحناء والانثى كلما لطفت كانت أجود والذكر كلما كبر كان أجري وقد يوجد في بعض الكلاب بما على احد ساقيه مخلب أو عليهما وذلك من العلامات الجيدة في الصيد والفراهة وينبغي ان يقطع منها كلما طال لكيلا يجرحه وسود الكلاب أقره وزرقها أبصر والسلوقية الذكور تعيش أكثر من الاناث واذا هزم الكلب اطعم السمن فانه يقويه وينشطه واذا حفي مسح يداه ورجلاه بالقطران ويدهن تحت أذنيه وذنبه وأفخاذه بالسمن فيزول عنه العياء والتعب ومما قيل في وصف الفهد والكلب

كأن الريح حين يلوح سرب * اعارته معالجة الهبوب
يغير فيجعل النائي قريبا * ويسلب مهجة الظبي الربيب
يلاحظ منه حين يجول جسم * تدرع جانباه حبب القلوب

(وفي صفة وجه الفهد)

وجه كأن البدر طالعه * أهدى له تدويره وكماله
وجفاته منقوشة فكأنما * ألقى عليه كل خد خاله

(وفي جودة صيده)

يشد على الطريدة ثم يهوى * فليس يرى به الا التماطا
فيدركها مداعبة كأن قد * تضمن كفه القدر المباطا

(وفي صفة كلاب الصيد)

شمرذلات واسعات الاشداق * سود الزلاليم وشهل الاحداق
غلب مهاريب طوال الاعناق * قب شواظ شرسات الاخلاق
يلثمن ترب الارض لثم المشتاق * كأنهن يستمحن الارزاق
للوحش من سلطانهن افواق * لا عاصم منها ولا منها واق

(فصل في ذكر الجوارح)

أصول الجوارح من الطير أربعة البازو الشاهين والعقاب والصقر وتحت كل جنس منها أنواع تتناسبها في الفعل والطبع والحركات فمن أنواع البزاة السنقر والطغرل والبازالتام والبازالنيم والبازالزرف والباشق فاجودها الطغرل وهو عزيز الوجود ومواضعه بلاد الخزر وبلاد خوارزم واطراف أرمينية وجبالها وهو شديد القوة خفيف في الطيران صيده صيد البازو الشاهين ينقض على طير الماء فان يشقه والا علاثم انحط عليه فيضربه ضربة تصرعه ومخالبه مسموم ان جرح شيئا لا يكاد يبرأ ولذلك ينبغي لحامله ان يحتاط على يده بالدستبانات القوية من الجلود والابود وقيل يليه السنقر وهو طير عزيز الوجود وقيل قيمته ألف دينار وأكثر ما يكون بجزائر الفرنج وسكانه في شعاري جبالها ويعده البازالتام وأجوده الاشهب وقد سمي ملك الجوارح لكثرة مافيه من الخصال الملوكية ومنه الاصفر والاحمر والاسود وقد أكثر أهل النظم والنثر في وصفه وتشبيهه فمن قولهم في أصفر

شهم غدا يزينه اصفراره * محمودة في صيده آثاره
طائره لم ينجه فراره * ولم يوق نفسه نفاره

كأنما سفك الدما شعاره * أو حل في منسره شفاره

(وفي باز أسود)

جون يلاحظ منه منظر حسن * له تصير البزاة البيض كالرخم
ينال حامله من حمله تعبا * يعود منه الى الاعراض والسام
كأنما بين هاديه ويفقه * تلهب النار في دق من الفحم

(وفي باز أشهب)

وأشهب كبياض الثلج ما سمحت * بمثل صورته بيض الأفاحيص
كأن حمرة عينيه وهامته * سلافة فضلت في كاس بلور
وانظر الى نقط في جؤجؤ ظهرت * كارجل النمل في تمثال كافور

(وفي باز أحمر لمؤلفه)

وباز غريب الشكل قد فاق منظرا * بحمرته قد فاق أبناء جنسه
له حدق كالنار ترمي لهيبها * على جسمه فاحمر منها بلمسه
وما أحرقته النار لكن عرست * بها بسود على ثوب لبسه
له الفخر في اطلاقه ودعائه * ولا غرو أن يأتي الفخار بنفسه
يطير فيصطاد الطيور ويتقي * فواعجبا من عوده وحبسه
تأنس بالاحسان فالجود لم يزل * به يسترق الحر كل بأنسه

(وأما) الباز النيم فانه ضعيف البدن قليل الصيد وأما الزرق فهو خلقة الباز يصيد الحجل وما فوقه ولا يبلغ الكركي لكنه قوي النفس فيه حرارة وشهامة وحدة دون قوة الباز وأما الباشق فانه دونها وصيده على مقداره ويسمى الساق وأما البيدق ويسمى العفصى فهو أصغر الجميع وصيده السماني والعصافير

(فصل في علامات الجيد منها وعلامات أصنافها وصفاتها) فأما

الجوارح من الطير ذات المناسر فانها ابل من ذكورها وذوات المناقير بالعكس وأصلح البازات الجرجانية وفيها نوع غريب وهو الذى فى وسط ظهره خيط أسود وان كان البازأشهب فهو كذلك والمدبج بالحمرة يدل على الفراهة ويستحب ان تكون ركبتا البازمحددتين ويكون السواد غالبا عليه وان يكون ضخم المنسر واسع العينين رحب دائرة الاذنين واسع الشدقين غليظ العنق واسع الحوصلة تام الاجنحة وعيبه قصر قوادمه وله هذا كان اجل والدراج والسمانى قليل الطيران واذا وجد أسود الظهر أكحل العينين فهو من العلامات الجيدة وفيها ما يكون صفر الارجل وفيها ما يكون أكحل العينين ويحمر بعد القرنصة أو يتغير عن لونه والبزاة كبار الرؤس غلاظ الاعناق كثيرة الريش وشر البزاة الحبشية .

(فصل فى وصايا تتعلق بالصيد) قال أهل ذلك لا ينبغى ان يضرى البازعلى الدجاج دائما فانه يكسل وتقل فراهته لسهولة ذلك عليه بل يعوّد أصنافا من الطير (قال) السجزى فى كتابه ينبغى ان يستجاب البازعلى اللحم أياما ثم بالطيور من الارض ثم من العلو وأنت على الارض ليحب النزول اليك ثم من البعد الى البعد ثم من الارض الى العلو ويدرجه فى البعد ولا يخاف عليه الاصوات فيتحير وكذلك ضرب الطبل بازا يكون على نسق واحد وهو يحب الحمام الابيض فاذا أبطأ عليك فلوح له به ويحتاج ان يكون معك تشده فى خيط وتلوح به (وقال) فان يكون عدم استجابة الطير من أسباب أوّلها سوء حاله أو قلة تأنيسه ووحشته أو من وجع يعتريه فينظر فى ذلك وتزاح علته فيستقيم (وقال) بعض أهل التجربة اذا كان الجارح

بطئ الاستجابة فليدهن منقاره بشحم سرة الكرديش فانه يأخذه من
الحرص عليه كهيئة الجنون وقيل اذا أخذه انقباض ودار ضيق
وسحقا واطلخ طعمه بعسل وذرّ عليه من ذلك وأخّر عن عادته ساعة
واطعم استقامت أحواله وحسنت استجابته واذا أردت ان تنشط
الباز فاطعمه فرخ حمام قدأ أو بيرة تجعل حتى يتشرب بلحمه وعروق
أو تنقعه فيه ثم تطعمه فيصبح ضاحي النشاط وكلما عاد شيأ فاطعمه
منه فانه يعود اليه نشاطه واذا غاب البازي مع صيده ولم تره فاقصد
مكانا عاليا واصغ هل تسمع نعيق الغراب أو تنظر الى كثرتها
واجتماعها فاعلم ان الباز هناك فاقصد له وقيل اذا رأيت الباز يحوم
على رأس صاحبه ولا يعلو في الجو فاعلم انه علامة حسن التعليم وان حلق
ناحية ولم يطلب جهة الصيد وفتل ذنبه ونشره وصعد في الجو فهو
علامة الهروب وقد يكون توحشه من جارح يظهر أكسر منه أو من
شبع أو من تعب اصابه فيصبر عليه ويتبع ويلوح له بالجناح
ويستدعى فيعود ثم يداريه (قال) والجوارح تهيج في الربيع للسفاد
وتطلب أوكارها فينبغي ان تحفظ في ذلك الفصل سيما التي عاشت بعد
القرنصة وأما التي عاشت وهي فراخ فيصعب أسرها ❊ وصف
الشواهين ❊ وهو جنس تحته أنواع على أخلافها وطباعها أولها
الشاهين المعروف وهو أجلها وبعده الانيقي وهو دونه ثم البوبو
ثم القطامي ثم الكونج وقد يسمى الطلخانة جناحه وفي الشاهين
خفة الطيران وشجاعة وحسن تحليق وانكفاف وحرص شديد
وربما رمى بنفسه على الصيد في جبل أو في شوك أو شجر محدد
فيهلك نفسه لانه يضرب بصدره وأجود الشواهين البحرية

البلد كرية وهي سود الظهور غائرة العينين حادة النظر قصار الظهور طوال الخوافي لطاف الاذناب وفيها الصفر والحمر والشهب واذا كان الشاهين بسيط الكف أخضر دقيق الذنب قليل الريش فهو سريع لا يفوته طير وانشد بعضهم في شاهينة شهباء

بيضاء كافورية اللون ما * تحجو سباع الطير من كيدها
ان أطلقت فالطير في بوّها * حاصله بالرغم في قيدها
وكلما يسلبه ريش في * قبضتها كرها وفي صيدها

(وفي أخرى)

وجرية زنجية اللون طرزت * بافعالها المستحسنات نعوتها
اذا أرسلت رامت علوا كانما * أعداؤها في منتهى الجو قوتها
فان نحن أقلعنا الطيور تحدرت * كصاعقة سرعا عليها عتيتها

(وفيها)

جرية أربت على العقبان * جلت عن الاشكال والاقران
ترقى فما تدرك بالعيان * تنقض كالنجم على الشيطان
والطائر القاصي لها كالدان

(وصف الصقر)

ودونه جوارح من طبعه فمنها الكونج ويسمى السقاويصيد الدق من الطير وربما اصطاد الارنب والسمان واما الزنك فسيره بالفارسية الحجر وهي زرق العيون صبورة خفيفة تصيد صيد الباشق ولزمج أحسنها لكنه ضعيف الجسد وفيه فشل ويصيد الكروان ومن العلامات الجيدة في الصقران يكون أحمر اللون عظيم الهامة تام المنسر طويل العنق رحب الصدر ممتلئ الزور عريض الوسط قصير الساقين طويل الجناحين قصير الذنب والحمر منها سلوقية والشهب جبلية

والسود بحرية والصفر قوية تصيد الظباء ﴿وصف العقاب﴾ يقال ان الزمج من اجناسه والعقاب يصيد الغزلان والثعالب والوحش وأما الزمج فانه يصيد بصرع الكركي ومادونه والعقاب الجبلي جيد والذي يؤتى به من جزائر المغرب فانه كثير الصياد والمائل الى الحمرة والغائر الحلاق جيد وكذلك الاغبر المائل الى الشهبة والاسفع هو الذي على رأسه او ظهره بياض واذا تقرنص تناقضت أفعاله بخلاف غيره وقد يربى فرخ الاسد فانه يستجيب ويصيد

(فصل في القرنصة للجوارح)

وهي سقوط الريش عنها كما يطرأ لبعض الحيوان من سقوط الشعر والاستبدال به وكالحية في نزع جلدها فاذا اشرعت الجوارح في القرنصة فينبغي ان يسد لها بيت كي لايدخله الدخان ولا الغبار والرياح ولا يسمع جلبة فيه ويفرش حوله ورق الصفصاف والسوسن والريحان ويبدل كل ثلاثة أيام ويضع بين يدى كل طير اجانة من ماء ويجدد له في كل يوم ويطعم المخالف بدماغ سبعة أيام بدهن الجوز ثم يطعم لحم الضأن وان أمكن ان ينقع في ابن الاتن والسكر كان أنفع له ويعاد عليه الفراخ في بعض الاوقات ومما يسرع برشه ريشه لحم القنفذ بغير شحم ولحم الفأر البرى بدهن بنفسج أو بعسل ويطعم لحم جمل يوما واحدا ولحم بقر يوما آخر ينقى من عروقه وشحمه ويطعم واذا أصابه الربو فيطعم لحم سنور فانه ينفعه ويسمنه ويصفي رئته ولحم اليربوع جيد للقرنصة واذا أردت ان تسهله فأدلك لحمه بدهن البنفسج أو بالزبد ومما يسرع

سقوط ريشه ان يطعم الغدد التى تكون فى حلق الشاة موضع الذبح تحت الجلد يطعم منها ثلاثة أيام وكذلك لحم السلاحف

*(فصل فى بعض امراضها وعلاماتها وعلاجاتها)

فمن ذلك (الرمد) وعلامته ان ترم عينه وتحمر وتدمع (علاجه) ان يشوى الجبن ويطعم ثلاثة أيام واذا شوى يقرب بخاره الى عينيه (الزكام) وعلامته ان يحمر منخراه وتسيل الرطوبة من فمه وتدمع عيناه (علاجه) يدق نوى الزعرور اليابس ويصب عليه الزيت ويصب مثل الحمص ويغسل بها حنكه ويوقف فى الشمس ساعة ويطعم بعد ذلك حمامة حارة وان كان فى الشتاء يسحق الفلفل وينفخ فى منخريه ويطعم طيرا شديد العصب وقوى اللحم حتى ينتفخ عصبه وريشه فتخرج الرطوبة من منخريه والبرد (والكزاز) علامته أن يكون ضاما جناحيه ثانى الريش قائمه يرفع رجلا ويضع أخرى وينقض ويتقاعس (علاجه) ان يدنى من جمر لادخان فيه ويقطر فى حلقه قطرات دهن بان أو يمسح به ظهره وتحت افخاذه وبعضهم يلفه فى قطعة فرو وبعد ان يدهنه ببعض الادهان الحادة فيبدأ أو يحسن حاله (الجص) علامته ان يغمض عينيه فهو دليل على ان المرض فى رأسه وان كان يجد الالم عند الذرق فعلامته عد منبره الى مؤخره فذلك دليل على ان الداء فى بطنه وأكثر مايطرأ من الريح أو من التخمة وعلاجه ان يطعم القانية فانه يكسر الريح ويلين البطن ويطعم الرشاد والزنجبيل والوج ويطعم لحوم العصافير والقنابر منقوعة فى دهن الجوز واذا أغليت العسل على النار جيدا ونزعت رغوته وعقدته ثم أطعمت الطير بقدر الجوزة نفعه للجص والريح

وان كان الالم فى رأسه ولم يهدأ بالطعم فاكوه بقصب آس فى ثلاث
مواضع عن يمين أصل منسره وعن يساره وفى وسط رأسه واجعل فى
طعمه الرشاد (الاكلة) علامتها اذا ابيضت لهاة الطير بعد سوادها
واذا أكل اللحم يدخل مخاليبه فى منسره ويحكه حتى يسيل منه الدم
وربما امتنع من الاكل فاعلم ان فى حنكه الاكلة وربما كانت فى
بطنه وأصلها من الجص وصعود البخار الى رأسه وحلقه (علاجه)
ان يطلى بشئ من سمن البقر والفلفل ثلاثة أيام ويؤخذ نشادر
درهمين وزرنيخ أصفر درهما وبورق أرمنى نصف درهم يدق ويخلط
بشيرج وتطلى لهاته وحلقه منه ثم يغسل بخل وان دهنته بدهن
المشمش المسخن حتى ينكوى به نفعه وان اشتد مرضه فسعطه
بالزرنيخ واذا كويت جانبى منسره بعود شيح كان أمانا له من الاكلة
وأما الآفات الطارئة عليه من الظاهر فمنها الصدمة فاذا أصابته
يضطرب فى الطيران وعلى الكندرة ويصفع ويكون ذرقه مختلطا بدم
علاجه تدق كزبرة البئر ويستخرج ماؤها ويقع دامه فيه ويكون
من لحم طير حار ويؤخذ بعر الغنم وورق الصفصاف ويغلى فى ماء ثم
ينزل ويكب عليه غربال ويوقف الطير عليه حتى يرتفع عليه
البخار فينفعه الراحة وان أصاب الطير جرح وانقطع جلده
فيخيطه بخيط صوف رفيع ويذر عليه كزبرة بئر يابسة وان
كانت متوغلة فذر عليه أنزروت حتى يبرأ وان زال من جلده قطعة
فضع فى مكانها من جلد فرخ حمام حار وذر فوقها كزبرة بئر وخيطه
وان جعلت تحته شحم بقر كان أصلح وأسرع لبرئه وعلاج الشواهين
مثل علاج البزاة وكذلك سائر الكواسر الا أن مداواة كل نوع

على

على حدة فيحتاج من يشتغل بذلك أن يكون له دراية ومعرفة وإذا تقصف من ريش الجارح شئ فله وصل بإبرة لطيفة تدخل بين الريشتين ويجعل على رأسها صرى فيه صمغ ومصطكى مدقوقين وفيما ذكرناه كفاية والله أعلم

القسم الرابع في الحروب وهو عشرة أبواب

الباب الأول

في وصف أجناس الناس واختلاف أصنافهم وأطوارهم

اعلم أن النجدة والفروسية من أهم المصالح الدينية وإقامة الدين ونظام العالم وبها تحرز الأموال وتصان الحرم والنعم الدنيوية وتنال الدرجات الأخروية وبها تكون العزة للنفوس الأبية وهي نتيجة النخوة والحمية حثت عليها الشرائع والديانات وانتظمت بها ضوابط السياسات وقد ورد في القرآن الكريم والخبر الصحيح في فضل الجهاد والمجاهدين والحث على الغزاة وتحريض المؤمنين ما يكثر تعداده وللفروسية ثلاثة أصول أحدها أحكام الركوب الثاني الحذق في أخذ السلاح واستعماله والمقاتلة به والثالث الشجاعة وتدبير اللقاء والتقدم والتأخر والثبات وأصناف ذلك وتصرفاته فلنقدم قبل الشروع في ذلك وصف أجناس الناس وطبقاتهم وميلهم من ذلك وما اختصت به كل أمة من أهل الأقاليم (الفرس) ذوو شهامة ونجدة وصبر وحسن سياسة فكان لهم الملك ودام فيهم ودانت لهم البلاد واستمرت على الممالك ألوف سنين وفيهم الرمي بالنشاب وأهل جبالهم رجالة شجعان مشاقون يرمون بالحجر الصيب والمنجنيق من استنباطاتهم ويقال انه ظهر في زمن النمرود وهو من نبطهم وأعقاب

دوابهم بالعراق وقد جاء فى تفسير قوله تعالى وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم قال بعض الصحابة من هؤلاء يارسول الله قال هذا وقومه وأشار الى سلمان الفارسى (العرب) أهل ركوب وخفة فى الكر والفر وفيهم شجاعة وليس لهم ثبات وهم يخدعون بالاطماع والآمال وتؤثر فيهم الخطابة والاشعار فى كل فن حتى انهم يقعون فى الاخطار أو يتركون من الاموال ماله مقدار ببيت شعر أو كلمة سجع *ومن خصائصهم حفظ الجار والنزيل والذب عنه وفى بعضهم كرم وليس لهم من أنواع الاسلحة الا الرمح ورمى القوس العربى فى بعض طوائفهم وهو كالنادر فيهم (الترك) ذو شجاعة وحمية وغلظة وقساوة على غير جنسهم وفيهم انقياد لمشايخهم وكبرائهم مع انهم ليس فيهم عصبية كما فى الكرد وأخلاقهم عسرة وأشرفهم الخطا ثم الخلخ ثم الجكل ثم التبكت ثم القفجاق والخطا والختن أجملهم وأصبحهم والجكل أعجزهم والتتر أطوعهم واليمك أسقطهم ولهم فى الفروسية رمى النشاب والضرب بالدبوس والسيف ولهم الصبر فينبغى ان يوسع عليهم فى الانفاق وتزاح عللهم فى ذلك ويمكنوا من عاداتهم ولا يرفهون فانهم ينقادون الى كل أمر يدعون اليه ويتبعون (الروم) أهل صنائع وحرف وحكم وفيهم صبر وخدمة ولهم حيل فى السياسات ووضع آلات حربية وحظهم فى الفروسية قليل ولهم ضرب بالسيف ورمى بالجرخ والزنبورك وميلهم الى المكايد فى الحروب أكثر وفيهم صبر وحرص على جمع المال ومحبة الذهب والفضة والتنعم (الديلم) أهل طبرستان والجبال فيهم الفروسية والشجاعة والصور الهائلة والاصوات المفزعة وهم يرمون

بالمزاريق

بالمزاريق فتنفذ حيث أصابت ولا تكاد تخطئ وهم أطوع الناس لكبرائهم الا أن آراءهم مضطربة وما استراحوا قط الابطر ولا ينبغي ان يولي عليهم غيرهم فان نفوسهم أبية وينبغي لواليهم ان يغضي عن بعض هفواتهم ويسمح باليسير من جناياتهم وفيهم عنت وعسف ان وليهم من غيرهم وكذلك البربر والعرب بالضد (الكرد) هم في جبال الفرس وديار ربيعة فيهم الشجاعة والنجدة والهيبة فرسانهم ورجالتهم وهم يتعصبون لبعضهم على كل حال كما تفعله العرب في بعض الأحوال وليس فيهم حيل ولا مكر وينقادون للديانات والامانات وربما كان فيهم غدر في بعض الاوقات ولا يكون سببه الا التعصب والحمية (البربر) فيهم الصبر على الشقاء والاقدام على الموت والحروب وهم أهل غلظة وجفاء وجهل وتألفهم بالمواعظ والخطب والانقياد لمشايخهم واكبرائهم وتؤثر فيهم النواميس غاية التأثير وهم خفاف على الخيل خفاف في الجري ومنهم رجالة يلحقون الخيل ويعمل فيهم الارهاب ويعظمون شيوخهم وفيهم قبيلة تعظم النساء وتحكمها وتنسب الاولاد اليهن وينتقب الرجال وتسفر النساء في الغالب وهي قبيلة مسوفة وسياساتهم بالقهر والارهاب واستعمال السيف مكان السوط (الارمن) فيهم صبر وخدمة وقد يكون فيهم جمال وفيهم ملاحة وذكاء وحسن تأن في الاعمال مع فساد وقلة أمانة (الهند) أهل الحكمة والذكاء والفطنة وفيهم الحيل والمكر والوهم والخداع ولا يقاتلون الا بأمر ديني وأما الحمية والانفة والغيرة فعندهم قليلة ومنهم طائفة تنسب الى الشجاعة يسكنون في جبال الهند وهم عراة (الحبش) هم أشفق أصناف السودان

وأحسنهم وفيهم أمانة وشجاعتهم نادرة وهم أهل جد وصبر وأصناف السودان كثيرة أشجعهم أهل غانة ثم كوكو والنوبة وأضعفهم الزيلع ثم كانم وبالجملة فأهل البلاد الباردة أشجع من أهل البلاد الحارة لتلزز أبدانهم واكتناز أعضائهم وقوتهم الا أن أهل البلاد الحارة أخف وأرشق وربما كانوا أركب وأهل الجبال أشجع وأصبح من أهل السهل وكذلك أهل المشرق أشجع من أهل المغرب وأهل الشمال أشجع من سكان الجنوب والوسط وسط * قال أهل الفراسة من صفة الشجاع ان يكون متلزز الاعضاء قوى العصب شديد اللحم قائم الشعر سبطه كأنه ابرمغروزة عريض الصدر غليظ العنق جهورى الصوت أخمص البطن وهذه الصفات مأخوذة من الاسد ولو شرحنا سائر أجناس الناس لطال الكتاب ولكن اختصرنا لئلا يفوت الغرض

الباب الثانى
فى الشجاعة وحدها وفضلها وصفاتها

الشجاعة اقدام على أمر مخوف غالبا مع توطين النفس على الظفر وأما مع استشعار العطب فهو التهور والقاء النفس فى التهلكة وقيل الشجاعة أمر به يدفع المكروه ويجلب المحبوب * وعلى الجملة فان الشجاعة أمر تقتضيه الفحولية والهمم العلية وهو للملوك ألزم ولا يلزم ان الملك أشجع بل يكفى ان يكون شجاعا مقتدرا عارفا بالطعن والضرب والحملة والاقدام ومواقعه ومواضعه والثبات ومواقعه فانه اذا أحكم هذه الامور كانت فيه فوائد عظيمة منها هيبته فى القلوب وعظمته عند أعدائه وأوليائه ومنها معرفته

بحقيقة الفروسية ومقدارها فيضع كل أحد في الرتبة التي يستحقها
ومنها انه وان كانت له عساكر وأعوان لكنه ربما اضطر في بعض
الاحوال الى مباشرة الحرب بنفسه لانتهاز فرصة أو لدفع شدة فان لم
يكن شجاعا ولا لديه معرفة فانه يهلك ويهلك * والشجاعة على أنواع
منها السبعية ومنشؤها من الغضب والفزع وقد تكون طبعا ولا
مادة لها ومنها البهيمية وهي التي تكون لطلب مأكل او منكح ومنها
مصلحية وهي المكتسبة بتدرب عليها من يزاولها حتى اذا تمهر
فيها ارتقى بسببها وهي طريقة الجند والشجاعة أمر محمود وفضيلة
وهي الوسطى والافراط فيها تهور والتفريط جبن ومثال التهور
مقاومة ضعيف أعزل القوى شاك والجبن بالعكس أو الهروب قبل
المناوشة والحرب وانما ينبغي ان يثبت موضع الثبات وينتهز عند
امكان الفرصة ولا يرتاع ان رأى غيره أصيب فلعله من السالمين
الظافرين

(فصل في فضل الغزاة في سبيل الله تعالى) قال الله عز وجل ان
الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وقال
عز وجل ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند
ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله الآية * وفي الحديث
الصحيح ما أورده النسائي عن عبد الله بن أبي أوفى ان النبي عليه
السلام قال اعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف * وفيه عن معاذ بن
جبل انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قاتل في سبيل الله
عز وجل من رجل مسلم فواق ناقة وجبت له الجنة ومن سأل الله القتل
من عند نفسه صادقا ثم مات أو قتل فله أجر شهيد ومن جرح جرحا في

سبيل الله أو نكب نكبة فانها تجيء يوم القيامة كاغزر ما كانت لونها كالزعفران وريحها كالمسك ومن جرح جرحا في سبيل الله فعليه طابع الشهداء

(فصل) والشجاعة في العرب مشهورة في جاهليتها واسلامها وقد كثر تعداد ذلك في وقائعها وتكررت في الكتب والتآليف اخبارها والشجاعة أيضا في الفرس مشهورة وفي تآليفهم واشعارهم مذكورة منهم بهرام جور الملك كان يصيد السباع وكان في الحرب يقبض على الرجلين فيدق أحدهما بالآخر حتى يسقطا قتيلين *ومن قصته في ابتداء ملكه ان والده يزدجرد الاثيم سلمه وهو صغير الى المنذر بن النعمان ملك العرب ليتولى تربيته ويخرجه ففعل ذلك فلما كبر علمه الفروسية والله تعالى قد ركبها فيه وهيأه لبلوغ غايتها ثم جاء به الى والده وعرض عليه فروسيته ورميه وحذقه في حمل السلاح ثم استنطقه فوجده فصيحا فاضلا بارعا في الالسن المتداولة فاعجب به وانصرف المنذر فبقي بهرام عند أبيه لا يصرفه في أمر ولا يوسع عليه في نفقة ويحجبه ويقصيه ويغض منه فصبر حتى ورد رسول الروم الى يزدجرد فسأله بهرام أن يشفع له عند والده ان يطلق سراحه ليعود الى العرب فانه قد اشتاق اليهم فأذن له فانصرف فأقام مكرما عند المنذر حتى مات والده يزدجرد فاجتمعت عظماء الفرس على رجل من أهل بيت المملكة يسمى كسرى فولوه عليهم لكراهتهم في يزدجرد وسيرته ولم يريدوا ابقاء الملك على ولده فلما بلغ المنذر ذلك أعلم بهرام وقال له هل تنهض لأخذ الملك لك فاني أجمع العرب وأسير معك فقال ان تفعل تجزيه فجمع عساكر العرب وسار حتى أناخ بمدينة ملك الفرس فخرج اليه المرازبة والعظماء وقالوا له

نحن قد أنعم الله علينا بالخلاص من يزدجرد وظلمه وعسفه ونخشى أن يكون ولده على سيرته وقد قلدناه هذا الملك أمورنا فلا يكن من قبلك الينا شر فقال لهم اجتمعوا الى بهرام واسمعوا كلامه واشرطوا عليه ماتريدون فان اتفق مايرضيكم والا عدت فوعدهم ليوم اجتمعوا فيه لذلك وكان المنذر قد صنع لهم طعاما وشرابا وأجلس بهرام على تخت من وراء حجاب ثم لما تكامل جمعهم وفرغ أكلهم أمر برفع الحجاب والسلام عليه فأحسن الرد عليهم وخطبهم خطبة بليغة فارسية ووعدهم فيها بالجميل والخير والفضل واتباع الشرع ثم قال وأما طلبي الملك فليس بمجرد الارث بل يوضع التاج والحلة والخاتم بين يدى أسدين ضاريين واحضر أنا وملككم الذى قلدتموه فمن انتزع آلة الملك استحق الولاية عليكم فاعجبهم ماسمعوه من فصاحته وشاهدوه من صباحته مع مواعيده الجميلة فاتفقوا على ان يفعلوا ذلك فأخذوا التاج والخاتم والحلة ووضعوها بين يدى أسدين مجوعين مع خروف مسلوخ واجتمع العظماء والمرازبة والموابذة وأركان الدولة لمشاهدة ذلك فقال بهرام لكسرى تقدم لاخذ التاج فرأى الآساد وهى تزأر فارتاع لذلك فقال بل تقدم أنت فقال نعم على خيرة الله ثم تقدم وبيده الكرز الذهب فقصد الى الحلة واطلق الاسدان من السلاسل فقصده أحدهما فلما قرب منه راوغه ثم وثب على ظهره فركبه وعصره بفخذه حتى كادت اضلاعه تندق فقصده الاسد الآخر فبادره بالكرز على أم رأسه فاشغله بنفسه ولم يزل ذلك الاسد الذى تحته يقع ويقوم وهو لا يفك فخذيه عنه ويضربه بالكرز فى دماغه حتى قتله ثم عطف على الآخر فقتله

فارتفعت الضجات واستبشر الناس ودعوا له ووضع التاج على رأسه وجلس على تخت الملك باستحقاق (وكذلك) قصته لما مضى الى الهند وقتل الفيل الذى كان قد هاج واغتلم وقطع الطريق ولم يقدر أحد عليه فخرج اليه وحده وضربه بسهم بين عينيه غاله فى دماغه ثم لم يزل يرميه حتى أجهز عليه (ومنهم) رستم زال ورماياته المشهورة ومنهم هرمز واصفهبذ وبين وبهرام جوبين الذى بعثه هرمز لحرب ملك الترك وقد توغل بلاد الفرس فى أربعمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل فلما انتهى اليه واصطفت عساكر الفريقين تقدم اليه بهرام متنكرا حتى قابله ورماه بسهم فى جبينه خرج من دماغه ووقع على الارض فانكسر العسكر بذلك وكانت رمية مشهورة عجيبة حتى زعمت الفرس ان الملائكة حملت نشابة بهرام والترك زعمت ان الجن حملتها الانها رمية خارقة للعادات وهذا هو عين الغلط فان الملك ما ينبغى له ان يغرر بنفسه وان كان أصاب دفعة فربما يقع فى الخطا دفعات ومثل هذا فى المعنى رجال بلاد الاسماعيلية يسمون برجال الدعوة معدون لمثل هذا فان الرجل منهم أو الرجلين يغنى عن حركات الجيوش الكثيرة ويقال لهم فى بلادهم الاسماعيلية وفى بلاد الفرنج يسمونهم الحشيشية وعند أهل الاقاليم الفداوية وهم قوم على دين الاسلام وقد كانت للملوك الاسلامية بهم عناية كبيرة وفى زماننا اعتنى بهم الملك الظاهر رحمه الله وسيرهم فى الاشغال الكبار فقضوها مع الفرنج والتتار وكذلك اعتنى بهم الملك الاشرف رحمه الله ابن الملك المنصور قلاوون تغمده الله برحمته وسيرهم أيضا فى مهمات قضوا فيها الاشغال وفرقوا الجموع

وذلك

وذلك انهم كانوا اذا ندبوا الامر بذلوا أرواحهم فيه وسمحوا بنفوسهم وتلذذوا بالموت والسلامة على ما قدر وكانت لهم الرواتب والانعامات والافتقادات وغير ذلك وكانوا فى قلاعهم لا يخرجون منها ولا يعرفهم أحد الا بعد قضاء الاشغال وهؤلاء الرجال معدون لمثل هذا الامر فان أى جمع اجتمع من الاعداء توجه اليهم شخصان أو ثلاثة فهجموا على مقدم ذلك الجمع فقتلوه فينحل عقد نظامهم ويتبدد شملهم فما عسى أن يكون مقدار هؤلاء الرجال وبم يجازون فهذا كان بهرام چوبين وفى قلاع الاسماعيلية فى زماننا هذا ألف بهرام فيجب على الملك النظر التام الى هؤلاء الطائفة والاحسان اليهم واجراؤهم على عوائدهم وندبهم للمهمات العائد نفعها على الملك والممالك * وأما أصناف الشجعان فكثير وقد قيل من الاشعار فى الشجاعة كثير بسائر الالسن فمن ذلك بالعربى على سبيل العرض قول الشاعر

أكر على الكتيبة لا أبالى * احتفى كان فيها أم سواها

(وقول عنترة العبسى)

وانا المنية حين يشتجر القنا * والطعن منى يسبق الآجالا

(وكقول السموأل بن عاديا)

وما مات منا سيد حتف أنفه * ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظبات نفوسنا * وليست على غير الظبات تسيل

(وقال فى الاقدام)

ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا * ولكن على اقدامنا تقطر الدما

(وقال)

ومن عجب ان السيوف لديهم * تحيض دماء والسيوف ذكور
وأعجب من ذا انها في اكفهم * تأجج نارا والاكف بحور

(أخذه النامي فقال)

خلقت كما أرادتك المعالي * فأنت لمن رجاك كما يريد
عجيب ان سيفك ليس يروى * وفي حبل الوريد له ورود
وأعجب منه رمحك حين يسقى * فيصحو وهو سكران يميد

الباب الثالث

(في الفروسية ورياضة الخيل والركوب)

ينبغي لمن أراد الفروسية اذا كان مبتدئا ان يتدرب عليها وأول ما يبتدئ بالخفة في الوثوب والنزول ثم يتدرب على ركوب الفرس العربي العري بلا عدة سوى الرسن فانه اذا لم يحكم ذلك وعاد همه أمر يحمله عن الاسراج والالجام وتكون الخيل عنده فلا يقدر على ركوبها فيؤخذ أو يقتل فمن عزم على ذلك فليتخذ فرسا عربيا مرتاضا فيطرح عليه جلا ويوثق رباطه في الحزم واللبب حتى لا يميل الى جانب واحد ويقف عند يسار الفرس ويضع يده على رأس منكبه عند طرف المعرفة وقد أخذ معها العنان ويثب عليه وثوبا مستويا ويميل ظهره ويجعل اعتماده على شد الفخذين فهو أصل الثبات ومن كان لا ينهض للوثوب فيثب على فرس قصير أياما حتى تخف نهضته أو يجعل الفرس في وهدة ثم يتدرج على أعلى من ذلك حتى يتدرب ويسهل عليه (ورأيت) كثيرا من الفرسان يثبون على الفرس وعليهم الدروع أو الجواشن ملبسة فاذا أحكم رشاقة الوثوب واستواء الجلوس حتى يبقى كما قال المتنبي

فكأنها

فكأنما اخلقت قياما تحتهم * وكأنهم ولدوا على صهواتها

فليتعود السير ثم الخبب ثم الجري ثم الطرد ويحفظ نفسه عند أول جري الفرس وخروجه وعند آخر جريه ووقوفه فانه ربما جمح أو جمز فرمى به ولا ينبغي للراكب العربي ان يركب على المهمازين ولا على شيء غير مشدود فانه يميله ولا يثبت ويقلق في ركوبه وينبغي أن يطوق مقودا مشدودا الى عروة في المرد الذي على الجل وان كان في الحرب فيجعله الفارس في وسطه حتى اذا سقط على الارض بقي الفرس معه لا ينفلت منه واما الملوك وأصحاب الحرب فلا تزال لهم خيول مسرجة ملجمة بالنوبة دائما حذرا من هجوم أمر بغتة لا يمكن معه التاني والملوك تفعل ذلك في الليل والنهار والحرب والسلم والسفر والحضر وهي عادة مستمرة وتسمى خيل النوبة وتوقف في أقرب المواضع من الملك واما أهل الحرب والبزكية والعرب والتركمان فانهم اذا نزلوا في أرض ورعوا خيولهم وعلموا انها شبعت ألجموها وأوقفوها ومنهم من يتعانى اللبوان وهو أنفع ولا يمنع الرعي وسمعت ان الفارس سالم ابن غانم الزغبي كان يعلم الناس الفروسية فيأخذ جلا من شعر فيرميه على ظهر الفرس ويشد عليه حزامه ولببه ثم يقف على يسار الفرس والمخصرة معلقة في يده اليسرى والعنان أيضا ويضع يده اليمنى على أعلى حارك الفرس عند طرف الجل والمعرفة ويتقاصر ويثب على ظهر الفرس ويضرب بيده اليمنى صفحة رقبة الفرس اليمنى ثم ينزل ويركب مرارا ثم ينزل ويضرب بيده على ظهر الفرس كالتوطئة ويجمز فيحصل على ظهره ثم يغير أنواعا من الوثوب * وقيل ان التقدم على ظهر الفرس خير من التأخر والانحناء اليسير عند السوق خير من

الانتصاب والميل الى ورائه وليكن الفارس كأنه ينظر الى ابهام
رجليه * وقال بعض أهل الفروسية من أراد الركوب بالسرج
فليتخذه واسع المجرى اى المجلس والركاب قصير القرابيس واطئه ولا
يمكن رجليه من الركاب الى مؤخرهما ولا بطرفهما بحيث لا تثبتان
بل يتوسط فى ذلك فان من انتشب فى ركابه وسقط لا تخلص رجلاه
وربما كان هلاكه منه ومن كان متطرفا فايسر حركة تخرج رجليه
فيستعد لردها فيضطرب فى ركوبه وليقو موطئة السرج أعنى
الابازيم ويقوى له حزامين جيدين وثيقين وليباو برذعا جيدا وان
امكنه تخريم وطاء الركاب فليفعل أو يلبده خشية ان تزلق رجلاه من
نعومة الحديد أو يضع عليه خشبا فهو أصلح وينبغى أن يكون الركاب
ثقيلا وسيره عريضا حتى لا يتقلقل من مكانه واذا خرجت رجل
الفارس منه لا يروغ فعادت اليه بسر يعا بغير طلب * واما ركوب
الفرس المسرج فيقف الفارس على يسار الفرس متأخرا عن الركاب
ويضع طرف قدمه اليسرى فى الركاب ويمسك طرف معرفة الفرس
بيده اليسرى ويده اليمنى فى قربوس السرج القدامى ويثب راكبا
وبعضهم ينسل انسلالا فى الركوب والوثبة ويستوى فى ظهر السرج
جالسا على مقعده سواء ويشد فخذيه وركبتيه والميل فى ظهر الفرس
يعقب العقر واما معايب الركوب فمنها قلق الفخذين فى المشى والجرى
ومنها الضرب فى أجناب الفرس فى الجرى والرفس بالكعبين فانه
يشغل الفرس عن جريه وانما الهمز أو الضرب عند أول الاطلاق
مثل التنبيه محمود واما كثرة الانحناء والانقباض الى خلف الا اليسير
منه عند الامساك وجذب العنان وتواتر الضرب فعيب غير محمود ولا

يجب

يجب فتح المرفقين والاضطراب والالتفات

(فصل في فضل الخيل وصفاتها وشياتها وعلاماتها)

قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وقال تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة * وعند النسائي عن ابي وهب الجشمي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اربطوا الخيل وامسحوا بنواصيها واكفالها وقلدوها ولا تقلدوها الاوتار وعليكم بكل كميت أغر محجل أو اشقر أغر محجل أو ادهم أغر محجل * وفي الترمذي عن أبي قتادة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخيل الادهم الارثم المحجل طلق اليمين فان لم يكن فكميت على هذه الشية * وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوي ناصية فرسه باصبعه وهو يقول الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والغنيمة * وعن أبي هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الشكال من الخيل والشكال أن يكون الفرس في رجله اليمنى بياض وفي يده اليسرى خلافه واما بالعكس وقد اختلف في الارجل الذي يتطير منه فقيل هو الذي يده الواحدة بيضاء وهو الاشهر وقيل هو الذي رجله بيضاء واللفظ يقتضيه والاعصم هو الذي يده بيضاء * ومن محاسن الخيل وشياتها ما قاله صعصعة بن صوحان حين سأله معاوية بن أبي سفيان عن أجود الخيل فقال طويل الثلاث الاذن والعنق والحزام قصير الثلاث الصلب والعسيب والقص عريض الثلاث الجبهة والمنخر والورك ضافي الثلاث العين والاديم والحافر * وقيل خير الخيول ما لا يتعبه شوط ولا يبعثه سوط * وقال آخر يصف فرسه لا يقوته

طرف ولا يسبقه طرف والاشعار في أوصاف الخيل كثيرة والاختصار هنا اجزل

(فما قيل في ذلك المعنى)

ولقد ركبت على أغر محجل * ماء الديابج قطرة من مائه
وكأنما لطم الصباح جبينه * فاقتص منه فخاض في احشائه
لا تعلق الالحاظ في اعطافه * الا اذا كفكفت في غلوائه
لا يكمل الطرف المحاسن كلها * حتى يكون الطرف من اسرائه

الباب الرابع

(في الاسلحة واستعمالها في الحرب وصفات الرمي وفضله والطعن والضرب للغزاة والحث على الجهاد)

قال الله تعالى يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم الآية وقال يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين * وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمي يكررها ثلاثا * وفي البخاري عن سلمة بن الاكوع قال مر النبي عليه السلام على نفر من اسلم يتناضلون فقال ارموا بني اسمعيل فان أباكم كان راميا وأنا مع بني فلان قال فامسك أحد الفريقين بأيديهم فقال عليه السلام ما لكم لا ترمون قالوا كيف نرمي وأنت معهم قال عليه السلام ارموا وأنا معكم كلكم وكانت المسابقة في الرمي بسهم واحد وتجب به الاصابة فجعلت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا يعني السابق في الاصابة الى الثالث هو الفائز ثم بعد ذلك صارت أربعة الى أول

دولة بنى العباس فصارت تحسب بخمسة

(فصل فى المراهنة) وهى فى الرماية وسباق الخيل أمر مشروع ولذلك صفات وشروط مستوعبة فى كتب الفقه *فاما صفة الرمى فقال مرزبان الرامى فى كتابه ينبغى للرامى اذا اقام للرمى ان يكون بين رجليه من السعة بمقدار الذراع ثم يأخذ قوسا لينة عليه يحكم عليها ويخرج منكبيه فيمدها من غير سهم حتى يبسط شماله ويثبت يده اليمنى على منكبه ويعدل سهمه ويهدى يديه فاذا فعل ذلك مد بالسهم الطويل المجاوز لمقداره ليعرف مقداره منه ويكون قدامه على رجله اليسرى وقبضته اليمنى فى الوتر حذاء قبضته اليسرى فى القوس ويكون خروج منكبه الايمن حذاء خروج منكبه الايسر فاذا أراد مد السهم مده من فوق شاربه الايمن بعد بسط شماله وتكون رجل القوس خارجة وأعلاها قائمة ويكون غمزه على وسط القوس ويكون افلاته من جوف الوتر ويكون أصل مفصل ابهامه عند الاستيفاء متمكنا على منكبه فانه أقوى له على فتلة الوتر عند الافلات وتسمى الغمزة ويكون خروج يده اليمنى مع القبضة الى فوق فان استعمل الخطرة بشماله مع النفضة بيمينه كان أصح وأصلح وينبغى ان يكون وضع سبابته على يده معتدلا وهو ان يكون حد المفصل الاول على وسط الظفر من الابهام فى أصله من كفه اليمنى ويكون فوق السبابة مع المجرى الذى فوق اليد اليسرى وزنا بوزن ويحترز الرامى ان يضع الفوق على موضع فتلة الوتر فان النشاب يقلق ولا يصح وسبيل الرامى ان يطلق الوتر بفركة مع تصحيح نظره الى موضع الغرض ويجمع نظر عينيه جميعا من النصل الى موضع

الغرض ثم يطلق فيصيب ان شاء الله تعالى

(فصل فى صفة القسى والنشاب) أجود القسى ما كثرفوقها وقل خشبها وصح لجامها واشتد جفافها وثقل وزنها وقوى حبلها والدمشقية أجود من غيرها وقد تتخذ من الخشب المفرد والقناقسى عربية وهى نوع يحسن الرمى بها طائفة من العرب وقبائل السودان وكذلك الفرس والروم قسيهم على أنواع مختلفة والمغاربة والفرنج يعانون قسى الجرخ وهى أكثر نفعها من داخل السور وفى مراكب البحر والقسى الجروخ القرن تصلح للقلاع والعقاقير جميعها الخشب ما تصلح الا فى البحر لان هواء البحر يضر القرون ويفسده والعقاقير الخشب ما تتغير فيه وقليل ان تخطئ سهام الجروخ اذا كان الرامى بها عارفا حاذقا * وأما النشاب فيجب ان تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والفتل والثقل والخفة وطوله وقصره على حسب مقادير الرامى والمريش المربع أو المثلث والجناح الايمن أخف من الايسر والمثلث المريش أسرع والمربع أعدل وأصح لكن فيه بطء وريش الذنب لاخير فيه فان اضطر اليه فليخلط مع غيره ولا يصلح الا للامتاح وللصيد للماسح خاصة

(فصل) فى السيوف وهى أصناف أجودها العتق وأصنافها اليمانية ثم القلعية ثم الهندية ثم السليمانية ومنها الشامية والخراسانية والآن التى يعانيها الناس القلاجورية من السيوف اللينة الفرنجية وهى على أصناف الالمانية والبردلية والكبردية وغير ذلك * ومن علامات السيوف اليمانية العتق التى طبعت فى الجاهلية ثقبان فى سنبل السيلان وثقب السنبل من احدى جهتيه

أوسع أو متساويان ووسطه أضيق * ومنها المحفورة وهي التي شطبها شبيه بالانهار وقد حفر بمبرد مدوّر ومنها ذات حفر مربع ومنها ذات شطب وقلما تسلم اليمانية من العروق المفتوحة وقد توضع عليها تماثيل أو يكتب عليها أو يصور عليها صورة وقد يخفي ذلك وهذه السيوف أكثر قطعها في اللين فاذا صادفت الحديد أو اليابس تقصفت بخلاف السيوف الافرنجية فانها تقطع الصلاب من العظام وتبري الحديد على قدر جودتها وجودة سقايتها

(فصل في الترس) لا ينبغي ان يدخل في حرب بسيف الا ومعه ترس الا عن ضرورة والترس على أصناف كل صنف منها يصلح لشيء فمنها المسطح والمستطيل المحفر الوسط ومنها المقبب المنحني الاطراف الى خارج وهذا النوع لا يتقي به الرمح لانه متى طعن ثبت الرمح فيه وصرع صاحبه وانما يتقي به النشاب والحجارة والسيف والمستطيل يتقي به النشاب لان رأسه يستر رأس الفارس وطوله يقيه لانه ينظر باحدى عينيه من التخصير ولا يكشف رأسه والمسطح يتقي به الرمح ويكون انظر له من جانب الترس الى العدوّ واحذر من كثرة الضرب في غير وقته ولا تضرب من الخصم الا الموضع الذي لا سلاح فيه وعليك بالاطراف فقليل الجراح منها كثير ولا تضع الضرب في الدرق والتراس فربما نبا السيف أو نشب أو التوى ولا تبتدئ الا عسر بالضرب فيظهر عليك ان أخطأت بل اصبر حتى يتقدم ثم الحقه * واعلم ان أصل المثاقفة الروغان فأحكمه وقد قيل يحتاج المثاقف ان يكون أروغ من ثعلب وأثقف من هر وأحذر من سلحفاة وأخطف من حدأة واذا قابلت فاجعل الذي يقابلك عن

عينك واقطع ما تجرى معه يدك اليك وأنفذ ما تريدك الى خلف قبله
(فصل فى الرمح) طرائق حركات الرمح وتصرفاته كثيرة وكتب
السياسة مشحونة بذلك واللعب به فى الميادين وبين يدى الملوك غير
التحرك به فى الحروب منها المواجهة وهى أن تحمل على مبارزك وقد
أخذت الرمح تحت ابطك وجعلته بين أذنى فرسك وتقصده مستويا
حتى تقرب منه فان رأيته قد طرح رمحه يمنة فاطرح رمحك يسرة
وان طرحه يسرة فاطرح رمحك يمنة واجهد ان تبدأ بالحمل عليه
وأنت مسدد وتحول الرمح يمنة أو يسرة كى تدهشه فلا يدرى من أين
تجيئه فاذا دنيت منه دخلت عليه من الخلل الذى لا يكون رمحه
فيه واذا أردت ان تبتدئ بالخروج فخذ أسفل الرمح بيدك اليمنى
ورأسه الى الهواء وهو على عاتقك الايمن وتحمل على قوتك وأنت
كذلك وان شئت قربت منه حتى لا يدرى من أى وجه يلقاك ثم تنظر
من أين يطرح رمحه فتطرح أنت من الجانب الخالى واياك ان تطرح
رمحك وتسدده من جانبه الا ان علمت ان رمحك أطول ويسمى المواصلة
وهى خطأ فى العمل فاحذرها * ومنها المواجهة الخراسانية وهى أن
تحمل فاذا دنوت من مبارزك فاجعل أسفل الرمح تحت الايمن وأشر
بيمينك وارفعها حتى يصير الرمح قدام يدك اليسرى فتوهمه انك
تنتقل ثم ترد يدك بسرعة الى أسفل الرمح فانه ينتقل الى ما منه فتلقاه
يسرة واغايته يأتك هذا المكر بحذقك بعنان فرسك وان خرجت
الى فارسين وتفرقا فاحمل على الادنى واذا كانا قريبين فارأ أحدهما
انك تريد رفيقه واحمل عليه ولا تتم حملتك ثم اعدل على الآخر
واصدقه الحملة وان حذقا ورأيتهما يفترقان عليك فتطرف

ولا تتوسط واحمل على الادنى اليك فان تساويا فادهش الاضعف
واحمل على الاقوى فان تساووا وكانوا جماعة فامتد أمامهم حتى
يتبعوك ثم كر على الادنى منك فاطعنه وان دخلت مضيقا فلقاك
فارس برمح فاياك والمصادمة بل انزل الى الارض واطعنه وان كان
خلفك فارس وقدامك فارس فى مضيق فانزل وتحيل واقصد
أقربهما اليك وتترس من الآخر بدابتك واربط فى طرف اللجام
مستعملا ناطو يلا تحفظ به الفرس الى حين حاجتك اليه واحذق فى
التعطيل وهو ان تعارض رمحه عند دنوه منك فتعطله عن الطعن
واجعل رمحك فوق رمح خصمك واذا تمكنت فاضربه وبطله وان
كان رمحك تحته وأخطأت صار رمحك الى الارض وتعطل والفتل
ان تفتل الرمح وتدفعه برمحك وتدخل فتطعنه وبعضهم يعطل الرمح
بالمقرعة وبالدبوس * واذا كان فى رمحك علم فاحذر ان يغطى وجهك
أو وجه فرسك فان الريح يفعل ذلك فتدبره أولا واجعله من ناحية
لا تضرك فان غلبك الريح فاطرحه على عاتقك وافتل العلم عليه فانه
ينقص قوته وبالجملة فانه معوق غير مفيد واذا أردت الوثوب فخذ رمحك
بيدك اليمنى وقربوس السرج بيسراك واتكئ على الرمح وثب تصر فى
السرج مستويا

الباب الخامس

(فى تولية الاعمال والامصار)

ولاية المدينة هى الرتبة الاولى من السياسة العظمى فيجب على والى
المدينة أو صاحبها ان يكون فيه من السياسة والحفظ والضبط
وحسن التدبير ما هو مذكور فى الآداب الملوكية ثم يصرف همته

الى التحصين والاشتغال به وهو الأهم كتعلية الاسوار وحفر
الخنادق وسد الثغر وقطع المواضع المشرفة عليها وسد المسارب
النافذة نحوها وترتيب الرجال بابراجها والحراس على أسوارها
والطوف بطرقاتها وحفظ أبوابها وتوكل الثقات بحفظها وان كانت
البلد صغيرة فتقلل أبوابها كيف أمكن وتحفظ دروبها وأرباعها ولا
يهمل أمرها فان الملك في مدينته أو قلعته كالرجل في منزله * ولا ينبغي
ان يترك في المدينة أهل التعصب والاهواء فانه منشأ الفتن وكانت
ملوك الفرس تمنع من الانتساب الى القبائل لهذا السبب وكان أكثر
غرضهم تأليف أهل المدينة على نظام مستقيم وهو الاسوس والاصلح
فانما يحتاج الى التجمع وأما انتساب أهل البراري والفلوات فلحماية
بعضهم عن بعض وتعطف بعضهم على بعض والعصبية في المدن
تؤدي الى خرابها والاستيلاء على ملوكها وكثيرا ما خربت بلاد
بالمشرق مثل أصفهان والري وغيرهما بالتعصب في المذاهب والآراء
وقال بزرجمهر كل جمع غير جمع السلطان وكل سيف غير سيفه فهو
عليه لا له وعليه قهره وازالته وكذلك يمنع أهل البلد من البطالة فانها
تدعو الى الشرور والافساد بل يجب ان كل طائفة تنعكف على شغل
من الاشغال أو فن من المصالح العائد نفعها عليهم وعلى المدينة * قيل
لما فتح كسرى أنوشروان مدينة انطاكية أحضر المهندسين وأمرهم
بالنظر اليها وتصويرها ثم أمرهم ببناء مثلها بالعراق فبنوها بالنهروان
بالقرب من بادرايا ثم لما حصل السبي اليها انطلق كل واحد الى مثل
منزله وكأنه لم يتغير عليه شيء وكانت هذه من عجائب أعمال كسرى
ويجب على والي البلد من المصالح أن ينظر في تحسينها وتزيينها فيأمر

بعمارة

بعمارة ما فيها من خلل وخراب فالخراب موت والعمارة حياة فينبغي لواضعها ومرتبها أن يفرد كل سوق على حدته حتى لا تتجاور الصنائع الخسيسة مع الصنائع النفيسة وان كانت المدينة كبيرة فلا بد من تفرقة بائع الطعام على مواضع كثيرة لان الحاجة اليه متكررة فيشق على أهلها التردد الى ذلك ويتقدم بأن تكون أرباب الصناعات القذرة في أطراف البلد بمعزل عن المواضع المتوسطة منها وذلك مثل المسالخ والمدابغ ومسابك الزجاج والحديد واتاتين الجير والآجر وعمل الصابون وما أشبه ذلك وينظر في توسعة رحابها وتعلية سباطاتها وسقائفها ولا يمكن أحدا من تضييق الطريق واحداث ما يضر بالمارة ويولي الحسبة لمن يثق بدينه وأمانته وهيبته فينظر في أمر الموازين والمكاييل ويضبط أمور الرعية من الباعة وأصناف السوقة ولا يمكنهم من ظلم أحد ويعاقب من اطلع له على غش أو وكس وينظر في تنظيف الطرق والرحاب من الاوساخ والاقذار ان كانت من بيت المال والافيأمر كل قوم باصلاح ما يليهم ويتفقد حال المياه وصيانتها ولا يمكن من افسادها بالارواث ولا بالمصبات والقنوات والاسراب لان الماء مادة الحياة فاذا افسد فسدت الاجسام لما يكسبها من الامراض وتتغير الانفس والاخلاق على ما ذكره أرباب الطب والطبائع ويتبع فساد المياه فساد الابخرة والاهوية المحيطة بالاجسام ويتقدم باصلاح القناطر وفتح المسالك وحفظ ظواهرها وضواحيها وأمن مسالكها من القطاع والسراق كل هذا من الحقوق اللازمة على الملوك في مدنهم ويتقدم باصلاح المساجد وعماراتها والقيام برواتبها ومصالح قومتها ومجالس الذكر وينظر في

فنادق السبيل وبنيه والبيمارستان ومنازل الفقراء ويتقدم باصلاح ماقسد وتجديد مادثر ويتفقد حال الضعفاء والفقراء والعاجزين عن التكسب والبطالين فيفرض لهم مايقوم باودهم كل هذا بعد ترتيب الولاة وتقليد الكفاة مثل القاضى والوالى والمحتسب وعرفاء الاسواق وأمناء الصناعات والمقدمين وشيوخ الدروب وأصحاب الارباع كل ذلك من ضوابط البلد ولوازمها

الباب السادس

(فى حفظ الثغور والقلاع وما يجب من أمورها)

قد ورد فى الرباط والمثاغرة من الفضل والثواب مايطول بشرحه الكتاب * فى البخارى عن سهل بن سعد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وذكر باقى الحديث *وفى الترمذى عن فضالة بن عبيد عن النبى صلى الله عليه وسلم كل ميت يختم على عمله الا الذى مات مرابطا فى سبيل الله فانه ينمو عمله الى يوم القيامة * والذى يجب على الملك الفاضل أن يصرف معظم عنايته الى حفظ الثغور وضبطها فان من أهمل ذلك دخل على ملكه ورعيته الخلل والهلاك وكان بعض ملوك الفرس يقول لحاجبه لاتحجب عنى رسول الثغر وان كنت نائما أيقظنى ليلا أونهارا *وليكثر فى الثغر من الشجعان وذوى البصائر فى القتال وأهل الحمية والانفة والدين المتين فيمثل هؤلاء تصان الثغور ثم يكثر لهم الدروع والخود والرماح والسيوف والقسى والجروخ والدرق والتراس وجميع آلات الحرب والزيارات والمجانيق ويرتب الحراس على الابراج والحفاظ للشرفات ليلا ونهارا ويحتاط فى فتح الابواب وفى غلقها فلا

يكون فى وقت الغلس ولايهمل أمر ظواهر البلد وضواحيه من المطالع وارصاد العيون من جهة العدو لئلا يهجم عليه ويطرق ثغره وهو غافل ثم يوسع فى نفقاتهم ويدخر أقواتهم ويزيح أعذارهم فى ذلك وكذلك الكسوات وجميع الآلات ويحسن الى واليهم ومقدمهم ويرفع قدرهم ويؤلف بين كلمتهم على المصالح العائدة نفعها فى حراسة ثغرهم وحفظه * كان كسرا انوشروان لايولى الثغور الا لمن جاوز الاربعين من ذوى الشهامة والرأى والشجاعة والحمية ويخلع عليهم فى كل سنة مرتين ليعلم مكانتهم عنده وتنفذ أوامرهم وخلعته كسوة تامة وسلاح تام وقوس وعلم وخيمة * وينبغى أن يتفقد السلاح فى كل سنة فيرم منه ماتشعث ويجدد ماعتق ويعوض مانقص وكذلك جميع الآلات ويتفقد أهل الثغر بالكسوات والنفقات ويرتب لهم الاطباء والجراحين ومايحتاجون اليه من الادوية والاشربة والذخائر من سائر الاصناف ويحذر كل الحذر أن يكسر لهم جامكية شهر على شهر فيدخل عليه الخلل ويفسد حال أهل الثغر ويعملون عليه الانكاد

الباب السابع

(فى الحروب والمصافات وتعبية العساكر وماينبغى لاهلها وولاتها وصفة المصاف)

الحروب هى عوارض من حوادث الزمان كالامراض كما ان الامن والسلامة كالصحة للاجساد فيجب حفظ الصحة بالامور السياسية ودفع المرض بالامور الحربية والاشتغال بحفظ الصحة حتى لايؤدى الى مرض أولى من اهمال ذلك وأحزم الملوك من لم يلتمس أمر عدوه

بالقتال ما وجد الى غيره سبيلا فان النفقة فى القتال من الانفس والارواح وهى غير مستخلفة وفى غيره النفقة من الاموال والاعمال والعلوم فليكن أمر السائس على ما ذكرناه * قال معاوية بن أبى سفيان أنى لا أضع سيفى فى موضع يقوم فيه سوطى مقامه ولا أضع سوطى فى موضع يقوم فيه كلامى مقامه والاقدام على الحروب يكون لسبعة أغراض أولها الانشاء دولة والثانى التقرير دولة نشأت والثالث وثوب دولة عادلة على دولة جائرة وهو قتال البغاة والخوارج والرابع حرب بين أهل الملتين وهو الغزو والخامس ضم دولة ومملكة الى دولة أخرى كانتا عادلتين أو جائرتين والسادس حرب فتنة وسلب من غير تقرير ملك ولا انتظام أمر ولا تحيز الى فئة والسابع حروب تقع بين القبائل وأهل العصيان على أسباب ضعيفة المبنى مجهولة الغرض مثل الحروب المتقدمة فى الجاهلية على فرس أو ناقة وحروب اهل الجبال والكرد والتركمان ولكل واحد من هذه الحروب قوانين وصفات وأوضاع نشرح منها ما يمكن الاختصار فيه فى صفة حروب الغزاة والخوارج والبغاة

(فصل) والذى يجب تقديمه ان الملك أو والى الحرب يجب أن يتخير ذوى الشجاعة والحمية وأهل الدين والعصبية فيوظف لهم الوظائف ويوسع عليهم النفقات ويحسن اليهم عنايةوم بصالح شأنهم ونفقاتهم لعيالهم ودوابهم والقيام بمصالح خدمهم واتباعهم وسلاحهم وكراعهم ثم يؤمر عليهم من أهل لغتهم من جادت سياسته وحسنت سيرته وأمنت غائلته ثم يزيد تقديمه واحسانه لمن ظهرت شهامته وربحت بسالته وكان صبره وثباته أكثر من تهوره واقدامه

فان ذوى الجراءة والاقدام يتورطون فى المهالك والاهوال فيجب أن يكونوا تابعين لامتبوعين قال المتنبى

الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة * بلغت من العلياء كل مكان

وينبغى للملك أن ينصب لاهل الحرب قصاصا وخطباء يذكرونهم الحرب والوقائع الماضية والغزوات السالفة ومواقع الشجعان ومصارع الفرسان وما وعد الله للشهداء والمجاهدين من الثواب فى دار النعيم وان أمكن الوالى أن يفعل ذلك بنفسه فلا بأس فانه مما يؤلف الهمم ويقوى العزائم ويشد نفوس أهل الحرب قال الله تعالى يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال وقلما كان عليه السلام يعزم على حرب الا ويخطب أصحابه وكذلك الصحابة والتابعون * وان خرج الملك بنفسه الى الحرب فليبعث الجواسيس ويحقق أمر العدو وما هو عليه ليقدم على خبرة وبصيرة فاذا فهم أمر عدوه واطلع على كنه حاله ومدار سياسته وتدبيره فليقابل ذلك بما يقتضيه وان أمكنه السعى فى تفريق كلمة أصحابه فليجتهد فى ذلك فهو الاصلح فان عجز عن استئصالهم أو تفريقهم واقتضى الحال الحرب فليرتب أصحابه وليعب جيوشه ويأمر كل أمير بحفظ مركزه وصيانة طلبه ويرتب الطلائع من جهة العدو ويتقدم على تعبيته فاذا قرب اللقاء فلا يهمل أمر الشمس ويجتهد أن تكون فى وجه أعدائه وكذلك الريح (كان) النبى صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فى حروبه وقد انتظر زوال الشمس فى كثير من غزواته ثم قاتل وان أمكنه أن يجنب المواضع الكثيرة الغبار والسباخ والمواحل والوعر فعل

ويتحرز من قرب المواضع التي يتوقع منها خروج الكمين الا بعد البحث والكشف فان الكمين وان قل عدده اذا خرج على عسكر كثير بدده * ويجب على الملك قبل الحرب الفحص عن الارض ومكامنها وحفائرها ومخايضها وطرقها ومناهلها ومعاطشها ليكون على بصيرة بمن معه ان كانت الكرة له أو عليه واذا دخل أرض العدو فليتحفظ من المضايق والدربندات فربما أمسكت له أواخرها أو أوساطها اما أوائلها فلا يمسكها ويسدها الا الضعيف العاجز الذي غاية مقصوده رد خصمه وكفاية شره وضره فان دعت الضرورة الى ذلك وجاز المضايق بعد كشفها واحاطة العلم بخلوها عن محارب بها فينبغي للملك أن يشحنها بالرجال الانجاد ويتركهم بها يحفظونها الى حين عوده كاسرا أو مكسورا الا أن يكون له مسلك آخر فلا يحتاج اليها * ثم يجتهد في دخوله أرض العدو من التهجم على شرب مياه الآبار والغدران والاحواض فربما كانت مسمومة ولذلك علامات يعلم بها من تغير لونه أو طعمه أو ريحه أو صعود هالة على وجهه كالقشرة أو غليان وحركة تكون فيه فاذا أحكم ذلك وعلمه فليبادر الى المنهل قبل سبق عدوه اليه فيظمأ وربما كان العطش أحد أسباب الهلاك * وكذلك يتحفظ بالمناهل اذا كان عوده اليها لئلا يعقبه بعده من يفسدها فاذا عاد وهو ظمآن لا يجدها وكما انه يحترز من قلة المياه ومضرتها فكذلك يحترز من كثرتها فربما كانت الطريق على سباخ أو أرض رخوة وفتحت المياه اليها فيهلك من توسطها كل هذا ينبغي لوالي الحروب أن يفعله وينظر فيه ويعلم تفاصيله كما يجب على الطبيب تقدمة المعرفة بمواد تفاصيل المرض وأسبابه

وبحاربته والعوارض التي تتوقع واذا رأيته قبل علاجه ومداوته

(فصل) يتضمن نصائح حربية سياسية من كلام ملوك الفرس واليونان وحكمائهم (قال) ما جاسب أصل الحرب استشعار الظفر وتقريره في النفس حتى ان الفريقين اذا استشعر واذلك اشتدت الحرب وتكافأت فليقل الملك لخواصه وأركان جيشه ما يقوى به متنهم ولينصب الوعاظ والمذكرين لخطابتهم بما يقوى به نفوسهم ويشعرهم النصر فيتشجع الجبان وينشط الكسلان وتتقوى عزيمة الشجاع واذا كان العدو من أهل الترفه والتنعم كان قتالهم أسهل فيسلط عليهم الاشقياء أهل الجفاء والجوع والتعب فالقليل منهم يبيد الكثير سيما ان أطمعوا بالاستيلاء على أموالهم ونعمهم فان ذلك يزيد في حرصهم وتسلطهم واذا كانت الحرب بقرب جبل أو بحر أو نهر فل اليه أما الجبل فلعلك ان تستظهر به لحصانته وأما النهر فللعطش أو لمنع العدو منه اذا كان النهر فيه مسلك أو مخاضة أو مركب أو قنطرة والا فالبعد عنه وعن البحر أولى لان الاضطرار اليه أحد المهلكين * ومن دخل الى أرض العدو فليكثر من الزاد والماء وان لم يحتج اليه فانه على غرر من عدم حصول شيء منه وقد يضطر الى المقام بها والتوغل فيها واذا رأيت الرقة والضعف من العدو فانظر هل يمكن أن يكون وراءه قوة كمين أم لا ثم اجعل الحملة عليه واصدمه لتحمله عن موضعه فاذا أردت جذبه اليك فأضعف موضعا من عسكرك وكن لهم وجنح فاذا اصدموه فأطبق عليهم وقد يحيل مقدم الجيش بأن ينصب أعلاما على رؤس الجبال والروابي وحولها من سواد العسكر ودوابهم ما يوهم ان وراءها مددا كثيرا فيقع

الرعب في قلب العدو ولا يقدر على الدنو من تلك النواحي وهكذا فعل
طاهر بن الحسين لما لقي علي بن عيسى أخذ قافلة صحبته من التجار
واستدعى جماعة من الفلاحين وأهل القرى فوكل بهم من يحفظهم
ورتبهم على رؤس الجبال ونصب عليهم الامراء ومعهم الاعلام
والكوسات فلما عاينت أصحاب علي بن عيسى ذلك ضعفت نفوسهم
وتقدم اليهم طاهر فصدمهم وكسرهم وقتل علي بن عيسى وظفر
بسواده وسار الى بغداد وكان من أمره ما كان (وقال) أهل
السياسة اذا حضر الحرب ولم يكن منها بد فالمبادرة اليها أولى من
الاشتغال بالدفع ومن استقرأ أحوال الماضين وحروب المتقدمين
علم ان البدرة لابد في أغلب الاحوال (من ذلك) قصة بهرام جور
وهي من عجائب السير لما قصده خاقان الاكبر ملك الترك في مائتي
ألف فارس ودخل أرض الفرس يستبيحها ويطوي ممالكها
بعث الى بهرام جور وهو يومئذ بالعراق ان أصلح ما قبلك من الطرق
والجسور والانهار فاني أريد الوصول الى العراق وكان بهرام جور
مشتغلا باللهو واللذة مع ندمائه وجواريه فاجتمعت عظماء الفرس
اليه مرة بعد مرة ينهضونه ويحركونه لتدارك مادهمه وهو
لا يزيدهم غير الوعد والتسويف ويقول في أثناء كلامه ان ديننا هو
دين الحق وان الله تعالى عودنا النصر ووعدنا أن لا يخذلنا ثم ينعكف
على شأنه ولذته فاجتمع العظماء وتشاوروا وقالوا هذا رجل ناثم مغرور
ولا مطمع في فلاحه ومن المصلحة ان نكاتب هذا الجبار خاقان
ونصانعه على خراج نحمله اليه من بلادنا ونستكفي شره وتسلم
البلاد من مضرته فانه ان وطئ البلاد أخربها ودمرها فضلا عن

أخذ أموالها وسبي ذراريها وهلاك أهلها ففعلوا ذلك وبعثوا اليه
بالهدايا والتحف وبين يقررا هم ذلك معه فطمع خاقان وتوسط بلاد
الفرس وأطلق خيله ترعى في المروج وجلسوا يأكلون ويشربون
والرسل ترد عليهم والاموال والهدايا والاقامات تتواصل اليهم
ثم ان بهرام أظهر أنه يريد الخروج الى الصيد في البرية وأنه يغيب
عشرة أيام أو ما يزيد عليها بنواحي اذربيجان ثم يريد أن يزور بيت النار
الذي هو بها وهو لهم حج فتخيل للناس أنه يريد الهروب وتعلل بهذه
العلل فاختار من عسكره تسعمائة فارس وجعلهم ثلاثة أقسام قسم
هو فيه وقسم وراءه وقسم أمامه وأخذ معه شيأ من الجوارح وآلات
الصيد ومن الزاد والاطعمة وأخذ معه صناديق وفيها من الاسلحة
والدروع ما لم يشعر به أحد وظن الناس أن أمواله فيها وتحققوا
هروبه واستخلف مكانه أخاه نرسي وسار بهرام مع عسكره المنتخب
والادلاء في غير الطريق المعروفة وجد في السير لا يلوي على شئ حتى
قرب من الارض التي فيها خاقان على غير الجادة وهو غار غافل قد طغى
ولهى بما طمع من الاستيلاء على البلاد وببذل الفرس له الخراج
والهدايا فضم بهرام أصحابه وخطبهم خطبة بليغة قال فيها اني لم
أدخركم الا لهذه الحالة واعلموا أن بيننا وبين الترك كذا وكذا واني
مبيتهم فانهم باغون علينا عاصون لربنا فاركبوا على اسم الله وخيرته
وسيروا على أطلابكم مع أدلائكم والعلامة بيننا كذا وكذا فاحملوا
بحملتي واظهروا بعلامتي واصدقوا القتال فالنصر وعده صادق ثم
سار في جماعة من البازدارية وأمرهم أن يترفعوا على رؤس الجبال
فاذا سمعوا الوقعة نشروا الاعلام وضربوا الطبول ليظنوا أنها

عساكر أقبلت وأخلى لهم ناحية الهروب فصبحهم قبل السحر وهم نيام عراة ودوابهم سارحة فى مراعيها فوضع فيهم السيف والقتل فقاموا مذعورين وتهاربوا على وجوههم وهرب خاقان واستولى بهرام على أمواله وأثقاله ومن كان معه من الحريم والذين هربوا تاهوا فى الطرق وهلك أكثرهم فى المعاطش وبالجوع وعاد بهرام الى بلاده مظفرا منصورا والفرس فى خجل منه وكانت هذه تعد من عوالى الهمم وعجائب السعادات (تحقيق) ان تكلف أمرا من أمور الحرب أن يترك اللذة واللهو ويشتغل فيما هو بصدده حتى ينقضى أمره (كان) المنصور فى مدة خروج أولاد الحسن عليه قطع اللذة والشراب وكذلك الرشيد والمأمون والمعتصم وجميع الحزمة من الملوك اذا دهمهم أمر اعتزلوا ذلك حتى النساء كما قيل

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت باطهار

وأما امرؤ القيس فآلى أنه لا يشرب خمرا ولا يغسل رأسه حتى يأخذ بثاره من بنى أسد فلما جمع لهم وكسرهم وتبهم وقتلهم قال

حلت لى الخمر وكنت امرأ * عن شربها فى شغل شاغل

فاليوم فاشرب غير مستحقب * اثما من الله ولا واغل

(فصل فى المصاف وتعبية العساكر للحرب) يستحب لوالى الحرب أن يكون فى عسكره جماعة من الشجعان غرضهم كغرضه وسرورهم بالظفر كسروره متدربين عارفين بالامور الحربية وأنفسهم من الفشل والهرب فى غاية من البعد فيعول على هذه الطائفة ويقدمهم ويجعلهم مقدمى أجنحته واطلابه فان الملك الحازم كثير المنفعة وأكثر ما أتيت العساكر من نقص رؤسائها والتجربة فى ذلك كثيرة ثم

ان العساكر لا تخلو من الاوباش والجبناء وهم بمنزلة الحشو والقليل منهم يكثر السواد ولا يضر والكثير تعود على الجيش مضرتهم لانهم بأول صدمة يهربون ويكسرون من جاورهم ومن وراءهم لا محالة ويعجز الشجاع عن الثبات على تلك الحالة فينبغي أن يكون الى الملك العسكر المعول عليه وفي القلب الملك والاعلام والاثقال على جنب ثم ان الواجب أن يخفي الملك مكانه يوم الحرب حتى لا يقصده العدو ولا يقع القتل به بل ينتقل من موضع الى آخر ويرتب أصحابه والاخبار والرسل تأتي الى نائبه تحت العصائب وهو يردف كل مكان كثر العدو فيه بطائفة من عساكره * وأما الاجنحة فتكون أهل دربة وخبرة بالحروب والطلائع تكون أصحاب الخيول السبق والرمي والخفة في الطراد والمقابلة والساقة وأهل القلب يجب عليهم الثبات والصبر والجد وأهل الحرب يتناصحون فيها لهذه الاسباب أو لبعضها وهي الدين أو الحمية والتعصب أو القرابة أو الصحبة المتقدمة أو النعمة الوافرة والاحسان أو الاطماع لبعض الناس وأما بالخوف أو بالتكليف أو بالاجرة الغير المرضية فلا يكاد تكون مناصحة وينبغي أن يحتاط في تكثير السلاح واعداد الجنائب وكثرة السهام ولا يهمل أمر المياه والاشربة فان العطش ليس معه صبر ولا حرب وكثيرا ما كسرت العساكر بسببه من ذلك كسرة حطين حين نصر الله الاسلام على الكافرين كانت من أقوى أسبابها العطش فان المسلمين حالوا بينهم وبين بحيرة طبرية والوقت صائف وهم ملبسون فعطشوا وفني ما كان معهم من الماء فأخذوا بأسرهم * ولا يهمل أمر العلوفات وتسهيل الطرق والاقامات وترتيبها في المنازل

وجـل ماتدعوالحاجة اليـه منها فربما أمكنت المطاولة فى الحرب فيحتاج ان يكون معه ذخائر وتسمية العسكر بالكتيبة لانضمام بعضه الى بعض كالكتاب وقد ذكر فى الكتاب العزيز ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص واذا كثر فى العساكر الاثقال والحشو والضعفاء فينبغى أن يفردهم عن الجيش فى مكان بعيد من التناول قريب من التحصين ويوكل بهم من امرائه من يدبرهم ويحفظهم ولا ينبغى للملك العظيم أن يباشر الحرب بنفسه ففيه خطر عظيم فان ظفر كان مهورا وان ظفر به هلك بسببه خلق كثير بأيسر تعب وخربت البلاد واتسع الفساد لانه كالرأس للجسد بل كالروح لها ولهذا قال أفلاطون الملك هو نفس لجسد الجيش فينبغى أن تكون اليه الامور النفسانية من التدبير فى نظام الجيوش فيكون اليها مايتعلق به من السعى والبطش والحركات الجسدانية وهو يكون المحرك لها وكان بعض الملوك يجلس على السرير والناس حوله يقاتلون بين يديه * (صفة تعبيه للحرب للفرس) * تصف الجيش صفا وبينه مواضع منفرجة كالدروب وتكون الرجالة امامه والناشبة تتقدم للمناوشة فتصل الى العدو ثم تعود وقد ذكر عليها فاذا وصلت الجماعة خرجت عليها تلك ثم تمتد الى الصفوف وتترامى وتتطاعن ثم يشتد القتال والضرب فيتجالدون بالسيوف (تعبية أخرى) يرتب الطليعة امام الجيش ثم يقسمه على ستة أقسام متباعدة عن بعضها متميزة منها جناحان على اليمين وجناحان على الشمال والقلب فى الوسط وورائهم الساقة وفيها من السواد والطبول ومالا بد منه من الاثقال وان أمكن أن يكون امام كل طلب

رجالته فلا بأس به أولا فان موضعهم امام القلب وتتقدم الاجنحة وتناوش القتال ثم الرامحة ثم المجالدة بالسيوف (تعبية أخرى) تصطف الرجالة ووراءها ثلاث صفوف من الخيالة وبعضهم يجعلها سبعة والآخر هم الرماة بالنشاب ويكون كل صف كالسور المانع لمن أمامه فيشتد القتال ولا يمكن الهروب وهذا تفعله بعض قبائل الترك * والغلبة والنصر يكونان بالتدبير الالهي وقد سبب له أحد هذه الاسباب اما كثرة العدد والعدد أو جودة النية والفروسية وحسن المعرفة بها والشجاعة أو حسن الكيفية أو الصبر والثبات أو الحيل والمكايدة وقد نطق القرآن بفوائد الصبر قال الله تعالى ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين الآية ومتى كان جيش العدو كثيرا وصفوفه ممتدة فمن الرأى لمحاربته تفريق عسكره اطلابا تحيط به من جهات متفرقة وقواعدهم على الجملة ان اقتضت أو المزاحفة أو المصابرة حسبما يقتضيه الوقت فانه يؤدى الى انتقاض ترتيب عسكر عدوه وذلك ان الصف الواحد أو الصفين لا يبقى بمقابلة طلب يكون قبالته فيضطرب لذلك وفى الاطلاب والكراديس لا تظهر القلة وفى الصفوف تظهر ثم عند اللقاء تضرب الطبول والكؤسات وينفخ فى الابواق وتنشر الاعلام وقد كان ملوك اليونان يحملون بطبول مفزعة وبقاقم صياحة صياحا منكرا موحشا وباعلام فيها تماثيل هائلة وألوان مختلفة تدخل فيها الريح فتجفل الخيل منها (ولما) كسر ملك الهند ذا القرنين فى أول حروبه لم يكن سببه سوى هروب الخيل من الافيلة فلما عاد الاسكندر أمر ان يصور فى عسكره صور الافيلة من اللبود السود وغيرها وقرب الخيل الى

ثلاث الصور وأنسابها وجر كتها ثم عاد الى قتال الهند فكسرهم
* وينبغي أن يتخذ الكمناء ويحترز من أن يكون لهم كمين فاذا اتبعهم
خرجوا عليه (قال) ارسطاليس حبب الى أعدائك الهروب
ولا تتبعهم * وقال في وصاياه الحربية احذر من انتقاض التعبية
وكيد المستأمنة * وقال أبو مسلم الخراساني عول على ثلاثة من رجال
الحرب اما محام عن دينه متعصب في الله واما غضب للدولة موتورا
وأما محام عن الحريم * وينبغي السكوت وقت الحرب قال عتبة بن
ربيعة لاصحابه لما رأى قتال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أما
ترونهم خرسا يتلاظون تلاظ الحيات والصياح المختلف وهن وفي بعض
الاوقات يؤثر وكان شبيب الحروري له صياح هائل عند الحروب
وللفرس في حروبها أصوات هائلة مزعجة تفزع من لا يعهدها اذا
سمعها وابعضهم في وصف عظم الصوت

انا صاح يوما حسبت الصخر منحدرا
والريح عاصفة والموج يلتطم

واياك أن تقلد الامر جبانا ولا تجعله على الاجنحة فانه يخذل أصحابه
لما يشاهدونه من هلعه وجبنه * وفي البخاري عن أنس قال كان النبي
صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اني أعوذ بك من الهم والحزن والكسل
والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال * وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة
قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول شر ما في الرجل شح
هالع وجبن خالع * وينبغي أن يقرر مع أصحابه علامة يفهمون بها
بعضهم من بعض ولا يفهمها غيرهم * وفي النسائي عن علي بن أبي
طالب رضي الله عنه قال كان سيمانا يوم بدر الصوف الابيض وفي

موطن آخر قولهم يامنصور أمت وينبغي أن ينهى أصحابه عن النهب
في جماعة لو انسبب ذلك عن التوقي والاحتراز فكان فيه هلاكهم
والقتال مع الرجالة صعب لانهم ان ظفروا اخربوا وسبوا وأتلفوا
وان كسروا هربوا وكذلك دأبهم وقل أن يرجع عليهم الا أن يحاط
بهم ولما كتب الحجاج الى قتيبة بن مسلم يحرضه على قتال الترك بما
وراء النهر فكتب اليه انهم طائفة شديدة الطلب قليلة السلب
(فصل في الغارات والسرايا) اذا نزل والي الحرب بمكان يركن
اليه وجاءته الجواسيس بأخبار صحيحة عن عدوه قبل الحرب أو بعدها
ورأى من المصلحة انفاذ سرية الى بعض النواحي فليؤمر عليهم من
يرى نجابته وصلاحه لذلك وليكتم ذلك جهده وليور عنه بغيره
فقد روى ان النبي عليه السلام قلما كان يخرج الى غارة الا ورى عنها
بغيرها * وفي صحيح مسلم عن أنس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم
يغير اذا طلع الفجر وكان يستمع الاذان فان سمع اذانا أمسك والا أغار
* وينبغي لولي الحرب أن لا يهجم عليها هجوما ولا يقاتل الاعداء الا
بعد الانذار وكذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم * وفي
سنن ابي داود عن أبي هريرة قال النبي عليه السلام امرت أن أقاتل
الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده
ورسوله وأن يستقبلوا قبلتنا وأن يأكلوا ذبيحتنا وأن يصلوا
صلاتنا فاذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم الا بحقها لهم
ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين * ولا ينبغي أن يمثل ولا يعذب ولا
يقتل الصبيان ولا النساء ولا الشيوخ ولا المرضى ولا الضعفاء * وفي
البخاري عن عطية القرظي قال عرضنا على النبي عليه السلام يوم

قريظة فكان من ثبت قتل ومن لم ينبت خلى فكنت فيمن لم ينبت
فخلى سبيلى * وفى النسائى عن أبى هريرة قال بعثنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم فى بعث وقال ان وجدتم فلانا وفلانا الرجلين من قريش
فأحرقوهما بالنار ثم قال عليه السلام حين أردنا الخروج انى كنت
أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا وان النار لا يعذب بها الا الله فان
وجدتموهما فاقتلوهما * وفى صحيح مسلم عن بريدة بن حصيب قال
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أمر أميرا على جيش أو سرية
أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال اغزوا
بسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا
ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم
الى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم
ثم ادعهم الى الاسلام فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم
الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأخبرهم انهم ان فعلوا
ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فان أبوا أن يتحولوا
منها فأخبرهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله
الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء الا أن
يجاهدوا مع المسلمين فان هم أبوا فسلهم الجزية فان هم أجابوك فاقبل
منهم وكف عنهم فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وذكر باقى
الحديث فيما يتعلق بالحصار * ولا ينبغى أن يقتل النساء ولا الصبيان
فقد ورد فى الصحاح عن ابن عمر قال وجدت امرأة مقتولة فى بعض
تلك المغازى فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء
والصبيان * ولا يقتل من أعطى الامان وفى البخارى عن عبد الله

ابن

ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من أربعين سنة * وفى الصحاح عن أم هانئ انها اشتكت الى النبي عليه السلام عام الفتح فقالت يارسول الله زعم على انه قاتل رجلا قد أجرته فلان بن هبيرة فقال عليه السلام قد اجرنا من أجرت * وفى النسائى عن عائشة قالت ان كانت المرأة لتجيز العهد على المسلمين وفى رواية أخرى الوليدة

(فصل فى ذكر بعض ولاة الحرب) لم يكن فى الدولة الاموية أعظم من حروب الازارقة بعد حروب الصحابة والذى تولى معظم حربهم المهلب بن أبى صفرة ولا فى الدولة العباسية أعظم من حرب البابكية المحمرة والذى ظفر ببابك هو الافشين التركى ومن اطلع على ما جرى فى هذين الحربين اطلع على كثير من الحيلات والمخادعات وأنواع المقاتلات والمصافات والحيل الحربية ما يفيده كثيرا من التجارب والمخادعات وأما المخادعات الثناء وسيئة فهى أخبار الخوارج مثل القرامطة والحرورية (نقل) ان ابن بابك الخرمى كان يوهم أصحابه انه يعلم ما فى باطنهم ويفهم واليه وناصحه من عدوه وغاشه وانه تقدم يوما الى من يريد الفتك به فقال له أريد منك ان تلبس غدا أحسن السلاح وتخرج من ليلتك فتصير فى الكهف الفلانى أو الحربة الفلانية فانى مبكر عليك فى أصحابى فاذا حاذيت موضعك فاخرج شاهرا على كأنك تريدنى حتى أعلم من أصحابى أى أشد نصرة لى فانهم اذا ابتدروا اليك نهيتهم فمضى ذلك الرجل فى سلاحه الى حيث أمره ثم قال لاصحابه ان فيمن أحسن اليه من أصحابى واحنو عليه من يغشنى ويريد هلاكى وأنا أعلم ذلك واغضى عنه فتبرموا من ذلك

وقالوا معاذ الله ان يضمر لك أحد من أصحابك سوأ أو مكروها فقال
بلى ومن جملتهم فلان ثم عزم على الخروج الى الصيد فخرج معه
أصحابه مبكرا ومر بذلك الموضع فخرج عليه ذلك الشخص الذى
أعده له ما أعده فبادرت اليه أصحاب بابك بالسيوف والدبابيس وهو
معهم فقتل قبل ان يتكلم فعظم خوف أصحابه منه وتوهموا انه يعلم
ما فى ضمائرهم (وقال) كسرى فى خطبته الكبرى معاشر الجند
والمرازبة ان فيكم قوما يبطنون الغش لنا والحقد وهن لا يخفى علينا
ذلك فانا نلمحه فى أسارير الوجوه فاذا دخل علينا كارهنا ظهر لنا من
لحاته ونظراته وفلتات لسانه فننقبض عنه لنختبر صحة ذلك فلا تزال
شواهده تظهر حتى نقطع بصحته ونبت الحكم فيه فأوهم أصحابه انه
يطلع على بواطنهم فلا يراه أحد قد انقبض الا توهم وخاف وان كان
على حالة رجع عنها (ويحكى) ان نصر بن نوح السامانى كان قد اتخذ
جماعة من الجند والرعية فاحسن اليهم سرا ووسع عليهم فى النفقات
وأظهر عنهم الاعراض وحجبهم ورد من يشفع لهم فاذا كان له غرض
فى بلد من البلاد أظهر شدة الغضب عليهم ونفاهم فينصرفون الى
تلك الناحية التى يريد فيبلغونه غرضه اما بانهاء أخبار أو بتضريب
أو باعانة فى موعد وقد فتح قلاعا وبلادا كثيرة على جيحون بهذه الحيلة
وقد كان بعض الملوك يحبس قوما ويقيدهم ويشهر ذلك ثم يتغافل
عنهم ليهربوا وقد رتب ما يفعلونه فينال بهم غرضه (ويحكى) ان خالد
بن ملكان كان فى بعض أسفاره مع قحطبة فنزل فى صحراء يتغدى
والعسكر قد نزعوا ثيابهم وسرحوا فى المرج خيولهم وشرعوا
فى الطبخ اذ صاح قحطبة معاشر الناس اركبوا فان الخيل تدرككم

وركب والح على خالد فمات. كاملوا على خيولهم الا والغبرة قد ظهرت من صدر البرية ثم ظهر سرعان الخيل فصادفهم على يقظة وأهبة وكان ذلك سبب سلامتهم والانتصار عليهم فسئل عن معرفته بذلك فقال رأيت الوحش قد أقبلت من البرية جافلة ملتفة من أصناف فعلمت انه امطار ودة جافلة من عسكر قد راعها فكان كما ظنت وكثيرا ما جربت ونظيرها ته الحكاية ما قالت حذام لقومها وقد نزلوا فى فلاة من الارض وكانوا قد تحاجزوا مع محارب بينهم من بنى عمهم فلما كان الليل مرت بهم اسراب القطا فخرجت حذام ابنة الريان وقالت

الايا قومنا ارتحلوا وسيروا * فلو ترك القطا ليلا لناما

فلم يتحركوا من تعبهم ولم يقبلوا منها فخرج دسيم بن طارق وصاح

اذا قالت حذام فصدقوها * فان القول ما قالت حذام

ثم ألزمهم الرحيل فساروا ولجؤا الى واد بالقرب منهم واعتصموا به حتى امتنعوا من القوم وبيتهم العساكر فلم يظفروا بطائل وكان كما قالت (ومن حذق الملوك) ما يحكى ان أحمد بن طولون كان فى متصيد له وقد نزل يتغدى فرأى فقيرا يدور حول خيامه ويتعرض للطلب والتصدق فأمر الغلام فدفع له دجاجة وبعض أرزة بين رغيفين فناوله وهو ينظر اليه من سجف الخيمة ثم أمر بادخاله اليه وسأله من أين أقبل واستنطقه ثم قال هاتوا المقارع أنت صاحب خبر فاعترف ثم ضربه يسيرا فاخرج الكتب التى صحبته فتعجب الناس من فطنته كيف استخرج ذلك وسأله خواصه عن ذلك فقال علامة فقره ظاهرة وهى الحاحه فى الطلب ولما ناوله الغلام الطعام لم يهش له ولم يظهر

فيه سرور يناسب فقره فعلمت انه متصنع لذلك مستغن وان قصده غير الصدقة (وحكى) ان الشيخ عبد الله بن ياسين صاحب دولة الملثمين والمقالات على البلاد كان يوما جالسا فى خيمته مع خواصه فرأى حجاما يدور حول خيمته ويعرض بصنعته فأمر بادخاله وسأله عن موضعه وكان غريبا فلم يزل يستنطقه حتى أمر بأن يخرج محاجمه ومشارطه وأمر بأن يشرط بها فقال لا حاجة لى بالحجامة فأصلك وجهم فورم موضع الحجامة بعد قليل وكانت المشارط مسمومة فتعجب من حضر من فطنته وسئل عن ذلك فقال الريبة ظاهرة وذلك انه غريب ويوم صائف وآخر النهار وهو يلح ويدور حولنا واستدعاه غيرنا فلم يلتفت اليه فعلمت ان القصد لنا فقرره فكان دسيسة من عند على بن يوسف وهو نائبه على البلاد وخليفته بها

الباب الثامن

فى الكسر والهزيمة وما ينبغى ان يفعله الهازم والمهزوم

الحرب سجال وتارات والكاسر لا يغتر والمكسور لا ييأس ففى الوصايا الحربية اذا كسرت جيشا فلا تترك أصحابك يشتغلون بالنهب والغارة فكم قد كر العدو المخذول المكسور وخصمه بالنهب غاز غافل فاوقع به فعادت الكسرة له وان لم يكن بد من ذلك فليكن مع الاحتراز وحفظ الظهور والاجتناب من جهة العدو ولما هزم اخشوارا فيروز وملك الفرس وأسر أصحابه وسقط هو عن فرسه فى خندق فمات وأخذت ابنته وأمواله فبلغ ذلك نائبه سودخرا فجمع نخبة من بقى من عسكره وسار مجدا وضم معه من وجد من الفل حتى أطل على عسكر اخشوار وقد أمنوا وتفرقوا بالغنائم واستراحوا

فصدقهم القتال وكسرهم واستعاد غنائمهم (واما) قاتل الملك رضوان بجموع العرب من بني كلاب وغيرهم كسرهم واستولى على حللهم وأخذ نساءهم وأموالهم وبات في موضعهم مع جواريهم وقد نحروا جزرهم وأغنامهم وأكلوا وشربوا وفرشوا وناموا وغفلوا واغتروا فتجمعت ملوك العرب وصبحتهم صباحا في دارهم فقتلت منهم القتلة الذريعة وكسرتهم الكسرة الشنيعة واستولوا على أموالهم وحرمهم واستضافوا أموال الغير وأثقالهم وكان سبب ذلك مع تقدير الله تعالى غرتهم وطمأنينتهم فينبغي لمن قدر وملك وانتصر ان لا يتبع فان ذلك ردىء العاقبة ولا يمثل ولا يعذب قال عليه السلام اذا قتلتم فأحسنوا القتلة (وأما الخوارج والبغاة) فلا يجوز ان يتبع مهزومهم ولا يجهز على جريحهم ولا يدل على من خفي منهم ومن حق الغالبين التناصف فيما بينهم واستعمال الامانة فيما يغنمونه ولا يخون أحدهم صاحبه وقد وردت المناهي الشرعية بذلك والتشديد على من غل بل يجمع ويقسمه الامام أو السلطان أو والي الحرب بين الغانمين على حكم الله تعالى والسلب للقاتل ويفضل من يشاء بشيء من الغنائم اذا ظهر منه النجابة وجودة المحاربة والاجتهاد ثم يشتغلون بشكر الله تعالى وحمده على ما أنعم عليهم وبما نصرهم ولا يغترون بقوتهم ولا بكثرتهم ولا بشجاعتهم فانه ردىء العاقبة ألا ترى ان أصحاب النبي عليه السلام لما قالوا يوم حنين وهم في اثني عشر ألف مقاتل لن نغلب اليوم من قلة فغفلوا عن الاصل وهو النصر الرباني والتأييد السماوي واغتروا بالعدد والعدد وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين كان عاقبة ذلك انهم

كسروا قال الله تعالى ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم الآية واذا أراد استبقاء البلد فليأمرهم بعمارة ما خرب وغرس ما قطع من الاشجار ويعينهم على ذلك ويحط عنهم بعض الكلف وان كان يريد خراب البلد لعجزه عن حفظها فلينقل الرعية الى بلد آخر ويسبب لهم ما يعيشون به او يوصلهم الى مأمنهم وأما الاسرى فيتعين الاحسان اليهم والشفقة عليهم فهو من المروءة والدين قال عليه السلام من امن رجلا على دمه ثم قتله فانه يحمل لواء غدر يوم القيامة وقال تعالى فى الحث على الاحسان الى الاسير ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا

(فصل) ومن كان مهزوما فليرجع الى الصبر والجلد ويحفظ ما بقى ويجمع اليه من أمكنه من المنهزمين ويتراجعون على حميتهم ويجعلون من جهة العدو أكثرهم وأشجعهم ويكف عن المنقطعين ويلحق المتخلفين وينبغى ان يقصدوا أقرب المواضع المنيعة الحصينة (قيل) ان بعض ملوك الفرس حضر فى حرب فكسر فيها وانهزم وادركته الخيل فنثر دنانير كانت معه وجواهر فاشتغل الذين أدركوه بجمعها حتى فاتهم وبعضهم رمى بمنطقة وتعاليقها فاشتغل عنه بها ونجا (ولما) انهزم خذابنده الحربى وتبعته الخيل انتهى الى مضيق فى غيضة ملتفة فصاح بأصحابه جماعة من أصحابه وقال اخرجوا اليهم يوهم انه انتهى الى كمين له فتوقف الطلب عنه حتى فات وجد فى السير (وأما) من قصده الغزاة لا غير فلا يلتهى بكسب ولا مناطق ولا يغتر بشئ منه ولا يكون غرضه الا طلب الغريم لا غير كما جرى فى فتح مصر لما فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه فى ذلك انه

لما

الا كان المسلمون يحاصرون الحصن كان عبادة بن الصامت رضى
الله عنه فى مصلاه يصلى وفرسه عنده فرآه قوم من الروم فخرجوا اليه
وعليهم حلية وبزة فلما دنوا منه سلم من صلاته ووثب على فرسه ثم حمل
عليهم فلما رأوه غير مكترث بهم ولوا راجعين واتبعهم فجعلوا يلقون
مناطقهم ومتاعهم يشغلونه بذلك عن طلبهم وهو لا يلتفت اليه حتى
دخلوا الحصن ورمى عبادة من فوق الحصن بالحجارة فرجع ولم يلتفت
الى ما طرحوه ولا تعرض لشئ منه ورجع الى مصلاه الذي كان به
واستقبل الصلاة وخرج الروم الى متاعهم يجمعونه (وأما) هم الملوك
العلية فى جمع العساكر والحشود اذا دهمهم العدو والتقبيل فما ثم
أعمر من ديار مصر ولا أكثر من أهلها ولا أسرع من جمع جيوشها
ومما نقل فى التواريخ انه لما أوحى الله الى موسى عليه السلام أن
أسر بعبادى ليلا الآية بما رواه الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس
قال كان بنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون حليا وثيابا وقالوا
ان لنا عيدا نخرج اليه فخرج بهم موسى عليه السلام ليلا وهم ستمائة
ألف وثلاثة آلاف وسبعون رجلا ليس فيهم ابن ستين ولا ابن
عشرين سنة فذلك قول فرعون ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا
لغائظون فخرج فرعون فى اثرهم ومعه خمسمائة ألف سوى الجنبتين
والقلب وفى رواية أخرى عن عمرو بن ميمون قال خرج موسى عليه
السلام ببنى اسرائيل فلما أصبح فرعون أمر بشاة فأتى بها فأمر
بذبحها ثم قال لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع عندى خمسمائة ألف من
القبط فاجتمعوا اليه فقال لهم فرعون ان هؤلاء لشرذمة قليلون
وكان أصحاب موسى ستمائة ألف وسبعين ألفا وأما أصحاب فرعون

فما كان فيهم من بلغ الاربعين سنة فذلك قوله تعالى فاستخف قومه فاطاعوه فللك مصر لا يوزن به ملك الارجح عنه ويجب عليه اذا دهمه أمر بذل الاموال والمسارعة فى جمع الرجال والحماية عن الدين والحريم لترفع له الدرجات فى الدنيا وفى دار النعيم فالله يؤيده بنصره وتوفيقه ويسلك به مناهج العدل وطريقه

الباب التاسع

(فى الحصار وفتح القلاع وما ينبغى ان يفعله الحاصر والمحصور)

البلاد العظام تؤخذ بتفريق الكلمة وكذلك الجموع الكثيرة والبلاد الصغار والقلاع تؤخذ بالحرب أو بالمكيدة فمنها مواضع لا ترام باصل الخلقة مثل الجبال الشاهقة المنقطعة ذوات المسالك الصعب ومثل الجزائر التى لا مراسى حولها ومثل الشعارى الملتفة الكثيرة التى لا يطمع فى احراقها واستئصالها فاهل هذه المواضع يقنع منهم بالمسالمة وكف الاذى ويحسن اليهم على ذلك ويتفقدون بالبر والاطلاق والالطاف فان التعب عليهم كثير والظفر بهم عسير وأما المواضع التى حصنت بالاسوار والخنادق وشحنت بالرجال ووعرت طرقها فكل ذلك يمكن مقاومته بآلات الحصار وبالحيل والمصابرة فى الحرب فالاسوار المحكمة تقابل بالمنجنيقات اذا كانت مرتفعة واذا كانت من جملة فبالكباش والدبابات واذا كانت حصانتها بالمضايق ووعر المسالك فيجتهد فى توسيع الطرق وتسهيلها وشرح ذلك يطول والى الحرب يقاوم كل شئ بما يشابهه ويقاومه أما الحيلات والمكايد فى تفريق الكلمة وفتح البلاد الكبار فهو ان يبحث أولا عن أهل البلد بحثا جيدا فلا بد ان يكون

فيهم اختلاف من جهة الدين أو من جهة الدنيا أو من جهة النسب
ولا يخلو مع هذا ان يكون بينهم تحاسد وتباغض وتنافس فيدس اليهم
من يؤلب بينهم ليفرق جمعهم وان كان لهم زعماء دس الى زعمائهم
وليقصد الطائفة الضعيفة أو المقهورة فانها تلبي كل داع وبعضهم
يثور رقاعا فيها كلام يرجي بينهم وبعضهم يلقي على مسامع النساء
والصبيان كلاما يكون مبدأ الاشتهار والارجاف وان كانت البلد
صغيرة فالحصار كما ذكرنا وقد تحيل بعضهم بان قطع أخبار جماعة من
الجند وأظهر سخطهم وأبطل الاحسان اليهم وطردهم فيسيرون
الى القلعة التي يريد حصارها ويكونون له هنالك ليوم قصده
وبعضهم سير التجار وأعطاهم الاموال وبعثهم الى الناحية التي
يقصدها وقريب من ذلك ما ذكر ان جنكيزخان ملك المغل حاصر
قلعة مدة سنتين فلم يقدر عليها فعظم ذلك عليه فضرب مشورة
مع وزرائه وأركان دولته فاشار بعضهم بأن يرحل عنها الآن وهو
يدبر أمرا فانه اذا رجع اليها بعد هذه الكرة تفتح له في ساعتها فرحل
عنها واستبشر أهل القلعة ودقوا البشائر واما ما كان من المشير على
جنكيزخان من الرحيل فانه استدعى بأولاد المغل قدر خمسمائة
صبي دون العشرين سنة وفوق الخمس عشرة أعمارهم ودس اليهم
انكم تروحون الى القلعة الفلانية تبيعكم التجار بها فاذا استقررتم
هنالك ورأيتم الملك جنكيزخان قد أقبلت جيوشه اليكم فلا يكن
لكم أمر الا وضع السيف في استاذيكم وتفتحون باب القلعة
وتخرجون الى آبائكم بعد ان تقتلوا المقاتلة ولكم عنده اليد
البيضاء ووعدهم بما يسرهم واستحضر التجار ودفع لهم أولئك وقال

روحوا يبيعوهم في القلعة الثلاثية على كل من فيها بالنقد والاجل
ففعلوا ذلك ثم انه اغفلهم سنة وقال لجنكيزخان أما تعزم حتى
تأخذ القلعة التي حاصرتها فتوجه ببعض عساكره فلما أقبل على
القلعة تأهب أهلها ولبسوا آلة الحرب وألبسوا أولئك المماليك
ليقاتلوا معهم فلما استقر حالهم ورأوا الجيش قد اختلط بالقلعة
صرخوا صرخة واحدة ووضعوا السيف في استاذيهم
واشتغلوا بذلك وتوجه بعضهم الى الباب ففتحوه ودخل المغل فلم
يجدوا مانعا فدخلوا القلعة وتملكوها وأوفى جنكيزخان بما وعد
وشكر المشير على حسن تدبيره وضاعف الاحسان اليه (وأما) من
جاد بنفسه في مصالح الناس ورد عنهم ما ليس لهم به طاقة فكما فعل شيخ
من أهل هراة لما قصدهم فيروز ملك الفرس فتبرع شيخ من شيوخهم
بنفسه وفداهم بها وذلك انه قطع أنفه وأذنيه واظهر أثر الضرب
بظهره وألقى نفسه على طريقهم حتى مروا به فرحموه ورفعوه معهم
وقد هالهم ذلك فقال اني أدلكم على طريق مختصرة تصلون في أيام
قلائل ولا يشعرون بكم ولكن تحملون الماء معكم ثلاثة أيام ففعلوا
وسار بهم وتوسط بهم البر فلما كان في اليوم الرابع اشتد بهم العطش
وهو يعدهم ويقول وصلتم حتى كان أول اليوم الخامس قال لهم
اعلموا ان أقرب المياه اليكم الماء الذي تركتموه وراءكم فاصنعوا ما شئتم
وهذا الذي أردت منكم فسقط في أيديهم وقتلوه وساروا حيارى حتى
هلكوا هم ودوابهم ولم ينج منهم الا اليسير (وقد) تحيل بعضهم بانفاذ
كتب مع جواسيس الى أعيان البلد أو الحصن كانها أجوبة كتب
وصلت منهم ليوقع الشك فيهم والتوحش بينهم والريبة بهم وبعضهم

كتب ذلك في السهام ورمى بها تتضمن الوعود الجميلة واسقاط الكلف التي يكرهونها وربما تضمنت التهديد والتخويف بسبي الذراري وقتلهم واخراب الديار وقطع الاشجار وينبغي أن يقصد الى المواضع المستضعفة فيشدد في قتالها واذا رأى قطع الشجر واحراق الدور فيفعل ذلك قال الله تعالى ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين وقد قطع النبي عليه السلام نخل بني النضير وان أمكن ان تقطع عنهم الميرة والاقوات فقد استغنى عن الحصار وكل موضع يمكن قطع الماء والميرة عنه فهو مأخوذ لا محالة وان كان لهم في القلعة أو البلد صهاريج فيدس اليهم من يفسدها ويلقي فيها الزرنيخ وغيره حتى يطلبوا الامان وقد تحيل بعض الملوك على فتح مدينة بان جاء الى مهب الريح ودخنها بالكبريت والجيف حتى فسدت أهويتهم ومرضوا ومنهم من يطرح ذلك في المياه الداخلة اليهم

(فصل في آلات الحصار)

أعظمها نكاية وأشدها المنجنيق وهو من وضع الفرس ويقال ان أول من اتخذه نمروذ بن كنعان وهو على أصناف كثيرة وفيه صغير وكبير منه ماهو بلولب ومنه ماهو بدائرة وفيها اثقالات من الرصاص اذا دارتها الرجال رفعت السهم فاذا تركت رمت فلم تحتج الى رجال كثيرة وقد يتخذ بقسي كبار موتورة وتجعل قبضاتها الى الارض مشدودة في قواعد المنجنيق وفي أوتادها حبال مشدودة الى حلقة المنجنيق وتحرك بزيادة قائم حتى تنفتح أوتارها ويحرك الحجر في الكفة ثم يرمى فيخرج أشد ما يكون واذا أراد الرمي بقدور النفط أو

العقارب أو ما شاء فعل فان كان خفيفا ثقله بالرصاص والاحجار وان كان من النفط والنار اتخذ له كنة من الزرد وحبالا بسلاسل * واما الدبابة فهى آلة ساترة تتخذ من الخشب الثخين الملزز وتغلف باللبود او بالجلود المنقعة فى الخل لدفع النار وتركب على عجل مستديرة وتحرك فتجرور با جعلت برجا من الخشب ودبرفيها هذا التدبير وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر واما يتخذ أعلى من السور فتصعد بحركته اما بلولب أو بشاقص يدفع بها لانه يكون من أسفل عريضا دقيقا أعلاه مربع الشكل مضلعا وفى أسفله بكر يركب عليها واضلاع على البكر فيأتى الرجل بالشاقص فيدخلها بين ثلاث الخشب ويدعمها على عوج ثم يقيمها مرة فتندفع وتجرى على سهولة العجل التى ركبت عليها ويصعد الرجال فى أعلاه وقد أديرت حوله الستائر والطوارق ويستعلى على السور ثم يدنيه اليه فلا يلبث أو يأخذه ويحكم على المدينة والخنادق ان كانت قليلة العرض فيطرح عليها الاخشاب كالجسور والرجال امامها بالجفان تحفظ صانعها وان كان عريضا فيطرح فيه حطب حزم وزرجون وورق وتراب حتى يمتلئ ثم يطرح عليه التراب أيضا ويمهد فاذا انتهى ذلك فلينقب السور ويعلق بالاخشاب كالدعائم ثم يطرح فيه النار فيسقط وان لم يمكن ذلك استرق موضعا من السور بعد طم الخندق فيكشف شرفاته من الرجال بالنشاب ثم ينصب عليه السلالم العراض ويصعد فيها الرجال وان كان فى الخندق ماء فيجمع له فروع الشجر والحشيش والزرجون كما ذكرنا وتثقل بالاحجار حتى ترسب ثم تتكاثر حتى تعلو وتطم بالتراب وان تعذر طم الخندق من ظاهر فليبعد عن السور ويحفر تحت

الارض

الارض سرب الى ان ينتهى الى حائط الخندق فيطم أو ينقب السور فهو امن

(فصل فيما يفعله المحصور)

ينبغي أن يحترز أولا من المستأمنين من جميع ما قدمناه ذكره لئلا تتم عليه حيلة أو غلبة أو تفريق كلمة أو فساد جماعة وليكن بين صاحب الحصن وأهله اشارة وعلامة يعاون بها صحة قوله اذا كان ممسكا أو محبوسا فكثيرا ما أخذت الحصون بهذه الامور ولا ينبغي أن يفتح باب الحصن بالليل ولو لصاحبه لاحتمال أن يكون معه العدو وهو مضطر الى ذلك مكره عليه (في التاريخ) ان أهل حمص لما عصوا على مروان بن محمد واتفق أن قبض على صاحبهم معاوية السكسكي فارس الشام وألزمه بتسليم الحصن والبلد فقال احملوني ودعوني ادعوهم لعلهم يطيعوني فوكل به من يحفظه وأتاهم تحت السور وكلمهم في تسليم الحصن والبلد فانتهروه ومنعوه فقال اذا أبيتم فابعثوا الى غلامي الاسود ميسرة ومعه ثيابي كلها آخذ منها حاجتي وأرده ثم رجع فسأل مروان الموكلين به عما جرى فأخبروه ففطن وقال ويلكم انه أمرهم ان يبيتوكم وانه قال اذا امسيت واسود الليل فالبسوا السلاح واحملوا على الميسرة وارجعوا فتأهب مروان لذلك فلم يشعر الا والخيل قد أقبلت وهم مستيقظون فلم ينالوا منهم غرة ورجعوا خاسرين وأمر مروان بقطع يدي معاوية ورجليه

وينبغي ان يجتهد في ارضاء أصحابه وتأليف قلوبهم واجتماع كلمتهم مع اشتغاله بتفريق أعدائه وتنفيرهم والتضريب بينهم (ويحكى) ان الامين لما كان محصورا سمع ضجة أصحابه في القتال مع أصحاب ابن

طاهر فقال قبح الله الفريقين هؤلاء يطلبون دمي وهؤلاء يطلبون
مالي ولم يزل مهملا لذلك حتى انفلت أصحابه ولحقت بابن طاهر وأما
ما يدفع به آلات الحصار فالمنجنيق أشدها فمن أراد التوقي منه
فليخرج من أعلى السور أخشابا طوالا يظهرها كالجناح المطل
ويدلي منها البسط والاكسية والشباك من الحبال الغلاظ واللبود
ما أمكن ولتكن مرخاة بعيدة من السور فيجيء الحجر وقد ضعف
فعله وبطلت قوته وكذلك النشاب والجرخ والزيار ولا يتجاوز ثقلك
الستائر وأما البرج فليقابل باتخاذ برج آخر فوق القلعة أو السور
أعلى منه ليحكم عليه وأما الدبابة فيدفعها منجنيق يعين رنته عليها فان
كانت ببرج خسفها وان كانت بستائر فرقت من خلفها وان غفلوا
عن الجلود واللبود المبلولة بالخل والنفط يلقى في جميع ذلك فينبغي ان
يحفر حول البلد حفائر وتغطى بقصب وقضبان فوقها تراب فان
الخيل تقع فيها وتتقنطر ركبانها في الحفر وكذلك يطرح في الارض
الحسك الحديد المثلث وهو بأربع أصابع وهذه صفته 
فانه كيفما وقع على الارض كان منه سن مرتفع تعطب به الخيل
وغيرها وان كانت الارض لينة وأمكن تغريقها بالمياه لتتوحل فهو
مانع من دخولها وان كانت الارض صلبة فيزدفي توعيرها بالصخر
والحجر وأفسد المياه التي حول البلدان لم يكن لك به انتفاع وقابل
النفط بالخل وبالشب المخلوطين المبلولين وكذلك بالتراب وادخر في
الحصن من الاقوات والحطب والملح ما أمكن والكبود المطبوخة
واللحوم المقددة والحبوب التي يطول مكثها مثل الدخن والذي
لا يدوم فيؤ سنبله وأصل جميع ذلك الماء فانه مادة الحياة فالاماء فيه

لا حيوان فيه ولا مقام به

الباب العاشر

(فى حروب البحر وصفاتها)

قال صلى الله عليه وسلم فى حديث أم حرام بنت ملحان عرض على قوم غزاة من أمتى يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة فقالت ادع الله ان يجعلنى منهم والحرب فى البحر شديد صعب عسر لأمور منها أن المجال ضيق ولا تكاد السهام والاحجار تخطئ وكل رشق ينكئ ومنها اختلاف الرياح بما يضر أو سكونها عند وقت الحاجة اليها ومنها انه لا يمكن فيه الهرب والفرار ان اقتضت المصلحة ذلك ولا الاستتار قال جاماسب ان الشطرنج وضع لتمثيل حرب البر والنرد وضع لتمثيل حرب البحر فان صاحب النرد وان وضع المهارك فى المواضع الجيدة واحترز فاذا جاءت الفصوص بما لا يوافق الغرض ثم لم ينتفع باحترازه وبطل عليه تدبيره كاختلاف الريح واضطراب البحر قال المتنبى فى المعنى

ما كل ما يتمنى المرء يدركه * تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

وبالجملة يجب على والى حرب البحر ان يتفقد المراكب ويتعهدها ويكثر تقويتها وادخار آلاتها حتى اذا تلف شئ من ذلك وجد ما يخلفه ويحتاط فى تقييرها واحكام ما يلاقى الماء منها فانه الاصل الذى يعول عليه ويتخير القواد والرؤساء العارفين بمسالك البحر ومراسيه وعلامات الرياح وتغيرات الانواء والحركات البحرية من المد والجزر وغيره وقد صنفت الكتب فى ذلك واستقصى الشرح فيها ثم يشحنها بالزرد والخود والدرق والتراس والرماح والقسى

والكلاليب والباسليقات وهى سلاسل بهى فى رؤسها رمانة
حديد وقد يتخذ فى بعض المراكب العرادة وهى صورة منجنيق
لطيف ويستعد من الاحجار ما يرمى بها وكذلك من الاحجار الصغار
التى ترمى من التوابيت فى أعلى الصوارى وهى صناديق مفتوحة
الرأس تصعد الرماة فيها الى أعلى الصوارى قبل دنو العدو كيلا
ينالهم سهامهم فان دهموه صعد متترسا ثم اذا حصل فيها وضع قدميه
على اضلاع معارضة فى أسفل الصندوق فيقف وهو ساتر له
ويدلى مخلاة ملؤها حجارة ويرفعها اليه ويقاتل بها وكذلك يرمى
بقوارير النفط ويرمى فى المراكب جرار النورة المدقوقة غير المطفأة
فانه تعميهم بغبارها وتلتهب عليهم اذا تبددت ويرمى عليهم النفط
وقدور الحيات والعقارب وقدور الصابون اللين فانه يزلق اقدامهم
وقدور السذر والخطمى المضروبين ويعلق حول المراكب
الجلود واللبود المبلولة بالخل أو الماء لدفع النفط ويحترس من
هجوم العدو عليه فى الليل فلا يتخذ فى المراكب نارا ولا يشعل
مصباحا ولا يترك فيه ديكا وان اشتد الخوف عليه وأراد الاختفاء
فليجعل قلوعه ازرق كيلا تظهر من بعد وينبغى ان لا يهجم على
المراسى لئلا تكون مراكب العدو بها كامنة ولا يتقدم الى البر
الا بعد المعرفة به والاحتراز من الاحجار والشعاب والاحراش التى
تتكسر عليها المراكب ويكثر من الماء والزاد ليستظهر على طول
المدة ان دعت الحاجة اليه كادخار أصحاب الحصون وان كان
القتال بقرب البر والسواحل والجزائر فليجعل عيونه وطلائعه على
الجبال فيتأهب لذلك ويفعل مقدم المركب من تأليف أصحابه
ووعدهم واستمالتهم وتحريضهم قبل الحرب كما يفعل والى البر

وأبلغ من ذلك لان هذا لامنجى منه ولامخاص الابصدق القتال
اما كاسرأو مكسور والمراكب الكبار ان سكن الريح عنها جذبتها
الشوانى الى موضع القتال والمراكب الصغار والشوانى لا ينبغى
ان تأتى خلف البطس والمسطحات فانها تغرق فى واديها وأما من
جانبها فلا يمكنها الالتصاق بها بل تقابلها عن بعد وتنطحها بالقياس
الذى يقال له اللجام وهى حديدة طويلة محددة الرأس جدا وأسفلها
مجوف كسنان الرمح يدخل عند الحرب فى اسطام المركب وهى
الخشبة التى فى مقدم الشينى واذا أمكنهم الفرصة تأخروا به قليلا
ثم قذفوا قذفة واحدة قوية فينطح المركب فيخرقه ويدخل الماء فيه
فيطلبون الامان واذا تقرب الشينى من الشينى طرحت فيه
كلاليب كبار من الحديد فيها سلاسل معقودة الى المركب فتوقفه
ثم يطرح الالواح بينهما كالجسر ويدخلون اليه ويقاتلون وليس فى
حرب البحريين أصعب من النفط بسبب الزفت والقير الذى يطلى به
المركب فيحتاط لدفع ذلك باللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون
ومما يدفعه الطين المخلوط بالبورق والنطرون والخطمى المعجون
بالخل كل ذلك يقاوم النفط والاصل فى قتال البحر معرفة الرياح
وتحرك المراكب بالارجل حتى يتقدم مركب خصمه أو يعلو عليه
فوق مهب الريح (وأما) القول فى الخلجان والانهار الصغار فهو
دون هذا وهو قريب من قتال البر لامكان الهروب والصعود الى البر
فى كل وقت وانما يصعب فيه السلوك فى الدحال والمضايق ويكون
العدو على البر فيجذب بالكلاليب والخطاطيف ويرمى بالسهام
والحجارة فأما الكلاب فيضرب بفاس ثقيل فولاذ يقطعه وأما

الدحال والاحجام فلا سبيل الى دخولها الا بدليل من أهلها ويتوقى المواحل التى فيها والمضايق ويقصد الاطراف واذا كان متولى الحرب كثير التجربة والتدبير ظفر بعدوه اذا ساعدته المقادير والله تعالى يديم أيام مولانا السلطان الملك المظفر ركن الدنيا والدين سيد الملوك والسلاطين بيبرس المنصورى فى سعادة مستقرة وسيادة على ممر الزمان مستمرة فالعدو يسالمه من خوف سطوته والملوك تخدمه لشمول نعمته والكتب تخلد محاسن سيرته والالسن والاقلام تتوافق على فضائل دولته جعل الله العدل مواسمه والجود ميسمه

لاخاب آمله ولا خب الردى * يوما اليه ولا خبت نيرانه
والله يحرسه ويحفظ ملكه * ويديم دولته ويعلى شانه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يقول المتوسل بأبى القاسم الفقير الى الله تعالى محمد قاسم)

نحمدك يامن جعلت فى آثار الاول تذكره وموعظة لذوى الالباب وحكمة باهره ونشكرك يامن ابدعت الكائنات بتقديرك ورتبت الوجود على ماسبق فى علمك وتدبيرك ونصلى ونسلم على من دولته أشرف الدول وملته حنيفة سمحاء هى أعلى الملل أفضل رسول مبعوث وأجل من جهز الجيوش وأنفذ البعوث سيدنا محمد الذى أقام بسيفه الدين وأفحم بحجته المعاندين والمضادين وعلى آله وعترته وأصحابه الفائزين بنصرته أما بعد فقد تم بعون من له أعلى المثل طبع كتاب آثار الاول وترتيب الدول لمؤلفه علامة الزمان مظهر

البدائع ومعدن العرفان أوحد الادباء وتاج النبلاء ابو على الحسن
ابن عبد الله جعل الله تعالى الجنة مستقره ومأواه ولعمري انه
لكتاب حري بأن يقتنيه الملوك والوزراء ويحوشوه العمال
والاجناد والامراء لما تضمنه من الآداب الملوكيه والقواعد
المتينة السياسيه ومايتم به أمر المعاش والمعاد وتستقيم به مصالح
العباد والبلاد كأحوال الثغور والمرابطين وذكر الحروب
وتعبية الجيوش وفضل المجاهدين ومايتعلق بذلك من العدد
والآلات وكيفية استعمالها فى المحاربات الى غير ذلك من نوادر
غريبه واتفاقات حسنة عجيبه فكان جديرا بطبعه وتيسير
سبيل نفعه لاسيما بمطبعة بولاق العامره ذات المحاسن والتحريات
الباهره فى ظل من عم نداه سائر الانديه وعم احسانه سائر الاقطار
والاوديه عزيز مصر ذى القدر العلى الخديو اسمعيل بن ابراهيم بن
محمد على متعه الله تعالى بأنجاله وأفاض على العالمين سجال نواله
مشمولا طبعه بادارة الراقى فى المحاسن الى أعلى مكانه سعادة حسين
بك حسنى مدير المطبعة والكاغدخانه ونظارة ذى المعارف التى
عليه تثنى حضرة وكيلهما محمد افندى حسنى ووافق التمام
فى أواسط ذى الحجة الحرام عام خمس وتسعين ومائتين
وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف
صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه وكل ناسج
على منواله

تم